

سیدنی لانجفورد ہائیند

سقوط عرب الكونغو



مكتبة
مؤمن قريش

ترجمة: أحمد العبدلي

ترجمة: أحمد العبدلي



مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
(الإمام الصادق (ع))

moamenquraish.blogspot.com

سقوط عرب الكونغو

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
مهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

سقوط عرب الكونغو
سيدني لانجفورد هايند

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

HT655. H6612 2010
Hinde, Sidney Langford , 1863 - 1930
[The Fall of the Congo Arabs]

سقوط عرب الكونغو / سيدني لانجفورد هايند، ترجمة: أحمد العبيدي - ط. 1 - أبوظبي: هيئة
أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
240 ص: 21 x 14 سم.
تدك: 978-9948-01-587-1
1 - المرجبي، حمد بن محمد بن جمعة، 1840 - 1905 2 - مانييما (الكونغو) - التاريخ
العسكري - القرن التاسع عشر. 3 - العرب - الكونغو - تاريخ - القرن التاسع عشر.
4 - تجارة الرقيق - تاريخ.
أ - العبيدي، أحمد. ب - العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

The Fall of the Congo Arabs (1897)
Sidney Langford Hinde



كلمة
info@kalima.ae
www.kalima.ae KALIMA

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 971 2 6314 468، فاكس: 971 2 6314 462.



www.adach.ae
المعهد للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 971 2 6215 300، فاكس: 971 2 6336 059.

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل
الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات
واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

سقوط عرب الكونغو

تأليف: سيدني لانجفورد هايند

فارس برتبة الأسد الملكي

عضو شرف الجمعية الجغرافية البلجيكية

الضابط الطبي للداخل، شرق أفريقيا البريطانية

نقيب سابق بقوات دولة الكونغو الحرة

ترجمة: أحمد العبيدلي



أبوظبي الثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE



سیدنی لانجفورد هاینڈ

Sid. A. Hinde

المحتويات

9	المقدمة
21	الفصل الأول
23	تصدير
27	الفصل الثاني
	الوصول إلى بنانا، وصف القافلة، الرحلة من الساحل إلى الداخل.
43	الفصل الثالث
	آكلو لحوم البشر من البنجلا - الرحلة إلى أعالي نهري كاساي وسانكورو، الوصول إلى لوسامبو - هزيمة جونجو لوتيته وكيل صائد العبيد تيبو تيب على يد القائد دانيس - آكلو لحوم البشر في باسونجو.
57	الفصل الرابع
	عروض السلام والتحالف التي قدمها جونجو لوتيته لقوات الدولة - زيارة جونجو لوتيته في عاصمته نجاندو - سكان الغابة القصار.
71	الفصل الخامس
	جونجو لوتيته يترك العرب نهائياً ويتحالف مع قوات الدولة - الوصول إلى كابيندا، عاصمة لوبونجو، زعيم البالوبا الأكبر - تحركات العدو برئاسة سيف ابن تيبو تيب، - التحضير للمواجهة.
85	الفصل السادس
	المواجهة الأولى مع العرب - الاستيلاء على اثنين من حصونهم.
95	الفصل السابع
	الاشتباكات مع العدو - عودة سيف للهجوم.

المزيد من الهزائم العربية - القائد يقرر أن يأخذ المبادرة ويقود هجوماً على قوات سيف.

قوات الدولة تعسكر قبالة مدينة نيانجوي على الجهة الأخرى من نهر لوالابا - وصف شعب المياه - مواجهة مفاجئة مع رتلين متقدمين من العرب.

رواية سقوط نيانجوي.

وصول سفراء من سيف بعروض للسلام - القائد يؤخر زحفه على كاسونجو - إعادة تعزيز قوات الدولة الحرة - الزحف على كاسونجو: سقوطها - وصف مظاهر الترف التي عثر عليها في المدينة - بقايا وأثار من أمين باشا - التمرد في مدينة نيانجوي المستولى عليها.

قوات الدولة تستقر في كاسونجو - خرافات المواطنين: عاداتهم وطريقة عيشهم.

إتهام حليفنا، جونجو لوثيته، وبالخيانة وإعدامه في نجاندو - وصول خمسة ضباط من أوروبا الى كاسانجو - استمرار المواجهات مع العدو - العرب ينسحبون من مدينة ستانلي فولز، تاركينها تحت رحمة قوات الدولة - التحاق النقيب لوتيج بقوات الدولة من البنجلا، ومطاردته للعرب حتى النهر - بعد قتال عنيف، تطهير النهر من العرب وحشودهم حتى نيانجوي - تراجع قوات الدولة - هجوم القائد دانيس على حصن روماليزا، على بعد مسيرة ثماني ساعات من كاسونجو.

نقل قوات الدولة من كاسونجو إلى بينا موسوا - القائد يقسم قواته في محاولة لقطع طرق المواصلات العربية - تمركز المزيد من القوات في بينا جويًا، على الطريق الرئيس إلى كابامباري، في بينا كالونجا، وبينا موسوا - تعزيزات للعدو - قوات الدولة تشكل شبه دائرة حول الحصون العربية وتقطع خطوط تموينهم بالأغذية - وصول النقيب لوتينغ وقوة من الجنود من البنجلا - انفجار في معسكر العرب - استسلام العدو - الاستيلاء على كابامباري - أسر زعماء عرب على يد لوتينغ.

الفصل الخامس عشر

وصف الحملة لاكتشاف المياه العليا لنهر اللوالابا.

الفصل السادس عشر

رحلة العودة إلى الساحل.

ملاحظات

ملاحظة حول أكل لحوم البشر.

ملاحظة على حراس جونجو لوتيته الشخصيين.

ملاحظة على استكشاف جزء من نهر لوالابا على يد النقيب هايند.

الكشاف

مصادر بحث المترجم

المواقع

مقدمة

[1] في سنة 1892، كان الصراع بين قوى الشرق والغرب، قد وصل إلى أزمة. لقد بدا أن صداماً كان لزمناً قيد الانتظار بين تلك القوى، تمثل من جانب في عرب زنجبار، ومن جانب آخر في الأوروبيين القادمين من جهة مصب نهر الكونغو. فقد أصرَّ كل طرف على انتزاع الهيمنة، وبدأ واضحاً أن تلاشي إحدى القوتين هو المخرج الوحيد لحل المشكلة.

ولطالما تاهت مجموعة من التجار العرب، ومن صيادي العبيد والعاج¹، أن يحولوا تجارة أفريقيا الوسطى بكاملها إلى زنجبار؛ في حين أن البلجيكيين سعوا من دولة الكونغو الحرة، ولاحقاً في حقل المعركة، إلى تحويل تجارة الداخل إلى مصب الكونغو، ثم، وبشكل أساس، إلى أوروبا.

[2] في القرن الحالي تضافرت ظروف عدة، لتجعل العرب الزنجباريين من صيادي العبيد والمنخرطين في تجارتهم الأكثر شهرة في العالم. ولم يعرف بوضوح إلا القليل عن تاريخهم المبكر، عدا عن حقيقة أن هناك مستوطنات عربية قد تواجدت على طول الساحل الشرقي لأفريقيا.

1 - يعمد الكتاب إلى استخدام مصطلح صيادي العبيد والعاج (hunters of slaves and ivory) لوصف بعض العرب الذين كانوا يمارسون تلك التجارة. وقد صدف أن ثبتت تلك الصفة بنحو أكبر وأوسع على العرب دون وجه حق. فالأوروبيون ربما كانوا أكثر الشعوب التي مارست صيد العبيد والاتجار به أكان في الحضارات الكلاسيكية القديمة في اليونان وروما أم بعد اكتشاف الأمريكتين. كما أن العديد من القبائل الأفريقية، وكما سيظهر في هذا الكتاب، كان يمارس تلك العادة. وكانت الدول الأوروبية من أوائل الدول التي أوقفت ممارسة العبودية. أما بالنسبة إلى صيد الفيلة والاتجار بماجها فقد كان الأوروبيون والأفارقة والعرب جميعاً منغمسين فيها، وقدّر أن ينتظر العالم حتى حلول منتصف القرن العشرين لبدء تغير جذري في هذا الاتجاه.

وفي أي حال، فلربما تكون منطقة شرق أفريقيا من آخر المناطق التي منع فيها الاتجار بالرقيق. فقد سلطت الأضواء على بعض ممارسي التجارة من العرب. ولم توضع تلك الممارسة في سياقها التاريخي (المترجم).

كان البرتغاليون قد سيطروا على هذه المستوطنات بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وبعدها استعادها أئمة عُمان في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

وشكلت جزر زنجبار وييمبا (Pemba)² أهم المراكز ضمن موجة السيطرة العربية الثانية؛ وعبر هذه الجزر وعبر اختلاط الدماء العربية بالزنجية نشأ جنس من العرب السود. على أنهم وعلى الرغم من احتلالهم الطويل لساحل زنجبار والمناطق المجاورة، فإن العرب لم يتقدموا في الداخل إلا في الأزمنة الأخيرة.

وقبل ما يقرب من الجيلين تطورت جزيرة ييمبا لتصبح مزرعة عظيمة للقرنفل، يعمل فيها العبيد على شاكلة مزارع القطن والسكر [3] في أمريكا. وبعد فترة، تزايدت أعمال بعض تجار زنجبار مع مموليههم، فهاجروا إلى شرق أفريقيا لسبر آفاق تجارة العاج. وبالنظر إلى نفوق حيوانات النقل بذباب التسي تسي³، وجدوا أن من الضروري استخدام السكان المحليين للحمل؛ وهكذا ترافق ذلك مع ترحيل الأفارقة إلى أسواق العبيد في زنجبار، كمنتوج برز إلى جانب تجارة العاج، في الوقت نفسه الذي برز فيه الطلب الهائل للعمال في مزارع القرنفل في ييمبا. وتزايد عرض العبيد إلى حدٍّ سمح معه بتصدير واسع عبر البحار إلى الدول الإسلامية.

وإذ فشل العديد من صيادي العبيد والعاج في تحقيق ثرواتهم، أو أخذوا بسحر الحياة البدائية، فإنهم ظلّوا في الداخل؛ ونما بالتالي نظام من

2 - ييمبا أو الجزيرة الخضراء كما تعرف محلياً. جزء من أرخبيل زنجبار وعلى بعد 50 كيلومتراً شمال جزيرة زنجبار إلى الشرق من تانزانيا الحالية، وتشتهر بالخصوبة وزراعة التوابل وخصوصاً القرنفل (http://en.wikipedia.org/wiki/Pemba_Island) (المترجم).

3 - ذبابة (*Glossinidae glossina*) تنتشر في وسط أفريقيا وتسبب أمراضاً للحيوانات والبشر منها المعروف بمرض النوم (http://en.wikipedia.org/wiki/Tsetse_fly) (المترجم).

خطوط التجارة والمراكز العربية يسيطر عليه زعماء عرب معروفون. وعبر تلك الخطوط، وبمساعدة العرب، أو في بعض الأحيان في مواجهتهم، تنقل المستكشفون الأوروبيون في مناطق البحيرات، ومنابع نهري الكونغو والنيل.

وهكذا سار على الطريق الرئيسي بين باجامويو (Bagamoyo) [4] (قبالة زنجبار)، وفي تابورة (Tabora) في أونيانيمبي (Unyanyembe) إلى أوجيجي (Ujiji) في تنجانيقا كل من بيرتون (Burton)⁴ وسبيك (Speke)⁵ ليفنجستون (Livingstone)⁶ وستانلي (Stanley)⁷ وكامبيرون (Cameron)⁸ وجزئياً سبيك وجرانت (Grant)⁹. ويتفرع من الطريق

4 - Sir Richard Burton السير ريتشارد بيرتون (19 مارس 1821 - 20 أكتوبر 1890) مكتشف إنجليزي متنوع المواهب والتخصصات عمل إضافة إلى مهام أخرى ك مترجم وكاتب وجندي ومستشرق ودبلوماسي. عرف برحلاته في أفريقيا وآسيا ومعرفته باللغات والثقافات، وترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية (http://en.wikipedia.org/wiki/Richard_Francis_Burton) (المترجم).

5 - John Hanning Speke عمل جون هانينج سبيك (4 مايو 1827 - 15 سبتمبر 1864) ضابطاً في الجيش الهندي البريطاني وقام بثلاث حملات استكشافية في أفريقيا، وارتبط اسمه بنحو خاص بالبحث عن منابع النيل (http://en.wikipedia.org/wiki/John_Hanning_Speke) (المترجم).

6 - David Livingstone ديفيد ليفنجستون (19 مارس 1813-1 مايو 1873) اسكتلندي من رواد العمل الطبي الإرسالي والاستكشاف في أفريقيا. كان أول أوروبي يرى مساقط فكتوريا، وأطلق عليها الاسم تكريماً لعاهلته، الملكة فكتوريا (http://en.wikipedia.org/wiki/David_Livingstone) (المترجم).

7 - (Sir Henry Morton Stanley) السير هنري مورتون ستانلي (28 يناير 1841-10 مايو 1904) صحفي ويلزي ومكتشف، اشتهر بعمله الاكتشاف في أفريقيا وبحثه عن ديفيد ليفنجستون (http://en.wikipedia.org/wiki/Henry_Morton_St Stanley) (المترجم).

8 - (Verney Lovett Cameron) فيرنون لوفيت كامبيرون (1 يوليو 1841 - 24 مارس 1894) رحالة إنجليزي في وسط أفريقيا وأول أوروبي يقطع خط أفريقيا الاستوائية من البحر إلى البحر. عمل لوقت طويل في كبح تجارة العبيد بشرق أفريقيا (http://en.wikipedia.org/wiki/Verney_Lovett_Cameron) (المترجم).

9 - James Augustus Grant جيمس أوجستوس جرانت (11 أبريل 1827 - 11 فبراير 1892) مستكشف اسكتلندي لشرق أفريقيا الاستوائية (http://en.wikipedia.org/wiki/James_Augustus_Grant) (المترجم).

ممرٌ من أوجيجي وعبر تنجانيقا، وعبر بلاد المنيمما (Manyema)،
بمحاذاة كابامباري (Kebambari) وكاسونجو (Kasongo) إلى نيانجوي
(Nyangwe) على نهر اللوالابا (Lualaba).

وحتى ذلك الحين، اتبعت حركة الكشوف الأوروبية خطى العرب من
زنجبار كأساس. لكن احتلال الأوروبيين الجاد لوسط أفريقيا بدأ برحلة
ستانلي برعاية الجمعية الدولية من مصب الكونغو حتى أعلى النهر؛ ومنذ
ذلك الحين، بات قيام مواجهة أمراً محتملاً مهما جرى تأجيلها. ولم يكن موقع
حدوثها أقل حتمية من ذلك، ولا بموازاة أي الخطوط الاستراتيجية، سيأخذ
الصراع مجراه. كان لدى الأوروبيين اتصال لعابرات القارات البخارية
حتى متادي، قرب أسفل يلالا فولز (Yellala Falls)، وبناء على ذلك فهم
وباستخدام النقل المائي، بعيدون عن التدخل العربي وذلك حتى ستانلي
بول (Stanley Pool). ومن بول يمكن لقواربهم النهرية البخارية أن تبحر
دون مقاطعة، من ناحية، إلى الشرق وعبر النهر الرئيس [5] وحتى ستانلي
فولز، ومن ناحية أخرى، من مصب كوا (Kwa)، باتجاه الجنوب عبر أنظمة
كاساي (Kasai) وسانكورو (Sankuru). وحيث إن المساقط تقع في الشمال،
وسانكورو إلى الغرب من بلاد المنيمما، امتلك البلجيكيون خطين منفصلين
للتقدم، ليلتقيا من قاعدتين منفصلتين على نيانجوي رأس الطريق من
زنجبار. لذلك شكلت بلاد المنيمما المركز الطبيعي للعرب للهجوم والدفاع.

وعندما مرت الحملة البلجيكية، والتي كان النقيب هايند عضواً فيها،
من كاساي إلى الجنوب إلى بلدة النحاس في كاتنجا، عرّضت نفسها إلى
هجوم جانبي من الشرق في وقت كان فيه العرب محميين على مقربة من
المساقط، حيث دمروا محطة الدولة هناك عام 1886. بعدها اتجهت الحملة
شرقاً، بعد تعزيزها بالقائد دانيس (Dhanis)، لمواجهة العرب، وتقدمت نحو
نيانجوي، مجتازة روافد الكونغو دافعة العرب من خط نهري إلى خط نهري

آخر. وحدثت مواجهات في لوبيفو (Lubefu) ولوالابا، حقق فيها البلجيكيون اجتيازات جديدة.

[6] استطاع العرب أن يصمدوا طويلاً في لوالابا، وهكذا احتل الطرفان ضفتي النهر، وراحا يتبادلان إطلاق النار عبره، ويحاولان أحياناً اجتيازه عبر حركات هجومية. وفي مرحلة لاحقة للحملة، وعندما استمر القتال في الشرق على نحو أكبر، إلى كاسونجو، تمكن البلجيكيون وبعد أن استعادوا موقعهم في منطقة الشلالات، من إحضار تعزيزات من الشمال - راسمين بذلك خط التقدم الثاني الذي فتح الطريق لقوات الدولة الحرة.

لخص¹⁰ النقيب هايند نتائج الحملة البلجيكية قائلاً:

«لقد تغيرت الجغرافيا السياسية لأعالي حوض الكونغو تماماً، نتيجة الحملة البلجيكية على العرب. ولقد قيل إن جميع طرق هذه المنطقة من أفريقيا تؤدي إلى نيانجوي. فلقد انتهت هذه المدينة وسوف تتلاشى، وهي المدينة التي زارها ليفينجستون وستانلي وكاميرون، والتي كانت إلى عهد قريب أحد أعظم الأسواق في أفريقيا. ولم أرمكانها وكما رأيت في آخر مرة إلا منزلاً منفرداً. لقد أزيلت كاسونجو تماماً، وهي مركز حديث وإن كانت أكبر حجماً وتضم 60,000 ساكن، إلا أنها لم تعد ممثلة إلا بمحطة للدولة الحرة على بعد تسعة أميال، على ضفة النهر.

«واتفاقاً مع هذا التغير السياسي تغيرت بدورها الطرق التجارية تماماً، وباتت الطرق التي تبدأ من نيانجوي ولوالابا، عبر تنجانيقا إلى أوجيجي (Ujiji)، أو بالاتضاف على البحيرة وحتى زنجبار، باتت تتحدر مع نهر الكونغو إلى ستانلي بول وإلى الأطلسي.

10 - ورقة مقدمة بعنوان:

“Three Years’ Travel in the Congo Free State”, the Royal Geographical Society

11th March 1895.

«وعلى الرغم من نزوعهم إلى الهجمات لاصطياد العبيد خلال الأربعين سنة من سيطرتهم، فإن العرب قد حولوا مانييما (Manyema) وماليلا (Malela) إلى أحد أكثر المراكز ازدهاراً في وسط أفريقيا. وتذكر المناظر الطبيعية وبقوة حين تبدو من أعالي المرتفعات بجوار نيانجو وكاسونجو، بالريف الإنجليزي المعتاد المزروع. وليس هناك ما يشبه ذلك في أي مكان في حوض الكونغو؛ ولكن مع ذلك، فإن العرب أبقوا في ماليلا على جماعة من أكثر أكلي لحوم البشر تأصلاً في تلك العادة على وجه البسيطة».

وكان زعيم العرب الذي أقام هذه الدولة داخل الدولة في مقاطعة مانييما ضمن الحدود المعترف بها لدولة الكونغو الحرة - كان قانص العبيد العظيم تيبوتيب¹¹. لقد تداخلت أحداث الخمس والثلاثين سنة الأخيرة مع شخصية هذا الرجل إلى حد يصعب معه إدراك أهميتها الكاملة دون فكرة القوة الدافعة التي كانت وراءها. وتوفر لنا حياة تيبوتيب المهنية المفتاح لموقف العرب قبل تواجده القوى التي أدت إلى انتقال السلطة في وسط أفريقيا.

تحدث حمد بن محمد بن جمعة، الذي عرف في العالم بلقبه [8] تيبوتيب¹²، من عائلة تجار أغنياء ومؤثرين استوطنوا زنجبار¹³. والده عربي نصف أفريقي، وكانت أمه زنجية بالكامل. وعلى الرغم من العنصر الزنجي القوي الذي يجري في عروقه، فإن تيبوتيب وفي مجمل تكوين صفاته العقلية هو عربي جوهرياً؛ ومن هذا الجانب من تحدره تتبع تلك الإرادة التي لا تقهر،

11 - هو حمد (أو حميد) بن محمد بن جمعة بن رجب بن محمد بن سعيد المرجبي (13 يونيو 1840 - 1905)، تاجر ووجيه عماني في شرق أفريقيا، وعرف بتيبوتيب بين غير العرب (المرجبي 2005)، 11 وما بعد: المغيري (1979)، 7 ff؛ 223، Brode (2000).

12 - تيبوتيب أو «جامع الثروة معاً». وبحسب بعض النظريات فإن الاسم قد تحدر من كثرة استخدامه لبنادقه، فوصفه السكان المحليون بأنه تتبع منه قرعة تشبه: «تيب-أو-تيب-أو-تيب».

13 - حيث إن السيد ستانلي قد وصف تيبوتيب عام 1876 بأنه «في حوالي الرابعة والأربعين من العمر»، فإنه يتوقع أن يكون قد ولد في حوالي عام 1832. (والأصح أنه ولد عام 1840، راجع الهامش المتعلق بحياة المرجبي) (المترجم).

وتجد بلا شك جذورها فيه، والتي رفعتها من تاجر زنجباري إلى موقع حاكم على بلاد مترامية الأطراف.

لقد تمكن تيبوتيب، وفي عمر مبكر، من أن يختط طريقاً مستقلاً لنفسه، فاستطاع أن يجمع مئات المقاتلين من الرجال، الأمر الذي مكّنه من التوغل في قلب أفريقيا للبحث عن العاج والعبيد. وبعد نهب مقاطعات كبيرة وإرغام السكان فيها على الولاء، [9] عاد مرة أخرى إلى زنجبار لكي يسوّق العاج الذي استولى عليه ولتجنيد قواته. وقد حقق ذلك بنجاح، فعاد إلى أفريقيا ثانية على رأس قوة مسلحة كبيرة من الأتباع.

ومع تزايد هذه القوة لتيبوتيب تمكن من توسيع غاراته، ومن التوغل في مناطق كانت غير مكتشفة وبالتالي فتح آفاقاً جديدة للعاج. وتكتيكاته، المنطلقة والمتشكلة من دافع حُكم حياته - من طمع لا يُشبع للثراء - كانت أكثر ملموحاً من أقرانه تجار العبيد؛ وعلى الرغم من أن السياسة التي تبناها، بشكل عام، تمثلت في نظام معتاد من الهجوم والنهب، فإنه تحلى بصفات رجل الدولة تقوده ظروف خاصة توجب عليه التعامل معها. وبناءً على ذلك، وفي أكثر من حالة، استخدم طريقة استثارة السخط والغيرة بين الزعماء المحليين المتصارعين، وعبر خلق حالة تؤدي إلى نزاع يفضي إلى الحرب، كان يحصل على مبتغاه عبر مماثلة نفسه بالجانب المنتصر والمطالبة بنصيب وافر من الغنيمة. وهناك الكثير من المناسبات التي تظهر كيف كان يستفيد من إمكانياته الهائلة لتحقيق مصالحه الخاصة. يقال [10] إنه وفي وقت ما حين شحت ذخائره إلى حدٍّ كبير بحيث بدا أن من الأصلح اتخاذ إجراءات عاجلة، تمكن من أن يدخل هو وأتباعه سلمياً إلى قلعة محصنة بقوة عبر التظاهر بأنه ابن أخت الملك، الذي سقط في العبودية لسنتين خلت في وقت الحرب. وقد حققت استراتيجيته نجاحاً كبيراً إلى حدٍّ أن الملك تنحى لصالحه، ووجد تيبوتيب نفسه على حين غرة عاهلاً يحكم ما يقرب من ثلاثين إلى أربعين

ألف نسمة. وانطلق من الموقع المواتي لغزو الزعماء المجاورين، واستولى على غنائمهم وعاجهم. وعبر استخدام هذه الأساليب المترافقة مع تثبيت حلفائه في مواقع مهمة في المقاطعات المحيطة، تزايد تأثيره إلى حد استحالة النيل منه على الإطلاق تقريباً. وفي عدة مناسبات كان الزعماء المحليون للقبائل المجاورة يتحدون ضده، تدفعهم قسوته للقيام بهجوم مشترك عليه، لكن تيبو تيب كان يقود أعداءه في كل مرة إلى سحق قواتهم وقراهم تماماً. وبهذا انتشر الفزع من اسمه إلى حد أن العديد من الزعماء قدموا مدخراتهم من [11] العاج إليه طوعاً، قاصدين بتلك الوسائل من الرشاوى أن يضمنوا السلامة من غاراته. وعلى الرغم من أن تيبو تيب قدّر هداياهم، فإنه لم يتأثر بها، واستمر في استنزاف المقاطعة من أنفس منتجاتها.

وبعد مرور سنوات عدة، راكم خلالها ثروة عظيمة وتأثيراً قارب أن يكون مطلقاً في لامحدوديته، بدأت حياة الفارات تلك توهن تيبو، فقرّر أن يقوم برحلة إلى المستوطنات العربية في كاسونجو ونيانجوي. وفي نيانجوي، والتي وصلها سنة 1874، التقى كامبيرون، الذي كان قد عرف عن قانص العبيد العظيم من خلال ليفنجستون. وكان تيبو تيب قد قطع طريق ليفنجستون مبكراً منذ عام 1867، وتمكن بين ذلك التاريخ ومقابلته لكامبيرون من أن يضاعف نفوذه وأهميته ثلاث مرات. وبعد أن رافق كامبيرون حتى لوالابا وذهب بعيداً حتى يوتوتيرا، وزوده بعدد كاف من المرافقين لتمكينه من مواصلة رحلته، تقدم تيبو حتى كاسونجو. وهناك واعترافاً بموقعه كأكثر العرب قوة في الداخل، انتخب حاكماً. لكن حياة الاستقرار تحتوي على [12] مغريات أقل لقانص العبيد الشديد الحراك، وقام بعد وضع ابنه سيف على رأس المستوطنة، بتوجيه نشاطاته إلى مهاجمة المقاطعات المجاورة، ولزيادة ثرواته وقوته بنحو أكبر.

وصل ستانلي عام 1876 إلى نيانجوي في رحلته العظيمة منحدرًا نحو نهر الكونغو، وهناك قابل تيبو تيب. وتعود العلاقة بين منظمي القوى المتصارعة - دولة الكونغو الحرة والدولة العربية المستقلة في كاسونجو إلى هذا اللقاء في نيانجوي. كان تيبو تيب في ذلك الوقت، وكما وصفه ستانلي، «في الرابعة والأربعين من العمر تقريباً، بقامة متوسطة وبشرة داكنة وشففتين دقيقتين».

وتمثلت عاداته بعبادات أي عربي مهذب، يضيف حضوره شعوراً بالنفوذ القوي والحيوية. وبصعوبة بالغة تمكن ستانلي من إقناع تيبو تيب والكثيرين من أتباعه من شعبه، بمرافقته في جزء من رحلته. وتضمن الاتفاق بينهم أن يقوم تيبو تيب ضمن شروط معينة وضعها بنفسه، [13] بمهمة الحرس لمسافة ستين معسكراً، على أن يتسلم لقاء خدماته مبلغ 5000 دولار.

بدأت الحملة من نيانجوي في الخامس من نوفمبر 1876، ولكن، ومنذ البداية، بدأت تظهر مصاعب ضخمة مما جعل تيبو تيب يفقد رباطة جأشه؛ وبعد بضعة أسابيع من التردد بين رغبته في الحصول على الـ 5000 دولار واقتناعه بأن المهمة مستحيلة، قام أخيراً بمغادرة ستانلي في فينجا نجارا في الثامن والعشرين من ديسمبر.

ومن هذه النقطة اتخذ تيبو تيب مساره مجتازاً البلاد - مهاجماً وناهباً - حيثما يمر - إلى أوجيجي، حيث توقف قبل أن يواصل رحلته نحو زنجبار. وهناك وفي تابورة (فيها وسّع من نطاق تعرفه على الرحالة الأوروبيين بمقابلة المكتشف فيسمن)، أسس أتباعاً مخلصين، تمثلت مهمتهم في تسلم بضائعه وإعادة توجيهها، والمحافظة على الطريق مفتوحة. وبضربة حظ من الدبلوماسية، نجح في إقامة السلام بين المستوطنين العرب في أوجيجي [14] وزعيم محلي معاد قام بسد الطريق التجاري لسنوات. وقد مكن هذا الإنجاز تيبو تيب من الحصول على عطف كل من السلطان والقنصل البريطاني في زنجبار؛ وفي ضوء موافقتهما أقام لفترة مطوّلة في الجزيرة، مستفيداً من تلك الإقامة في استثمار قدر كبير من ثروته في الأسلحة النارية والبارود.

ولما عاد تيبو تيب مرة أخرى إلى الداخل عاد كملك غير متوج لأراض شاسعة يرأس أتباعاً بالآلاف. فتقدم باتجاه شلالات ستانلي، حيث قرر أن يجعل مقر قيادته؛ وكان وصوله بعيد تأسيس الدولة الحرة مباشرة، وبعد تأسيس محطة الشلالات، على يد ستانلي.

ومن الشلالات كقاعدة، بدأ تيبو نظاماً جديداً من العمليات. فأقام معسكرات صغيرة محصنة في المقاطعات المحيطة؛ في حين أن جماعات من

عربه بدأت القيام بغارات منظمة في أقاليم واسعة، وألقت القبض على عبيد وقامت بمقايضتهم مع قبائلهم لقاء العاج.

استمرت هذه الأوضاع حتى 1886، حين [15] صمم على القيام برحلة جديدة إلى زنجبار ولأسباب خاصة به. وفي الطريق قام بالتفتيش على مستوطناته بطول طريق التجارة، ليلتقي صدفة الدكتور لينتز (Lenz)¹⁴ والدكتور يونكر (Junker)¹⁵، اللذين رافقهما في عودته إلى زنجبار.

وخلال غياب تيبو تيب هذا أغار العرب على محطة الشلالات التابعة للحكومة الحرة ودمروها. وعلى الرغم من أن تيبو نفسه كان غائباً عن المشهد، فإن من غير الممكن التصور بأن التخطيط لهذا الهجوم قد تم دون معرفته، ولربما كان من المحتمل أنه هو المحرك لهذا التطور الجديد للمشروع العربي.

كانت هذه العلاقات العدائية قد برزت منذ البدء بين قائد الموقع في المحطة والزعماء العرب في الجوار، وهم الذين كرهوا سلطة الرجل الأبيض. وكان تيبو تيب لدى مغادرته باتجاه الساحل، قد ترك شريكه بوانا نزيجي نائباً عنه لإدارة أمور شعبه؛ ومارس نزيجي وابنه رشيد (راشد) سيطرة مطلقة على المحليين وتدخل إلى حد كبير في شؤون تتعلق بإدارة المحطة. تصاعد الاحتكاك الدائم بين [16] الضابط الأوروبي ونزيجي وحصل صراع مفتوح حول السلطة، التي أعطت العرب السبب، لشن هجوم على المحطة وهو الأمر الذي سعوا إليه طويلاً. لقد عرفوا بشكل جلي، أن الفرصة لن تسنح لهم ثانية،

14 - هو من المرجح Oscar Lenz أوسكار لينتز (13 أبريل 1848-1 مارس 1925) جيولوجي ومستكشف ألماني - نمساوي وأدار حملة الكونغو المجرية النمساوية بين عامي 1885 - 1887 والتي تضمنت اجتياز الكونغو من الغرب إلى ساحل المحيط الهندي إلى الشرق لاستكشاف الإمكانيات الاقتصادية لدولة الكونغو الحرة المؤسسة حديثاً حينها (http://en.wikipedia.org/wiki/Oskar_Lenz).

15 - هو من المرجح فيلهيلم يونكر Wilhelm Junker (6 أبريل 1840-13 فبراير 1892) مستكشف روسي من أصل ألماني عمل على استكشاف منابع النيل المرتبطة بالكونغو (http://en.wikipedia.org/wiki/Wilhelm_Junker).

فلقد كانت المحطة منقطعة تماماً من أي إمكانية لتعزيز قواتها، وكانت تخضع لرحمة أي قوة مهاجمة تفوق قدرتها على المقاومة. ومنذ البداية، وعلى الرغم من المقاومة الياثسة التي أبدتها الضابط القائد، دين (Deane) والذي تمكن مع عدد قليل من الرجال من منع العدو من التقدم لمدة أربعة أيام فإن سقوط المحطة كان محتملاً.

لم تجر محاولة سريعة لاستعادة الموقع من قبل الدولة، وترك العرب لوقت من الزمن يسيطرون عليه دون منازع.

وبعد سقوط محطة الشلالات، التقى تيبو تيب وستانلي مرة أخرى في زنجبار، حيث كان ستانلي ينسق حملة إنقاذ أمين باشا. وكان الموقف المطلوب مواجهته في غاية الصعوبة؛ وليست هناك من ضرورة للدخول في الدوافع التي أدت بستانلي لتبني سياسة تعيين المحرك الأساس للهجوم وأكثر قانصي عبيد الداخل شهرة [17]، كحاكم يتبع الدولة على الشلالات. وكما هو متوقع فلقد وافق تيبو تيب فوراً على هذا الاقتراح، وهكذا وفي عام 1887، جعلت حياة المغامرة تاجر العبيد المشهور تيبو تيب يتحوّل إلى ممثل للنظام والقانون باسم حكومة معترف بها.

ومنذ البدء، كانت غراية المسألة غير مستساغة لمسؤولي الدولة، الذين وجدوا من الصعوبة بمكان أن يوفقوا بين مجاهرة تيبو تيب بالنوايا الطيبة مع خصائصه المعروفة. ولذلك وحتى يقووا دفاعاتهم إزاء أي خيانة عربية، أرسلت حكومة الدولة الحرة ضابطاً بلجيكياً مع قوة صغيرة لاحتلال الجزيرة المهجورة¹⁶ في شلالات ستانلي. تجاهل تيبو تيب اللامبالي هذا الأمر ظاهرياً، وإن عمل في الوقت نفسه وبهدوء على تحصين معاقله، التي بدأت في احتلال أهباء مهولة. [18] فلقد أسس حلفاؤه العرب أنفسهم في كل من الحالتين: إن كانت ضمن الحدود التي رسمتها الدولة أو خارجها، ومن الجوانب كافة، هي مقاطعات لم يجر فتحها من قبل، وإن كانت التقارير قد بدأت ترد عن استغلالهم للسلطة.

16 - بنيت محطة الدولة على جزيرة في النهر، قريباً من أسفل الشلالات. كان معظم العرب قد استوطنوا البر الرئيسي، لكن بعضهم استقر في قرية على الجزيرة نفسها.

توازى التقدم العربي مع توسع التأثير الأوروبي؛ وكما عرفت كل قوة أن الصراع قد بدأ يحتل أهمية أكبر، وأخذت مظاهر العداء تتخذ مسارات محددة. فلقد بدأ البلجيكيون الذين أقاموا معسكرات محصنة على أنهر أرويمي واللومامي والسكورو، بدفع المراكز الأمامية للعرب إلى الخلف، وعملوا على احتلال البلاد لمنع أي تجاوزات أخرى. وفي الوقت نفسه، فإن العرب وبعد أن وعوا كامل أبعاد المخاطر القائمة حول الموضوع، صمموا على أخذ المبادرة. ولأجل تحقيق ذلك تحالفوا، كأتباع لتيبو تيب، مع زعماء أقوياء في المناطق المحيطة، تمتعوا بأوسع الأثر ومن بينهم لوبونجو (Lupungu) وجونجو لوتيته (Gongo Lotete). كما احتل الاثنان، وخصوصاً جونجو لوتيته، مركزاً محورياً في تشكيل مسيرة [19] الأحداث اللاحقة. فلقد أدّى فشل هزيمة الهجوم الذي قاده جونجو ضد الدولة، وهروبه اللاحق إلى الدولة الحرة، إلى استثارة الغزو العربي بأعلى مداه بقيادة سيف بن تيبو تيب: وهو ما فتح الباب أمام الحملة التي سوف تروى في الصفحات التالية على يد النقيب هايند. وفيما لوقيض لمحاولة العرب أن تنجح، فلربما تأسست امبراطورية إسلامية مشابهة لدولة الخليفة في السودان. لكن الظروف تجمعت ضد العرب، وفي محاولتهم لطمس تأثير الرجل الأبيض في وسط أفريقيا عجلوا بسقوطهم نفسه، وقربوا من تحكيم قوة علي الرغم من أنها لا تظهر على خرائطنا، فإنها من الناحية الفعلية كانت منافساً مستقلاً لدولة الكونغو الحرة.

الفصل الأول

تصدير

[21] وجدت ضمن حدود دولة الكونغو الحرة، كما رسمها مؤتمر برلين¹⁷، مقاطعة كبيرة وسمّيت بكاسونجو أو مانيمبا في خريطة أفريقيا، والتي لم تمارس عليها حكومة الكونغو الحرة أي سيطرة، فيما عدا تيبو تيب أو رشيد أو واحد أو اثنين من العرب ممن عينوا كمسؤولين في بلادهم بواسطة حكومة دولة الكونغو الحرة. لقد أسست في تلك المقاطعة العظيمة منظمة عربية قوية، احتفظت باتصال دائم مع زنجبار عبر الطريق البري خلال أوجيجي، وعبر طرق محيطة أخرى. وعت هذه القوة العربية أنه وما إن يقوى التأثير الأوروبي بشكل كاف في [22] حوض الكونغو فإن صداماً بين القوتين سيصبح حتمياً. وفضلاً عن ذلك، فإن العرب عرفوا أنه في حال النجاح الأوروبي، فإن الجزء الأكبر من تجارة العاج والمطاط سيؤخذ من أيدي المسلمين، وبالتالي، سوف يتخذ طريقه، بدل الاتجاه نحو الشرق، عبر الكونغو نحو الأطلسي. وسيخسرون إلى الأبد البلاد العظيمة، التي كانت تشكل أراضي الصيد للغزوات وقنص العبيد. وبتوقعهم لهذا، اختاروا لحظتهم بدقة، في وقت لم تكن فيه الدولة الحرة مستعدة للحرب. وعبر نجاحات المهدي من قبلهم، في تأسيس إمبراطورية طرد الأوروبيين منها، تشجعوا بدورهم أمّلين القيام بشيء مماثل في حوض الكونغو. وكانت حركتهم الأولى هي إبادة حملة هودистер (Hodister)¹⁸، مع الرجال البيض الذين تركوا في المحطتين التجاريتين اللتين أقامهما ضمن أراضيهم؛ وبعدها قتلوا أمين (Emin)

17 - مؤتمر برلين ويسمى أحياناً بمؤتمر الكونغو (1884 - 1885) وقد عقدته الدول الأوروبية لاقتسام أفريقيا (http://en.wikipedia.org/wiki/Berlin_Conference_%281884%29) (المترجم).

18 - هو (M. Hodister) إم هودистер ممثل الشركة التجارية البلجيكية وشكّل مقتله عشرة بلجيكيين آخرين باللومامي الأعلى بداية الحرب العربية البلجيكية (http://www.1911encyclopedia.org/Congo_Free_State) المترجم.

باشا¹⁹، الذي كان حينها رحالة مسالماً، في بلادهم، وبحماية زعيم عربي قوي. وأخيراً، نظموا جيشاً قوياً، وهاجموا الحملة التي كنت مرتبطة [23] بها؛ والتي كان هدفها إقامة محطات في كاتنجا، وهي مقاطعة ليست خاضعة للسيطرة العربية. ولوقيض لهم النجاح في القضاء علينا، فسيكون من السهل عليهم متابعة السير براً حتى ستانلي بول؛ وفي الوقت نفسه يأملون أن يكون هجومهم على محطة شلالات ستانلي هجوماً ناجحاً، وهي حالة ستؤدي إلى أن يهبطوا في نهر الكونغو نفسه برتل آخر، وحينها لن يجدوا صعوبة كبيرة في طرد الأوروبيين المتبقين، وبالتالي تأسيس امبراطورية إسلامية. وكما سيظهر في الصفحات التالية، فإن حظاً فائقاً للعادة، ترافق مع القيادة الجيدة، كان سبب نجاحاتنا الأولى. وبالتعرف إلى ما كان موضع المخاطرة، وبالوعي الكامل لخطورة الموقف، فإن المسلمين قاتلوا حتى النهاية المبررة، وهم يعودون مرة تلو الأخرى للهجوم، حتى وإن تلاشى أي أمل للنجاح. وكانت النتيجة خسائر هائلة لا تصدق في الأرواح. أما بالنسبة إلى القارئ العادي غير المطلع على التاريخ الأفريقي، فلربما بدا ذلك على السطح بمثابة حرب صغيرة تلفت الأنظار بفرابتها، حيث تواجه دزينة ضباط بيض برفقة أربعمائة من العساكر السود [24] من جانب، بمواجهة مائتين من الزعماء العرب، يدعمهم بضع مئات من الخليلط العربي الأفريقي يقودون أعداداً كبيرة من الجنود غير النظاميين، من جانب آخر. ولكن يتوجب الأخذ في الاعتبار، وعلى عكس الصراع في السودان، أن هذه المواجهة قد أخذت مسيرها في وسط بلاد كثيفة السكان، اعتاد سكانها أجمعين، على الحرب الوحشية، وشاركوا في القتال، وأن قطاعات كبيرة من الرجال قد تبادلت المواقع بانتظام بحسبما زادت

19 - محمد أمين باشا، وعمد بالأصل باسم إدوارد شنتنيزر Eduard Shnitzer (28 مارس 1840 - 23 أكتوبر 1892) طبيب وعالم طبيعي عمل حاكماً لمقاطعة أعالي النيل في السودان حين كان تابعاً لمصر. دفعته ثورة انفجرت بالخرطوم للتوجه إلى جنوب السودان حيث حوَّصر، وتشكلت حملة بقيادة هنري ستانلي لإنقاذه، وتم ذلك. لكنه قتل لاحقاً بعد أن التحق بالعمل في الشركة الألمانية بشرق أفريقيا http://en.wikipedia.org/wiki/Emin_Pasha (الترجم).

مكانة هذا الطرف أو ذاك أو قلت. وهكذا فبينما دفع العرب إلى الخلف باتجاه تنجانيقا، نجحوا في إخضاع كل الرجال المقاتلين لقبائل جديدة لراياتهم. لقد كان ذلك أسهل، بحيث إنهم كانوا ولثلاثين سنة، القوة الوحيدة؛ إذ لم يكن الأوروبيون معروفين، وكان السكان المحليون سريعي التصديق للقصص التي انتشرت في أوساطهم عن قسوة الأوروبيين إزاء الأدنى منهم. وعلى الرغم من أن خسائرننا نحن وحلفاؤنا كانت جسيمة، فإن الخسائر العربية كانت أكبر بكثير؛ بل إنها تقدر في الواقع، بسبعين ألف رجل. كان هذا الصراع، بلا شك، نقطة تحول في التاريخ الأفريقي. ويستحيل حتى تلخيص مآل تأثير ذلك في [25] مستقبل أفريقيا فيما لو أسست دولة إسلامية أخرى في حوض الكونغو. أما بالنظر إلى ما تقوم عليه الأشياء حالياً، حيث أزيلت القوة العربية من وسط أفريقيا، فإن التنبؤ بأثر ذلك في البلد لا يزال صعباً.

ففي وضعيتنا الراهنة من الجهل فإن خيار الاستيطان بمواجهة الإقامة، بات خياراً مستحيلاً. فالمعرفة المتزايدة عن الأمراض، ومعالجة تلك التي تخص أساساً الطقس المداري، يمكن أن يجعل قيام مستعمرة أوروبية صحية في هذه الأرض الثرية أمراً ممكناً، وحيث يبدو قيام التجار المتجولين المدعومين بنمط ما من الاحتلال العسكري العنصر الأوروبي الوحيد في الوقت الراهن.

الفصل الثاني

الوصول إلى بنانا - وصف القافلة - الرحلة من الساحل إلى الداخل

[26] دولة الكونغو الحرة، وكما يعرف غالبية الناس الآن (على الرغم من أنه ولأربع سنوات أو خمس مضت فإن القليل لا يعرف أكثر من وجودها فقط)، هي وبشكل عام، بلاد يستمد منها نهر الكونغو وروافده مصدره المائي. وتمتد من مصب الكونغو، على الساحل الأطلسي، إلى الساحل الغربي لبحيرة تنجانيقا؛ وبين خطي العرض الخامس إلى الشمال والثالث عشر إلى الجنوب. وتقع كل الروافد الأساسية للكونغو ضمن حدودها باستثناء رافد يقع في منطقة تعرف بالكونغو الفرنسي. وتغطي غابة الكونغو العظيمة أصقاعاً عديدة من هذه المساحة الشاسعة لهذا البلد الواقع في أفريقيا الاستوائية. وبين أعظم الغابات المدارية في العالم، يمكن للمرء أن يتحدث عن ثلاث فقط: [27] الأمازون وأرخبيل الملايو والكونغو. وبين الساحل وحتى ستانلي بول، حيث تمتد مساحة تقرب من مائتين وثمانين ميلاً، يجري الكونغو بين مرتفعات عظيمة، وبشكل مجموعة من الأنهار السريعة والشلالات تجعل المواصلات النهرية مع الداخل مستحيلة على الإطلاق. وما إن تصل إلى ستانلي بول حتى تصبح المواصلات مع الداخل سهلة. ويمكن الوصول إلى ستانلي فولز الواقعة على بعد ألف ميل بأعلى النهر، بالمركب البخاري، بحيث إنه لا توجد بينها وبين ستانلي بول منحدرات نهرية سريعة. ويمكن استخدام كل روافد الكونغو تقريباً للمواصلات النهرية، التي يمتد بعضها لمئات الأميال. وكما يمكن التخيل بسهولة، أن أي جزء من البلاد في جوار مباشر لأي من تلك الروافد قد بات معروفاً إلى حد كبير، وإن وقعت مناطق لا تبعد كثيراً من ضفة النهر، لكنها ليست مستكشفة تماماً. وتشكل حقيقة أن هناك أراضي لم تستكشف بعد في الكونغو، وبالتالي أجناساً غير معروفة سيتم العثور عليها، مصدر استثارة للعديد من الناس. ومنذ صباي، شكل كل شيء يرتبط بالقارة

الغامضة مصدر اهتمام لي؛ وقررت أن أرى بعضاً [28] منها إن أتاحت لي الفرصة ذلك.

وتمثلت إمكانية القيام بذلك على الشاكلة التالية:

طلب مني صديقي الدكتور بارك²⁰ من البعثة الاستكشافية لإنقاذ أمين باشا، عدة مرات الخروج إلى أفريقيا في خدمة صاحب الجلالة ملك البلجيكي؛ وأخيراً، وبعد أن عملت طبيباً مقيماً في عدة مستشفيات، قررت أن أقوم بذلك. ذهبت إلى نتلي (Netley)²¹ يوم السادس والعشرين من أكتوبر 1891، وبعد التشاور لساعة مع بارك، غادرت إلى بروكسل في الليلة نفسها. وفي اليوم التالي قبلت التكليف كضابط طبيب في قوات دولة الكونغو الحرة، وأخيراً وصلت إلى بنانا (Banana)، في مصب الكونغو في ديسمبر 1891. وأخذاً في الاعتبار أن سمعة الساحل الغربي لأفريقيا حيث يوجد خليج بنانا غير مشجعة، إذ أن أول شيء يلاحظ هو أن رأس الشريط الصغير الرملي والذي بنيت فوقه محطة تحتله بالكامل هو مقبرة مزدحمة. يبقى أن هذا الشريط الرملي والذي لا يرتفع لأكثر من بوصات قليلة فوق منسوب ارتفاع الماء، [29] مع مستنقعات المنجروف والبحيرات الضحلة باتجاه البر تحتوي على أمواج الأطلسي على الجانب الآخر، يشكل مصحة جيدة جداً للأوروبيين المنهكين الذين يهبطون

20 - Heazle Parke توماس هيزل بارك (1857 - 1893) طبيب إيرلندي ومكتشف وعالم طبيعي جندي. خدم في الجيش البريطاني بمصر كطبيب، وقاتل في الخرطوم لإنقاذ الجنرال جوردون عام 1885. والتحق بحملة إنقاذ أمين باشا حيث أدت شجاعته وخبرته الطبية لإنقاذ الكثيرين، وأطلق عليه أنه الرجل الذي أنقذ ستانلي (أنظر هوامش لاحقة) (http://en.wikipedia.org/wiki/Thomas_Heazle_Parke) (المترجم).

21 - لربما أشار هنا إلى مستشفى فكتوريا الملكي العسكري والذي عرف بمستشفى نتلي لوقوعه بنييتلي في هامبشير بإنجلترا. أنشئ المستشفى عام 1856 باقتراح من الملكة فكتوريا (1837 - 1901) وخدم الجهد العسكري البريطاني، وهدم عام 1866 (http://en.wikipedia.org/wiki/Netley_Hospital) (المترجم).

قادمين من المنطقة الداخلية البعيدة. وما كان استقبالي في بوما (Boma) ²²، وخلال الأيام القليلة الأولى، أكثر مدعاة للبهجة. فقد كان الفندق مزدحماً؛ وحيث بدا، أنه لم تكن مهمة أحد أن يجد لي مأوى، نمت على سطح القارب البخاري الراسي على رصيف الميناء. وتفاجئ المرء الترتيبات المستغربة لبيت الجمارك، حيث يتوجب على الضابط أن يدفع ضرائب على بنادقه، وذخيرته، وحتى على مسدس خدمته. وفي أي حال، فبعد وقت قصير وصلتني الأوامر بالتقدم إلى لوسامبو (Lusambo) على السانكورو، وعليه استقلت أول مركب إلى متادي (Matadi) وهي نقطة يبدأ منها طريق القوافل إلى ستانلي بول. وحيث إن نهر الكونغو باتجاهه الصاعد والمسافة ثلاثمائة ميل يتجه من ستانلي بول إلى متادي يتكون من مجموعة شلالات، توجب أن تتم تلك الرحلة على الأقدام، وإن كانت الأمور ستسهل قريباً عبر خطوط السكة الحديد، والتي قُطع شوط في إقامتها. ويبدو المنظر قريباً من أسفل متادي رائعاً؛ فالكونغو العظيم وهو ثاني أكبر أنهار العالم - يتوغل بقوة [30] عبر ممر ضيق يقل عن الميل اتساعاً، ويعرف بموقع شودرون الجهنمي «Chaudron Infernal». وعلى الرغم من أن المراكب البخارية عابرة المحيطات تصل حتى متادي بانتظام، فإنه لم يُنَجح قط في سبر أعماق النهر في هذا الممر. ولربما كانت المسألة مسألة وقت قبل أن يحطم أحد هذه المراكب جهاز تحكمه أو قطعة أخرى من آلاته، أو قبل أن تحدث كارثة مروعة. متادي - وكما يتضمن معناها المحلي «حجر» - هي سهل صخري أجرد قاحل، وتبلغ الحرارة فيه أشدّها. وبعد أسبوع من الانتظار دون جدوى (وخلال هذا الوقت لم يجر تزويدي بمنزل أو فراش أو خيمة فتوجب عليّ النوم في معطفي في شرفة منزل المثلثة)، أعطيت، برفقة ثلاثة ضباط توفوا لاحقاً، بضع دزينات من الحمالين لنقل أمتعتي، وبدأنا السير على طريق القوافل.

22 - شكلت مدينة بوما عاصمة للكونغو البلجيكي (1826 - 1886) وهي المقصودة بالإشارة هنا. وتعني البوما أيضاً حظيرة أو تحصين عسكري لموقع باستخدام جذوع الأشجار (http://en.wikipedia.org/wiki/Boma_%28enclosure%29) (المترجم).

والقافلة، كما يعرف غالبية الناس، هي مجموعة من الناس تسافر معاً من أجل تحقيق الراحة والحماية المشتركة، وأن احتواءها على العناصر والمعدات هو أمر ضروري لنجاح المهمة. وكما سيتوجب عليّ سأحدث في بعض مناسبات الارتحال بقافلة، وكانت هذه هي المشاركة [31] الأولى لي في واحدة منها دون إعطاء الانطباع بأنها نموذجية، وسأصف قافلتي التي سارت بعد بضعة أشهر، تاركة لوسامبو إلى كاتنجا. ولقد تشكلت من:

الضباط البيض وخدمهم؛ حاملي البنادق والحمّالين؛ الجنود النظاميين وعدد معين من الحمّالين الإضافيين لنقل زيادات ضرورية للصحة، وطبيب العيش ورضا الرجال. ينقل الحمّالون كل الأثقال - بما فيها الأغذية، والعتاد والماء - التابعة للقافلة على الطريق، مع الأثقال التي تشكل هدف الرحلة بنحو خاص مثل المتعلقة ببناء المحطات، أو الاستكشاف، أو التجارة أو الحرب. وغالبية البعثات التي ارتبطت بها اشتملت على العناصر الأربعة. ويزيد وجود بعض الرجال الإضافيين - مثل النجار أو الحداد أو مصلح الأسلحة والخياط والطباخ - من الراحة العامة بشكل كبير؛ ويتوجب أن يرافق بعثات وسط أفريقيا كافة صياد محترف أو اثنان، وستة قوارب خفيفة على الأقل ورجال مياه عامّون. وكان القائد دانيس قد أصدر أمراً جديداً في الرحلات الأفريقية بالسماح لكل جندي بأن يصطحب زوجته أو زوجته كما يكون الأمر معه؛ [32] وحتى الحمّالون تتبعهم زوجاتهم بشكل عام. ولا يمكن تقدير الفوائد الجمة من السماح للرجال بالحرية الكاملة في هذا المجال إلا بالتجربة الشخصية في رحلات القوافل التي تضم النساء أو تستبعدهن من بين صفوفها. وبين أهم تلك الفوائد، وهي ليست محل جدل، تفادي المشاكل مع سكان القرى المحليين أو الناس الذين يُمر بهم وفيما يتعلق بموضوع النساء. وسوف يتلاشى الإزعاج والخطر الحاصل، على الرغم من الضبط الشديد، والمتعلق بما يعرفه كل مسافر أفريقي بـ «التحدث إلى النساء»، حين ترافق الرجال زوجاتهم.

وعلى الطريق، تشكل النسوة أيضاً، حمّالات إضافيات - حيث إن كثيراً ما يسهل على الجندي أن يحمل غذاءه وسجادة وقدراً للطبخ وبطانية وذخيرة وبندقية مع زوجة تساعده في ذلك؛ وإذا كان لديها خادم أو أكثر يضاف، فكل هذه الأشياء تسهّل من الأمور أيضاً. ويتوجب الأخذ في الاعتبار أنه بين الأجناس كافة التي أتحدث عنها، فالنساء بها معتادات على العمل الشاق؛ ونادراً ما سمعت عن أي حالة فضلت فيها النساء البقاء في محطة مريحة بدل متابعة رجالهن في الطريق. [33] وبالوصول إلى المعسكر، يبدأ كل رجل للتوّفي بناء كوخ لنفسه ولعائلته، وبينما ينشغل هو بذلك تبدأ النسوة في البحث عن الطعام وطهوه. وبالنتيجة يُعتنى بالرجال ويُغذّون بشكل جيد ولا يكونون عرضة لتقلبات الطقس. وبنهاية مسيرة طويلة ومتعبة، يستحيل تقريباً جعل الرجال يهتمون بأنفسهم؛ فبعد نقل حمل ثقيل طوال اليوم، يرفضون تحمل عناء الاعتناء بأنفسهم بشكل معقول، وإذا ما كان الطقس رديئاً، أو شحّ الطعام، فسرعان ما يمرضون. وإذا ما مرض رجل في الطريق، وإن ظلّ قادراً على المشي، فأول شيء يفعله هو التخلص من تموينه من الغذاء - والذي يوضع عادة في ربطة ثقيلة ومزعجة - بأمل أن يتمكن في اليوم التالي من شحذ أو استعارة تموين شخص آخر أو سرقة. وكانت الصحة الجيدة التي تشيع في قوافلنا نتيجة هذا النظام ملحوظة بشكل كبير. وفي حالة واحدة كنا على الطريق لسبعة أشهر بمعية أربعمئة جندي، وقافلة تتكوّن من ألف وثمانمئة نفس، [34] ولم نخسر طوال هذا الوقت أي رجل بسبب المرض أو الهروب. واشتملت البعثة على مسيرة سبعة أيام في مقاطعة هاجمتها قوات عربية مؤخراً، وحيث استحال العثور على ذرة من الطعام من أي نوع، ولم نر خلالها أي شيء حي، حيث قضي على السكان المحليين أو أخذوا كأسرى. كانوا قد قضوا على حيوانات الصيد؛ وحتى الحمام والدجاج الحبشي والتي تفضل صحبة الإنسان، رغبت بنفسها إلى مقاطعات أخرى. وحيث إننا عرفنا ما يُخبأ لنا في المستقبل، فلقد حمّلت القافلة نفسها بالغذاء الكامل، وحملت النسوة

عدة صناديق أكثر مما يحمل الرجل. وكانت القوافل تسير في أفريقيا عادة في رتل واحد، حيث نادراً ما يزيد عرض الطريق في داخل البلاد على عشر بوصات. وكان تشكيلنا يتضمن أن يتقدمنا حرس متقدم قوي من الجنود، من الذين لا يسمح لهم بحمل أي شيء عدا بنادقهم وذخيرتهم؛ يتبعهم تقدم الأحمال والحرس، وبعدهم النساء، ويأتي في النهاية حرس قوي للمؤخرة. ويتوزع الضباط البيض، وكل واحد منهم بحرس خاص جيد، [35] على طول الخط، والذي يمتد أحياناً لميلين أو ثلاثة أميال.

وسيقف الضابط القائد للحرس المتقدمين طليعة القافلة، ربما لعشرين دقيقة إن مرت بعقبة هينة، ربما لا تزيد على وجود شجرة ساقطة. سترسل حينها القوات الإضافية كلها وتابعو المعسكر فوراً إلى مقدمة القافلة، وحين يتخطون ذلك يتوجب عليهم أن ينسحبوا خارج الطريق، بحيث لا يسمح لهم بأن يتخطوا أو يتدخلوا بأي طريقة مع القافلة الرئيسة. ويسير مع حرس المؤخرة الحمّالون الإضافيون والسجناء، ويكون واجبهم أن يلتقطوا ويحضروا أي أحمال أو مرضى يكونون قد سقطوا من الصفوف.

وبدوره طريق القافلة يستحق بعض الوصف. فهو نادراً ما يزيد على البوصات العشر عرضاً، ولا يتغير العرض أينما اتجه الطريق: إن جرى الأمر حين اجتياز مرتفعات صخرية، أو المرور بفابات، أو حين الهبوط من الجبال والجوانب السحيقة للممرات الضيقة، يظل الطريق هو الممر الرتيب نفسه. وهو مرهق إلى حدّ لِيُتَبَّع لبضع ساعات، على أن الساعات سرعان ما تطول لتصبح أياماً، والأيام أسابيع، ليستقر في ذهن المرء اعتبار الممر بمثابة عدو شخصي. وبعد [36] المرور بسهل رملي حارق، بشفرات حشائش جافة بطول قدم أو اثنين -وهو نطاق موحش ومنعزل إلى حدّ أنه لا يسمع به طنين حشرات- لربما يخرج المرء على أرض حجرية (بدت أمامه في المدى لساعات من قبل كطبقة رمادية)، حيث يبدأ منها طريق لا ينتهي كخط أصفر يمتد نحو الأفق.

ولربما سيبدو خط أزرق من الجبال بارزاً، في البعد وباتجاه الشمال، وإن كان الطريق قد استمر باتجاه شمال شرق، تعرف أنه ومهما كانت الصعوبات في الصعود، فإن الطريق سينعطف جانباً وستتسلقها في أكثر المواقع انحداراً. وإن قaddock الطريق إلى بلاد خصبة، فإنه سيتلوى مثل ثعبان، ليشكل نفسه كحرف إس (S)، وسينجح بالتالي في مضاعفة المسافة إلى القرية، ومن المواضيع بما يقرب من ساعة أو ساعتين قبل ذلك. والساكن الأصلي المعادي يرى هذا الطريق كصديقه. فهو يحفر حفراً فيه بقطر قدم، ويضع فيها أشواكاً حادة أو رؤوس سهام مسمومة، ثم يغطي الفتحة بأوراق مغبرة، ليضع الغافل من الحمالين الحفاة رجله فيها، فيصبح عديم الفائدة أو يموت على الطريق. وشجرة ساقطة على الطريق تقيد العدو أيضاً: [37] فهو يضع رمحاً في الحشائش أو الأجمة التي تلو الطريق في الجانب المقابل، بحيث إن أول رجل يصطدم بالشجرة أو يقفز فوقها يقتل. وحين يموت رجل في القافلة لا يدفن، بل ينحرف الطريق لياردتين أو ثلاث ياردات من الجثة. ليعود بعدها ويلتحق به وبمسافة مساوية على جانبه الآخر. ويبقى ذلك الانحناء إلى ما لا نهاية - فما إن تغادر الخط المستقيم، حتى لا يعود الطريق إليه أبداً. يكفي لشجيرة شوكية صغيرة، أو شجرة ساقطة أو حجر أن تلوي الطريق في انعطافة تطول لياردات أو أميال، ليعود بعدها إلى نقطة تواجه العقبة الأصلية، وإن ليس بعيداً عنها. ويتجاهل الطريق الأنهار والأودية الصغيرة: فمهما كانت الصعوبة في اجتيازها فإن عبورها ينتهي على الضفة أو الجهة المقابلة، لا أطول ولا أقصر فعلى الرغم من أن الأنهار ربما تتحول إلى مخاضة في الفصل الجاف، فإن جسراً أو زورقاً خفيفاً يظل هو الوسيلة الوحيدة لاجتيازه في الفصل المطير.

[38] ولكن وبالعودة للرحلة إلى لوسامبو. وقبل أن نسير لعدة أيام على الطريق وصلنا إلى الاستنتاج بأن لا بد لشيء غير معتاد من أن يكون قد حدث. ارتمت جثث الأموات في كل حالات التحلل على الطريق كما سقطت أصلاً،

وتعلقت أثقالي من كل نوع ووصف من على الأشجار، وغالباً ما تكون على بعد أقدام قليلة من أجساد الرجال والذين بدا أنهم قد وضعوها هناك. فمن عادات الحماليين الأصليين أنهم يشدون الحِمْل بين فرع شجرة شوكي التفرع، أو بمساعدة عصا للمشي يقدر طولها بستة أقدام والتي يحملونها كلهم للمساعدة في حفظ توازن الحِمْل بالاستناد إلى شيء إضافي. وبهذا يتفادون مشقة رفع الحمل من الأرض عندما يرغبون في متابعة الرحلة. وطوال طريقنا إلى لوكونغو (Lukungu) - وهو منتصف الطريق إلى ستانلي بول - رأينا هذه الحالة السيئة من الأمور. وفي عدة مرات وجدنا مشقة في الحصول على ماء، حيث إن جثث الأموات كانت ملقاة في الجدول أو النبع الذي كنا قد قررنا أن نقيم إلى جواره معسكراً جيداً. لم نر أحداً ليقول لنا ماذا بالأمر، أو لتنبيهنا حول حالة المنطقة الخطيرة. وحين وصلنا إلى لوكونغو [39] علمنا أنه، وبسبب انتشار وباء، قيل إنه الديزنطاريا، فإن كل المواصلات مع الساحل قد انقطعت، بحيث إن السكان الأصليين رفضوا الذهاب إلى المناطق الموبوءة. وانتشر هذا الوباء كنار الغابات وسط القوافل، وكان مردّد ذلك أساساً إلى العادات السيئة التي يتبعها السكان الأصليون في تلك المناطق بخاصة. ويضاف إلى ذلك أن الفصل كان فصل الأمطار (وهو فصل الأعاصير أيضاً)، ولقد مررنا جميعنا بتجارب عصيبة. وبسبب أنه جرى تنبيهي مسبقاً، فإنني حرصت على أن أغرز أعمدة خيمتي من ست بوصات إلى ثمانٍ أعمق مما هو معتاد، بحيث تنتصب حاشية خيمتي فوق الأرض، وإذا ما أهيل التراب عليها فإن الأمر يشكل عامل سلامة إضافياً. وبإضافة حفر خندق حول خيمتي ووضع أمتعتي في أكثر الأماكن انكشافاً، يصبح من الصعب حتى على إعصار أن يقتلع مسكني. ولرات عدة في الليل، وبقليل من الإنذار أو بعده تماماً، تطير خيمة واحدة أو أخرى من الزملاء الذين كانوا أكثر كسلاً من أن يشرفوا بأنفسهم على الأمور، تطير بعيداً، بل تستقر أحياناً على الأشجار المجاورة. [40]

وبعد السفر معهم لبعض الوقت، أصبت في آخر المطاف بالإرهاق من الطريقة البطيئة والفوضوية التي كان رفاقي يتقدمون بها على الطريق. ولذلك فقد شققت طريقاً باطراد في مقدمتهم، فوصلت إلى ستانلي بول في ليوبولدفيل في السابع من فبراير 1892. وهناك حيث كانت ستانلي بول تعاني شحاً في مواد التموين، أصدر أمر واجب التنفيذ لكل ضابط بأن يذهب، بشكل دوري، لاصطياد فرس النهر لتزويد القوات باللحم. وكان ذلك بمثابة تغيير مبهج في حياة المحطة الرتيبة، تطوعت على الفور للصيد، إذ إن الرغبة كانت شديدة لصيد أي شيء. ولكن من المؤسف، فقد وقعت حادثة أو اثنتان إبان صيد الفيلة، لذلك كان صيد فرس النهر والظباء هو الرياضة الوحيدة المسموح بها. وكانت تجربتي الأولى في إطلاق النار على فرس النهر، وعلى الرغم من أنها ليست جديرة بالملاحظة، فإنها تظهر غياب الأشياء التي يمكن أن يقدم عليها الجهلة من أمثالي. عسكرت على شاطئ رملي قرب منبع ستانلي بول - وقد كان مكاناً، وكما اكتشفت لاحقاً، أو مقراً لتخيم السكان الأصليين. [41] وحين عدت في المساء وجدت أنه بالإضافة إلى ذباب الرمل، غزت خيمتي طفيليات بحيث استعصى النوم والراحة أو أي منهما عليّ. ولم يكن أمام رجال قاربي من البنجلا (Bangala) والذين جُمعوا على عجل ضمن مجموعات، ولم يكونوا في وضع أفضل، وقد تغطوا بأكبر قدر من الدخان أي شيء يمكن أن يصنعوه والناتج من وضع الحشيش الرطب على النار. وهكذا فإن اللطومات التي كانت تصفع أجسادهم للتخلص من الحشرات الجريئة القرص باتت مزعجة. وحيث بات النوم مستبعداً، قررت أن أحاول الصيد في ضوء القمر. وهكذا وبعد ساعة أو اثنتين من التجديف الصامت، أعلن البنجلا أنه يمكن العثور على أفراس البحر على جزيرة قريبة منا. وهكذا حين دفعنا القارب وسط رف نطاق النبات النتن المتاخم لها، شققنا طريقنا لمسافة إلى أعلى طريق ضيق زلق. وقادنا ذلك إلى فسحة مفتوحة، بدا واضحاً أن الحشائش فيها قد ديسّت أو أكلت، ووجدت نفسي فجأة في مواجهة زوج من أفراس النهر على بعد

عشرين ياردة. ولم يكن في حوزتي سوى بندقية المانليتش (Mannlicher) ²³ وخمس خرطوشات في المخزن. وحيث ارتفعت الأعشاب المداسة والمتكسرة إلى كفي، وجدت من الصعوبة أن أشق طريقي حول الفسحة المنبسطة [42]، والتي تمكنني من تحقيق إصابة معقولة لأقرب الحيوانات. أطلقت على الكتف، وحين دار ملتقاً، أطلقت على الرأس. حينها تقدم الفرس الثاني باتجاهي، فأطلقت كما اعتقدت حينها بين الأذنين. وإذا استمر في التقدم، أطلقت مرة أخرى، فأفقى على ركبتيه، ثم إنه نهض بعد ذلك على الفور. وأتاحت لي تلك البرهة أن أهر باتجاه الطريق الضيق الذي قدمت منه، وكان من المستحيل تقريباً على رجل أن يشق طريقاً له بنفسه عبر أعشاب، حيث تستقيم كل عشبة بقطر نصف بوصة إلى بوصة وبارتفاع عشرة أقدام إلى اثني عشر قدماً. كنت الأول في الوصول إلى الطريق، وأطلقت آخر خرطوشة على الفرس المسنّ، وإذا هربت عبر الطريق الضيق، قافزاً في الكونغو، لأجد رجال قاربي قد صعدوا قاربهم واتجهوا به لمسافة آمنة. وما إن بدأت أسبح في الكونغو حتى تذكرت التماسيح. وهكذا أمسكت بأول قبضة من القصب وصلت إليها، وبينما ما زلت مستلقياً، ناديت حتى عاد القارب والتقطني. أخذت كمية أخرى من الخراطيش [43] ووجدت فرسي الأول ميتاً، في حين أن الثاني قد تدحرج إلى أسفل مكان منحدر للماء، ولم يعد يرى له أثر. وبالنظر إلى كمية الدماء النازفة منه، كنت متأكداً من أنه كان في نزاعه الأخير، لكنني لم أتمكن من إقناع الرجال - الذين كانوا مكتفين تماماً بمشروع التهام اللحم الذي يوفره فرس نهر واحد - لمساعدتي في البحث عنه. ملأنا القارب بقدر ما يحمل من اللحم، وقطرنا ما تبقى وعبرنا النهر باتجاه ليوبولدفيل. وفي اليوم التالي، التقط الفرس الآخر في أدنى الجزء الأسفل من النهر، وهو ميت تماماً. وعندما يجرح فرس النهر على اليابسة، فإنه بشكل عام يتجه للهجوم، ولكن إذا وُجد حد أدنى من الفسحة لتفادي ذلك فإنه

23 - هي من المرجح بندقية الـ (6.5x52mm Mannlicher-Carcano) العسكرية الإيطالية الصنع

والتي طورت بين عامي 1889 - 1891

(المترجم) (http://en.wikipedia.org/wiki/6.5x52mm_Mannlicher-Carcano)

لأمر سهل، إذ ليس بمقدوره أن يلف نفسه إلا ببطء. ولا بد لفرس النهر من أن يعود إلى الماء، إن هُدد، من الطريق نفسه الذي تركه، لذلك يتوجب على المرء ألا يمشي أو يقف في الأثر الذي يخلفه الفرس عندما يكون على الشاطئ. وليس من الحكمة أن يقترب المرء من طريدة كبيرة، وخصوصاً في فسحة دائرية، ببندقية إطلاق ذات ماسورة صغيرة مثل مانليتشتر، لأنه، ومهما كانت شدة دقة تصويبها وقدرتها على الاختراق، [44] فإن قدرتها على الإيقاف تقارب الصفر تقريباً. وفي هذا الصدد فإن طلقتي الأولى على كتف فرس النهر الأول قد اخترقت شفرتي الكتف وأحد عظام القفص، فأحدثت ثقباً صغيراً، لا يكاد يتسع لتمرير قلم رصاص خشبي معتاد. أما رصاصتي الثانية والتي اخترقت الجزء الذي يعلو العين اليمنى تماماً فقد اخترقت الرأس حتى وصلت إلى المخ. وقد اكتشفت لاحقاً، أن من الآمن تماماً، إطلاق النار على رأس طريدة كبيرة باستخدام البنادق الجديدة ذوات المواسير القصيرة. ويعود ذلك إلى أنه وعلى الرغم من أن اصطياد الحيوان غير متوقع، فيما عدا الصدفة، فإنه سيكون قد فقد صوابه لكي يكتشف ماذا يتوجب عليه أن يفعل، وستصبح هجماته بدون جدوى. ولكن يبدو أن استخدام بندقية بماسورة قصيرة لاصطياد حيوان ضخّم أبعد ما تكون عن الروح الرياضية، لأن عدد الحيوانات التي ستصاب بالجروح إذا ما قورنت بتلك التي ستقتل حالاً، سيكون عدداً هائلاً. فبعد ما يقارب السنتين من هذه الحادثة، أطلقت تسع طلقات متأنية من بندقية ماوزر (Mauser)²⁴ على فيل ذكر ضخّم، وكانت الرصاصة المستخدمة تزن نصف وزن رصاصة بندقيتنا الـلي متفورد (Lee-Metford)²⁵: لكنني لم أتمكن من الإيقاع به، وانتهى به

24 - ماوزر هو الاسم الشائع لمصنع (Mauser-Werke Oberndorf Waffensysteme GmbH) والذي بني لتزويد القوات الألمانية بالسلاح وأسس عام 1811. في عام 1867 اخترع فيلهلم وبول ماوزر نظام ترباس لولبي للبنادق يعمل بشكل أبسط وأسرع، مما أدى إلى أن يشيع تبني البندقية وسط القوات الألمانية (<http://www.mauserguns.com/mauserHistory.asp>) (المترجم).

25 - تطورت مباشرة من بندقية المانليتشتر النمساوية لعام 1886، وهي تشبهها تقريباً فيما عدا استخدامها لخرطوش 8 مم، وتعبأً بالبارود الأسود (<http://www.militaryrifles.com/Austria/88Mann.htm>) (المترجم).

المطاف أن يهرب بسرعة تتحدى أي محاولة للمتابعة [45]. ولربما مات الوحش المسكين في أعماق الغابة قبل أن تمضي ساعات عديدة.

على الرغم من أن إقامتي في ستانلي بول، كانت تشتمل على عمل لم يكن بمجمله يبعث على الارتياح، فإنها علمتني الكثير مما كان مفيداً لاحقاً. لقد كان الطبيب مريضاً بوجه عام، وهكذا سقطت علي جميع واجباته تقريباً. وكانت المحطة شحيحة التمويل، لذا كان الرجال البيض أو السود في حالة صحية سيئة. ولقد شكّا ما ينوف على نصف الجنود السود من تقرح الأرجل والأقدام، وكانت القروح جنجرينية، قاومت في البدء أي علاجات. وبعدها، اكتشفت احتمال أن يكون سبب هذه الحالة هو الحاجة إلى الملح؛ بحيث إنه وبعد عدة أشهر وحين بتنا في منطقة لوالابا، حيث كان الملح متوافراً، لم تعد ترى تلك القروح مطلقاً إلا على القوات القادمة من أسفل النهر. وفي عدة مناسبات انضمت إلينا فرقة بأكملها تعاني من تلك القروح الكريهة، وشفيت منها في خلال شهر، دون أي علاج باستثناء حصة كبيرة من الملح مع غذائهم بشكل يومي.

وشكلت عقوبات المذنبين من الجنس الأسود مسألة عصية الترتيب. [46] ففي دولة الكونغو الحرة يزود الرجال بحصص حين يكونون في أعالي البلاد، ولا يدفع لهم حتى يعودوا إلى الساحل بعد انتهاء مدة خدمتهم. ويسمح بإعطائهم قدرًا من الدفعات على الحساب، لذلك يستحيل إيقاف مثل هذه الدفعات كنوع من العقوبات، لأن الأشياء القليلة التي يمكن الحصول عليها في أعالي البلاد ضرورية لصحتهم. وأصبحت السجون، في وضعية البلاد الحالية مستحيلة، واستخدام البديل الآخر وهو تقييد الرجال في مجموعات ليس ضاراً عليهم من الناحية الصحية فحسب، بل بكل المقاييس مهلك وبغض إلى أبعد الحدود، ولا يجوز استخدامه بالتأكيد لأي سبب إلا في حالة الجرائم الخطيرة. فعندما يقيد نصف دزينة أو دزينة من الرجال بسلاسل في صف

واحد ويصبح عليهم أن يعملوا، ويرتاحوا، ويأكلوا ويناموا دون أن يتحرروا من القيود لأسابيع وأحياناً لأشهر، فإن صحتهم بالطبع سوف تتراجع. ولقد اقتنع القائد دانيس بالأذى الذي تلحقه هذه المعاملة، والتي غالباً ما أدت إلى جعل الرجل عاجزاً عن العمل لعدة أشهر لاحقة، إلى حد أنه منع عملياً التقيد بالسلاسل في منطقته. وخلال وجودي في البركة، [47] تمكنت من البقاء معافى، جزئياً عبر القيام بالكثير من التمارين، وأيضاً عبر الاحتيال للحصول على حمامة أو اثنتين أو أي نوع آخر من الطرائد كل يوم، حيث يبدو أن العيش المستمر على الغذاء المقلب ينال من بدن أي امرئ، بينما يحدث القدر القليل من الغذاء الطازج يومياً أثره الفائق على صحة الرجل الأبيض وقوته في هذا الطقس. وأعتقد أن من الواجب، وبحسب اعتقادي الجازم، التأكيد على أهمية الملابس المناسبة أكثر مما هو جار. إذ يتوجب ارتداء الملابس الصوفية على الدوام، كما أن من الضروري التزود بلباقة زائدة في المساء. ولقد بدأ الاعتقاد يسود تدريجاً وسط السكان البيض في إقليم الكونغو بأن إقامة بيت أو محطة على تل هو أمر يعرض العافية للمخاطر. فوجود بيت على أرض أعلى من المنطقة المحيطة، تعرضه لكل نسمة هواء تهب، وبسبب الاختلاف بدرجة الحرارة فإنه يصبح من الخطر على أي إنسان في منطقة داهنة أن يعود في المساء إلى واقع أكثر برودة. وتظهر إحصائيات حالات المرض والوفاة في محطات الكونغو في المواقع المرتفعة بالمقارنة بتلك التي في الوديان أو المقامة فعلياً على ضفاف الأنهار، [48] وهي بشكل كبير تحكم لصالح تلك التي في المواقع المنخفضة، على الرغم من النظرية الشائعة فيما يخص الملاريا. ويبدو أن هناك القليل من الشك بين أولئك الذين في الكونغو بأن أكثر طبقة من الرجال تمتعاً بالصحة في المنطقة بمجملها هم الضباط والتقنيون والمهندسون المستخدمون على المراكب البحرية وفي خدمات القوارب؛ فهم وعلى الرغم من كونهم يعيشون على سطح الماء، فإنهم يرسون كل مساء على أقرب ضفة نهر في جوار الغابة، وذلك لكي يتمكنوا من تدبير الوقود لليوم التالي.

وفي بداية أبريل قام بعض السكان الأصليين في الداخل بقتل أحد جنود المحطة، وقام زعيم السكان، بعد أن جمع أناسه، وهاجم أحد الزعماء الموالين وهزمه هزيمة نكراء وذلك على بعد مسيرة ثلاث ساعات أو أربع، من ليوبولدفيل وقتل ولديه والعديد من شعبه. أرسلت حملة رافقتها تتكون من مائة وخمسين رجلاً وضابطين لمعاقبة المهاجمين. ورفض السلاب الدخول في مواجهة مكشوفة، وأوشكنا على الإرهاق التام بعد أسبوع من متابعة عدو غير مرئي، والذي تبدو قراه خالية دائماً حين كنا نتسلق سياجاتها الخشبية المحيطة [49]، على الرغم من أنه وقبل وصولنا بخمس دقائق قد نقابل بوابل من السهام. كما أنهم لطالما جعلوا وجودهم محسوساً في أثناء زحفنا عبر رشقنا برشقات متفرقة. لقد كانت الطرقات كافة في المنطقة تحوي فخاخاً منصوبة - فهناك حفر صغيرة مزودة بسهم ثبت بالقاع وينتصب إلى الأعلى، وغطيت بأوراق النبات ونثر عليها غبار أو رمل، بحيث لم تعد قابلة للتفريق عن التربة المحيطة. واحتوت كل أجمة أو حزمة أعشاب تسد الطريق على رمح وضع فيها بحيث إن أي شخص يحاول أن يشق طريقه خلالها سيصاب حتماً. وبعد أسبوع من هذه التسلية عدنا إلى ليوبولدفيل، ولدينا شك كبير بأننا لم نعان بقدر ما عاناه العدو من إصابات حقيقية، وإن كنا قد عدنا نسوق قطعاً من الماعز وعدداً من الطيور. وكان السود الذين معنا من الجنود الشباب، والذين قد تم تجنيدهم، يجتاحهم الخوف مما أسموه «بزئج الغابة». وكانوا يرفضون بإصرار شن هجمات في الغابة أو القيام بالاستطلاع في أعداد من اثنين أو ثلاثة، أو حتى الابتعاد لمسافة تزيد على اثنتي عشرة ياردة من القوة الرئيسية إن لم يصلحهم رجل أبيض. وكم كان مثيراً للعجب، أن يتحول الكثير منهم، فيما بعد، وبسرعة فائقة إلى جنود جيدين بعد بضعة أشهر، عندما اشتبكنا في حرب حقيقية مع صائدي العبيد من العرب.

الفصل الثالث

**أكلو لحوم البشر من البنجلا - الرحلة إلى أعالي
نهرى كاساي وسانكورو - الوصول إلى لوسامبو - هزيمة
جونجو لوتيته وكيل صائد العبيد تيبو تيب على يد
القائد دانييس - أكلو لحوم البشر في باسونجو**

[51] في التاسع والعشرين من أبريل صعدت إلى ستانلي، وهي سفينة بخارية بزنة ثلاثين طناً بعجلة تجديد في مؤخرتها. ويتكوّن طاقمها من ستين من البنجلا وثلاثة ضباط بيض.

والبنجلا أناس أذكاء ومفيدون جداً، وهم بمثابة صبيان الكرو (Kru Boy) في الداخل، ويُستخدمون بكثرة على المراكب البخارية، يصفّون شعورهم بشكل رائع، تاركين ضفيرة أو اثنتين لتتموّا بطول قدم، ثم يصلّبونهما بالشمع مما يضفي عليهما مظهر القرون. ثم إنهم يشجّون ويعيدون شج الجلد من أصل الأنف إلى أعلى الشعر. وتتشكل ندبة [52] بارتفاع بوصة تشبه عرف الديك. والبنجلا لا يقدّرون بثمن عند خدمتهم على القوارب البخارية، فهم يعملون صيادين وجنوداً وبحارين في آن. وحين يقترب المركب من الضفة بهدف الرسو، يهرول اثنان أو ثلاثة منهم إلى السطح، وبينما يمسكون بشُعَب المرساة، يفوصون بموازة القاع في الماء بعمق قامات عدة، حتى يخرجوا إلى الضفة ويشدوا المرساة إلى جذر شجرة. لكنهم، أكلو لحم بشر، ويسببون المشاكل باستمرار لهذا السبب. ولما كنت عائداً من ستانلي فولز إلى الوطن، بعد سنتين من ذلك التاريخ، كان ستة من الطاقم مقيدين بالحديد على السفينة، وذلك لتسليمهم للعدالة في بنجلا لقيامهم بالتهام اثنين من بني جنسهم خلال الرحلة صعوداً باتجاه المساقط. ولم أشهد المحاكمة، لكن القبطان أخبرني بأن اثنين من البحارة قد أصيبا بمرض في رحلة الصعود، فأعطيا يوماً أو يومين للراحة. وفي اليوم المقبل لتوزيع الحصص كانا غائبين، وأبلغ القبطان بأنهما قد ماتا ودفنا في الضفة [53]. لكن ذلك، في أيّ حال،

لم يقنعه، وإذ تملكته شكوكه الخاصة، قام بتفتيش السفينة، واكتشف أجزاءً منهما وقد جففا بالتدخين، وقد أخفيت تلك الأجزاء في خِزانات ستة من البنجلا، والذين قام بتسليمهم إلى السلطات.

ضمت ليوبولد فيل، وهي ميناء مهم على الكونغو الأعلى، أعداداً وافرة من البنجلا والذين كانوا في حركة قدوم ومغادرة مستمرة. لذلك باتت حراسة المقبرة متوجبة، بحيث أثبتت ضدهم عدة حالات من الاستيلاء على الجثث. ولقد تأصلت فيهم هذه الممارسة إلى حدٍّ استوجب معه استخدام عقوبة الإعدام كوسيلة وحيدة لإنهائها.

ولقد أخبرني البنجلا بأنفسهم، حين كنا في رحلات صيد، وبينما كنت أحتج على كسرهم أجنحة أو أرجل الطرائد فقط بدل قتلها، إن من الأفضل أن يترك الطير على قيد الحياة، لأن ذلك يجعل من اللحم أطرى. ثم أدى ذلك إلى حديث قالوا فيه إنهم وحين يكونون في مواطنهم يعدون لوليمة، فإنهم يأتون بالسجين أو العبد الذي سيشكل الطبق الرئيس والذي يكسرون له ذراعيه وساقيه ثلاثة أيام قبلها ثم يوضع [54] في مجرى أو بركة ماء، مغطساً إلى حد الذقن، وقد ربط رأسه إلى عصا لكي يمنع من الانتحار أو ربما من النوم وبالتالي الفرق.

ويؤخذ في اليوم الثالث ليقتل، وحينها يكون اللحم طرياً جداً. وعلى الرغم من أنني لا أستطيع أن أجزم بصحة تلك القصة، فإنني سمعتها من رجال مختلفين في أوقات مختلفة، ومن المثير للانتباه أنهم يكسرون دائماً الأرجل أو الأجنحة أو الأذرع، بحسب الحالة الواقعة، إن كانت تلك لطيفاً أو قروء، قبل الإجهاز عليها.

وخلال الرحلة تلك على المركب ستانلي، كنا نتوقف كل مساء، وعندما نضع الطاقم والجنود على الشاطئ، نقيم معسكراً. كان نصف الرجال ينشغلون في قطع الأخشاب وحملها إلى متن المركب قبل الخامسة صباحاً من

اليوم التالي، وحين نعاود رحلتنا، يرافقنا زورق بخاري برفقة ملازم أول مع رجاله على المركب. لقد كان ذلك أفضل بالنظر إلى أن هناك محطة تجارية أقيمت قبل وقت قصير على نهر كاساي (Kasai)، قد أحرقت وقتل من فيها على أيدي سكان المنطقة الأصليين. وفي السابع من مايو رسونا قبالة البقايا المتفحمة [55] لتلك المحطة التجارية، على أنه لم تجر مهاجمتنا ليلاً. في اليوم التالي، تم إنزال كل القوات وبدأت العمليات بهدف معاينة السكان الأصليين الذين اقترحوا هذا الاعتداء الوحشي. وأخذ البحارة من البنجلا قارباً مستقلاً لأنفسهم وعادوا في مساء اليوم وبحوزتهم أربعين قارباً آخر، وقدراً كبيراً من الأقمشة والأطعمة المعلبة التي أخذت من محطة التجارة. كما أحضروا معهم أيضاً بعض الأسرى ورؤوس الذين قاموا بقتلهم. وفيما بعد، عاد الجنود النظاميون، وقد جرح بعض منهم، وإن كانوا قد رأوا أعداداً من السكان الأصليين. ولقد أثبت البنجلا أنهم رجال رائعون لمثل هذا العمل. فيبدو عليهم أنهم يعرفون بالغريزة أين يخفي الأصليون قواربهم في المستنقعات، ولما كان البنجلا يهاجمون، فإنهم سرعان ما كانوا يتوزعون وقد انطلق كل واحد إثر أحد الأعداء وسط الأدغال لينتهي إما بالقبض عليه أو، وهو أمر نادر الحدوث، يُقتل البنجلا نفسه. بعد يومين أو ثلاثة، وبعد أن جمعنا كل القوارب (التي حطّماها لإيقاد النار) في المستنقعات تقريباً بفضل البنجلا [56]، تقدمنا على الطريق، وعاد المركب إلى ستانلي بول. كنا على مدى يومين تقريباً، وحين نضطر إلى الاقتراب من الشاطئ لبروز ضفاف رملية أو لمعوقات مشابهة، نتعرض لإطلاق نار من السكان الأصليين، الذين كان يبدو عليهم أنهم يحتفظون بالقليل من البنادق، وغالباً ما كانت تسقط سهامهم بعيداً منا أو تنغرز في سطح المركب الذي يحمي رؤوسنا من الشمس، دون أن يجرح أحد منا. وكان قاطعو الأخشاب يتعرضون في أحيان كثيرة للهجوم أو يسرق الأصليون قوّوسهم، والذين يراقبون دوماً أي قدر من الأشياء يمكنهم الاستيلاء عليها مهما صغرت.

وبينما كنا نبحر في نهر كاساي ظهر أحد الأيام، اسودّ الجو بشكل مفاجئ ممتلئاً بالخفافيش التي ظهرت بأعداد كبيرة إلى حدّ أن بعض بحارة المركب كانوا يلقون ببعضها أرضاً بالعصي. وهكذا تغطت كل شجرة في الجزر وعلى ضفاف النهر بالخفافيش التي أخذت تحط عليها، لتطير مرة أخرى إن برز شيء يتهدها، مثل انكسار غصن بسبب ثقلها عليه. ولقد قمت بقياس بعض من قتل منها، وتراوح مقياس عرضه من طرف الجناح إلى طرفه الآخر من 18 بوصة إلى قدمين. وكان الأولاد على السطح [54] وبحارة المركب يطبخونها ويأكلونها، ويقولون بأنها غذاء طيب. ولقد رأيت أعداداً هائلة لا تحصى من الخفافيش تتصرف على نحو مشابه قرب ستانلي فولز، كما رأيتها بأعداد ضخمة في لوالابا (Lualaba).

وكانت منطقة كاساي بكاملها تعجّ بحيوانات الصيد مثل الفيلة والجواميس والوعول والخنازير سواء في الغابة أو المستنقعات؛ كما تمتلئ الجزر والضفاف بأفراس النهر والتماسيح والطيور كما في النهر نفسه.

لم تكن توجد في ذلك الحين في 18 مايو 1892 أيّ محطات أخرى على نهر كاساي، وإن وجد الآن بعضٌ منها فهي تقارب الدزينة عدداً على هذا النهر وفروعه. وبات السكان الأصليون أكثر وداعة وأخذوا يحضرون لنا كميات كبيرة من المطاط للتجارة به، وهو موجود في كل مكان من الغابة. وتوقفنا في بنابندي (Benabendi) في مصب سانكورو (Sankuru) لمدة يومين. ولقد أقام هنا أحد الفرنسيين الذي كان يدير تجارة كبيرة في المطاط والعاج.

لم يكن عرض نهر سانكورو يزيد عن نصف ميل إلى ميل واحد، وهو عميق جداً، وتياره بطيء. وهو يختلف بكل المقاييس عن الكاساي، ففيه بعض الجزر وتغطي ضفافه [58] الغابات إلى حد التقاء تلك الضفاف بالماء. وتقل فيه أفراس النهر كما بقية حيوانات الصيد. وفيما عدا القروء، فإنه وبسبب كثافة الغابة، تكاد تلك الحيوانات أن تختفي فيها. وحيث إنه لا توجد جزر

أو مساحة مفتوحة، تشح رؤية الطيور هناك أيضاً. ورأيت في أحد الأمكنة على سانكورو نوعاً صغيراً من أفراس النهر في قطيع من ثلاثة وعشرين، لا يزيد حجم أحدها على حجم بقرة ألدرني²⁶. وفيما بعد في منطقة لوالابا رأيت قطعياً من سبعة عشر فرساً من تلك الأفراس الصغيرة. ويعرف المطلع على عادات هذا الحيوان أن من الاستحالة افتراض أن هذه كلها أفراس صغيرة السن تجمعت معاً، وهو ما يقود إلى الاستنتاج بأنها تنتمي إلى فصيلة لم يجز وصفها. لقد كانت أكبر كثيراً من أفراس النهر الليبيرية والتي تشح عنها المعرفة، وليست بنصف حجم الأفراس المعروفة. وفي كلتا المناسبتين كان بمقدوري أن أصيب بعضها ببساطة، وبما أنه لم يكن بمقدوري أن أحملها، فإن الحظ ساعدني بأنني امتنعت عن الإطلاق، آملاً أن أصادفها مرة أخرى في ظروف أفضل.

ووجدنا أنفسنا دائماً في أعالي سانكورو متوقعي الوصول [59]، حيث أرسلت الإشارة عن المركب البخاري قبلها بيومين أو ثلاثة أيام. وعندما نصل إلى هدفنا كنا نجد أن كل السكان الأصليين في لوسامبو قد عرفوا بأننا قادمون، قبل يومين من وصولنا. وهنا، كما في أي مكان في أفريقيا، يحتفظ السكان بنظام مكتمل لإرسال البرقيات، أو الإشارات، عبر طبولهم بحيث إنهم يستطيعون أن يتواصلوا بقدر ما يمكن سماع تلك الطبول، وهو ما يقع غالباً على مسافة أميال عدة. ويثير نظام البرقيات تلك الاهتمام. فعلى الرغم من أن لبعض القبائل أو للعشائر منها شفراتها الخاصة، فإن هناك طريقة ما بدأت تنظم كل تلك الشفرات. ويعود السبب في ذلك إلى أنه حين يستجوب أحد الطبائين حول موضوع إشارة ما لزعيم آخر، فغالباً ما يرد بأنه لم يسمع ذلك القرع قط، والالفة لفته. وقد تمكنا عبر تلك الطبول، من أن

26 - بقرة ألدرني، بقرة بيتية صغيرة الحجم تربي لإدرار الحليب، وسميت نسبة لميناء حين وصولها إلى إنجلترا (<http://www.alderneysociety.org/aldcow.htm>) (المترجم).

نبقى اتصالات دائمة، ليلاً نهاراً، مع حلفائنا والسكان الأصليين وعلى بعد أميال عدة حول المعسكر [60]. ففي كل مساء سيقوم أحد أعضاء معسكرنا بتسليّة نفسه عبر قرع شتيمة للعدو، والتي سيجري الرد عليها بالحماس نفسه من المعسكر المعادي. وأحياناً يسري القيل والقال الودي بين الأطراف، بحيث يخبر جانب الجانب الآخر مسائل تتعلق بالنساء، وأي غذاء يجري تناوله أو كم ساعة نام الزعيم في ذلك اليوم. عندها ستهيمن غريزة السكان الأصليين في التفاخر والمزايدة في مثل تلك المناسبات، وستتردى المناقشة على نحو مؤكد إلى مباراة في الكذب، حيث سيحاول كل قارع طبل أن يزيد على آخر رسالة أرسلها منافسه. ويصبح كل ما حدث معروفاً بشكل جيد في كلا المعسكرين، بحيث إنه يكفي أن يخبر المرء خادمه بجزء من خبر لكي يصل فوراً إلى وسط المعسكر العربي بكامله.

كان وصولنا إلى لوسامبو مصدر فرح واسع؛ حيث إننا لم نحضر معنا الأخبار الأولى من الساحل فحسب، بل كنا حاملين لأولى الرسائل التي تم تسلّمها لسبعة أشهر. ولقد رحب بي بُود كل من دوفوترز (de Wouters) ودو أويش (de Heusch)، وهما اثنان من أفضل [61] من قابلت من الرجال في دولة الكونغو الحرة. وبعد بضع ساعات من وصولنا ظهر القائد دانيس، حيث فرغ للتو من حملتين صغيرتين من أنجح الحملات ضد صائد العبيد وكيل تيبو تيب، جونجو لوتيتيه (Gongo Lutete)، وأحضر معه ألفين من أسرى الحرب والعبيد المحررين. وأقيم مهرجان استمر ثلاثة أيام للاحتفال بالعودة الموفقة للقائد؛ وبعد انتهاء مناسبة الفرح تلك سجلت غالبية الموجودين في المحطة على قائمة المرضى. وكانت هناك بضع حالات متفرقة من الجدري في المدينة، ولقد قمت بتطعيم بضع مئات من الناس باللقاح الذي أحضرته من أوروبا، والذي للأسف لم أتناول بعضاً منه.

وبعد هزيمة جونجو لوتيتيه على يد دانيس ودوكامبس (Descamps)، رفضت السلطات العربية في ستانلي فولز أن تتخذ أي إجراء حول الأمر. وحين



- البارون فرانسييس داننيس (1861-1909)

Bon Danneberg

أراد مسؤولو الدولة أن يقتنعوا بما كان خلف الغارة، قالت تلك السلطات إنها ليست مسؤولة عن جونجو لوتيته، والذي كان يتصرف باستقلالية عنها، وأن في إمكان مسؤولي الدولة الحرة أن يتخذوا أي خطوات يودون القيام بها في ذلك الصدد.

وبمعيّتنا وصلت الأوامر من أوروبا [62] للقيام بحملة كبيرة وبأسرع وقت لاكتشاف كاتنجا؛ وقبل أن تمر أيام عديدة انغمسنا جميعاً في تدريب الرجال، وتصنيف المخازن، وإعداد الأحمال لقافلة من أربعمئة رجل ولسنة كاملة. ولم يكن مسموحاً أن يتعدى أي حمل الأربعين رطلاً، وهو ما يمنع احتمال التأخر على الطريق بسبب التخلف في المؤخرة خلف حمالين مثقلين. وبينما كنا على وشك البدء، وفي الخامس من يوليو، وعلى نحو مفاجئ، توفي أحد رجالنا ويدعى سميت (Smit) وكان من أكثر الرجال حيوية، ومرض آخران بالحمى الدموية (haematuric fever)²⁷. ولقد ألقى ذلك بظلاله على أجواء المحطة، وتجمّد عملها لأيام.

وفي ذلك الوقت تحديداً اكتشفت قيادة المنطقة أن هناك خطوط نقل للبشر قائمة بانتظام؛ فقد اعتاد شعب منطقة أعالي النهر الباسونجو (Basongo) وهم أنفسهم أكلوا بشر على بيع العبيد والأطفال إلى أسفل نهر باسونجو مينو (Basongo Meno) كطعام أو لقاء طعام (for food). وبناء على ذلك، أمر القائد بإيجاد حرس على النهر للاستيلاء أو لإطلاق النار على أيّ قوارب تنزل النهر وبمعيّتها أطفال على المراكب، وبعد الاستيلاء على بعضها، نجح في إيقاف حركة النقل. ووافق بعض [63] الأشخاص المنتمين إلى بانيا موتومبا (Pania Mutumba) (زعيم القبيلة في أعالي النهر قيد التحقيق) القائد

27 - حمى التبول الدموي تنتج من إصابة الكلى بنوع من مرض الملاريا

(المترجم) (<http://www.drugs.com/dict/hematuric-bilious-fever.html>)

في الهجوم على جونجو لوثيته. وصدف أن كان أحد أولئك الرجال في حراسة ليلية، وحيث إنه أطلق النار على رجل، جاء ليقدم تقريراً بما قام به، وأرسل شخصاً آخر لإحضار الجثة. وحين أحضرت، اكتشف وسط دهشته، أن الذي أطلق عليه النار هو والده. فذهب على الفور إلى دانيس واحتج بأن الجاسوس الذي أرداه قتيلاً كان والده، وأن ذلك كان بمثابة حظ عاثر للغاية، وأنه لن يتمكن من أكله. فأمره القائد بأن يدفن الجثة بشكل لائق، لكنه اكتشف لاحقاً أن الرجل وعلى الرغم من أنه لم يأكل الجثة نفسها فإنه أعطاها لأصدقائه ليأكلوها. وفي الأسبوع نفسه وصل زعيم شاب من الباسونجو إلى القائد بينما كان يتناول طعام العشاء في خيمته وطلب منه أن يستعير سكيناً، والتي قدمها له القائد دون كبير تفكير. وذهب فوراً خلف الخيمة وقطع بها رقبة فتاة صغيرة عبدة كان يمتلكها. وبينما كان يطبخها، رآه أحد جنودنا [64] وأبلغ عما كان يفعله. وفي الحال تم تقييد آكل البشر هذا، ولكن وبعد شهرين اكتشفت أنه كان في حالة مزرية إلى حدٍ أنني خفت عليه أن يموت ففككت قيوده وأطلقت سراحه مرفقاً بإنداز. ولم يكد يمرّ أسبوعان، وإذ أحضره بعض جنودنا من الهوسا (Hausa)²⁸ الذين قالوا بأنه كان يأكل الأطفال في المنطقة المحيطة بمعسكرنا. وكانت لديه شنطة معلقة حول رقبته، وحين قمنا بتفتيشها وجدنا أنها تحتوي على ذراع ورجل لطفل صغير. وحيث إن ثلاثة أطفال أو أربعة، قد اختفوا من المعسكر في الأسبوعين اللذين مضيا، ولم تكن هناك أيّ وفيات بينهم في المعسكر، كان ذلك بمثابة دليل كاف ضده في المحاكمة، فأخذ بعيداً حيث أطلقت النار عليه، كعلاج وحيد إزاء هذه الحالة التي لا يمكن إصلاحها.

28 - الهوسا: شعب ساحلي يتركز أساساً في غرب أفريقيا في المناطق الفاصلة بين مناطق الجفاف الصحراوي ومناطق السفانا المطيرة إلى الجنوب ويتشرب بطول المنطقة الممتدة من سواحل غرب أفريقيا وحتى سواحل السودان شرقاً، ويتحدث أفراد لفة تنتمي إلى عائلة تشاد وهي عائلة لغوية أفرو - آسيوية (http://en.wikipedia.org/wiki/Hausa_people) (الترجم).

وبعدها بفترة قصيرة هرب عدد من أسرى الحرب، وحين تم التعرف على الاتجاه الذي سلكوه، طلبنا من الزعيم الأكبر في المنطقة أن تجري إعادتهم. فقال إنه وباستثناء أسير واحد، فإنه قد تم التهام الجميع، وأرسل سبعة وثلاثين عبداً مقابل ذلك. وصدق أن الوحيد [65] الذي أعاده كان خادمي الخاص والذي أقنع على أيدي آخرين أن يشاركهم الفرار. وبصدفة حظ، التقى صديقاً في القرية، فكان نصيبه ألا يكون بين المأكولين. وكانت رواياته عمّا رآه باعثة على الغثيان.

وكثيراً ما حدثني الأسرى أو الخدم على هذه الشاكلة: «نريد لحماً. نحن نعرف أنكم لا تملكون ما عراً أو طيوراً كافية لإعطائنا بعضها، ولكن أعطونا هذا الرجل [مشيرين إلى أحدهم] قائلين: إنه شخص كسول، ولن تحصلوا على أي شيء طيب منه، ولذا فربما أعطيتمونا إياه».

وقليلاً ما نوقشت مسألة أكل لحوم البشر في أفريقيا. وكثيراً ما أشار الرحالة العظام مثل ليفنجستون وكامبيرون وستانلي وفيسمن (Wissman) ²⁹ في أعمالهم إلى الحقيقة البسيطة أن بعض القبائل التي كانوا يمرون بها كانت آكلة للحوم البشر، ولكن جرى حذف كل تفاصيل البيانات التي أدت لتلك الإشارات. إذ إن من الطبيعي لهم كرحالة يسافرون في قارة مجهولة، يرافقهم جنس أو أجناس أجنبية، [66] ألا يكونوا على تماس مع الشعب الذي يمرون في بلاده، والذي لم يكن في حالة عداء معهم قط، فقد ظل بدوره في وضع من الحياد المسلح. وحتى الآن تمكنت من اكتشاف أن كل القبائل في حوض الكونغو، هي آكلة للحوم البشر، وفي حالة بعضها فإن تلك الممارسة كانت

29 - Hermann Wissmann هرمان فيسمان (4 سبتمبر 1853 - 15 يونيو 1905) مستكشف ألماني وإداري في أفريقيا. جال في الكونغو وتانزانيا، والتحق فيما بعد بخدمة الملك البلجيكي ليوبولد الثاني (1867 - 1909) الذي كان منشغلاً ببناء أمبراطوريته الأفريقية الخاصة والتي عرفت بدولة الكونغو الحرة (http://en.wikipedia.org/wiki/Hermann_Wissmann) (الترجم).

بازدياد. فبعض الأجناس التي لم تكن آكلة وإلى فترة قريبة، فإنها لوقوعها في منطقة يحيط بها الآكلون، فإنها وبتزايد احتكاكها مع جيرانها، تعلمت كيف تأكل لحم الادميين؛ ولتزايد دخول الأوروبيين إلى تلك البلاد تنامت تسهيلات السفر وسلامة المسافرين. ففي السابق كان الناس الذين يتجولون بعيداً من الجوار وضمن القبائل المحيطة يُقتلون ويؤكلون. وبالتالي لا يعودون لأناسهم لتوعيتهم عبر إظهار أن للحم الآدمي فائدة كمادة للطعام.

فبسرعة وبعد أن أنشئت المحطة الاستوائية، اكتشف المقيمون أن حركة متاجرة بالجملة في البشر كانت قائمة على أيدي الأصليين في المنطقة بين هذه المحطة وبحيرة [67] مزومبا (M'zumba). وكان أكثر أولئك الأصليين جرأة هم القبائل التي تحيط بإيريبيو (Irébo)، الذين اعتادوا على أن يرتقوا نهر لولونجو (Lulungu) في جماعات مسلحة كبيرة، ويهاجمون السكان الأصليين على ضفافه. وعلى الرغم من أن أبناء هذه القبيلة يحتفظون ببنية قوية، فإنهم لم يكونوا شعباً مقاتلاً. فعندما يجمع المقاتلون كمية كافية من أعداد الناس لملء قواربهم، فإنهم يعودون إلى الكونغو، ويحملونهم إلى أوبانجي (Oubangi) حيث يتم بيعهم للأصليين كطعام. وحتى الآن، وعلى الرغم من أن إقامة محطات حكومية لسنوات مضت قد أدت إلى إيقاف حركة التجارة غير المشروعة تلك، فإنه بات مستحيلاً للمراكب البخارية أن تصعد الأوبانجي لشراء اللحم. فلقد أكد لي ربانة المراكب أنهم في كل مرة يحاولون صعود أعالي الأوبانجي لشراء الماعز من الأصليين، فإنهم يطلبون عبداً في المقابل. وغالباً ما يأتون إلى أسطح المراكب حاملين معهم أنياب العاج بهدف مبادلتها بأموال بغرض شراء عبد، متذمرين من أن اللحم بات معدوماً في جوارهم.

وبالحكم على ما رأيت من أولئك الناس فإنهم مغرمون بأكل اللحم البشري، وعلى الرغم من أن [68] ذلك ربما كان ذوقاً مكتسباً، فإنه ليس لدي أدنى شك في أنهم ربما فضلوا اللحم البشري على أي شيء آخر. وخلال عيشي بين أكلي لحوم البشر لم أصادف حالة واحدة يؤكل فيها اللحم نيئاً؛ فهم

دائماً إما أن يغلوه أو يشوهوه أو يدخنوه. وعادة التدخين هذه لأجل الاحتفاظ به لمدة أطول ستكون مفيدة لنا جداً، بحيث إننا كثيراً ما نبقى بدون لحم لفترات طويلة. على أنه يمكن لنا أن نشترى لحماً مدخناً من السوق، إلا أنه كان من الصعب التأكد مما إذا كان لحماً غير بشري.

ومما يثير الاهتمام تفضيلات القبائل المختلفة، أكثر من تفضيلات الأفراد لمختلف الأجزاء من الجسد البشري. فبعضهم يقطعون شرائح طويلة من لحم الفخذ والأرجل والأذرع، وبعضهم يفضل الأيدي والأقدام، وإن كانت الغالبية العظمى لا تأكل الرأس، فلقد صادفت أكثر من قبيلة تفضل الرأس على أي جزء آخر. وتستعمل الغالبية تقريباً أجزاء من الأمعاء بالاعتماد على ما تحتويه من دهون؛ فحتى متوحشو أفريقيا الوسطى يعرفون، متفقين في ذلك مع طبائحننا أنفسهم، [69] أن شيئاً من الدهن ضروري لمختلف أطباق الغذاء.

وخلال حربنا التي اشتبكنا بها لسنتين، مترافقين مع مجاميع كبيرة ممن تبع معسكراتنا، فمن المرجح أننا حصدنا الفوائد الوحيدة من تلك العادة المثيرة للاشمئزاز. ففي الليل الذي يلي معركة أو اجتياح مدينة، فإن تلك الذئاب البشرية ستخلص من كل القتلى، دون أن تترك أي شيء حتى للشعالب، وبذلك تخلصنا وبدون شك، من أوبئة كثيرة.

وعندما يفتح الإنسان عينيه فإنه وبدون صعوبة سيعرف من البقايا المروعة التي يضطر للمرور بها في طريقه، أي شعب قد سبق أن مر قبله على الطريق أو أرض المعركة؛ مع فارق وحيد: أنه سيجد في أرض المعركة تلك الأجزاء التي تركتها تلك الذئاب البشرية للشعالب لأنها لم تتناسب وذوقها؛ بينما على الطريق، وعبر إخماد نار المعسكر، في البقعة السوداء التي تشير إلى المكان الذي أشعلت فيه النار، توجد عظام مبيضة، مهشمة ومكسرة، تشكل بقايا تلك المآذب المثيرة للاشمئزاز. وهي بهذه المناسبة، تشكل مفكرات تشير إلى أن «من سيهرب سيقراً»، لمن يعرف عادة تلك القبائل.

الفصل الرابع

عروض السلام والتحالف التي قدمها جونجو لوتيته لقوات الدولة - زيارة جونجو لوتيته في عاصمته نجاندو- سكان الغابة القصار

[70] أرسل جونجو لوتيته في التاسع عشر من يوليو معلومات تفيد بأنه سيرسل سفراء مرفقين بهدية كبيرة، بهدف تحقيق الصلح. تسلّمنا أنا ودو فوترز أوامر للتقدم على الطريق لمقابلتهم، وفي الساعة الخامسة من اليوم التالي بدأنا بأعالي النهر في قارب كبير. كان قاربنا جيداً جداً، من النوع المعتاد المستخدم من قبل باكوبا (Bakuba) -وهم شعب الماء بسانكورا- وليسوا برحل، وإنما هم جنس جيد من التجار والمزارعين. كان القارب مسطح القاع، بجانبين بارتفاع يبلغ عشر بوصات، ويقترب الجانبان إلى نقطتين في مقدمة السفينة ومؤخرتها. ويبلغ طول المجاديف التي يستخدمها أولئك الناس تسعة أقدام وهي مصنوعة بشكل جيد، [71] وتوجد عقدة صغيرة على الجزء الأعلى من غالبيتها حيث تمسك بها اليد. وعندما يجدفون، يأخذون في الغناء، ويتقدمون خطوة إلى الأمام بينما يبدؤون ضربة المجداف لیسحبوا القدم إلى الخلف ثم يجرون المجداف. ويحتفظون بتوقيت تام. وعادة ما يجدف عشرة منهم في قارب معتاد. وفي هذه المرة كان لدينا اثنان وعشرون مجدافاً، حيث إن القارب كان كبيراً بشكل خاص. وصلنا إلى بانيا موتومبا (Pania Mutumba) في نهاية اليوم الثاني - وهي قرية غنية جداً، مبنية بشكل جيد بخطوط مستقيمة، ويسكنها حوالي ثلاثة آلاف نسمة. كانت الأكواخ مربعة، بأسقف على شاكلة خلايا النحل المعتادة. وكانت البيوت أكبر من أكواخ السكان الأصليين، بارتفاع ثلاثين قدماً إلى أربعين، وبمساحة خمسة عشر قدماً مربعاً على الأرض. ولم يكن في القرية من وسائل النظافة إلا قطع من الخنازير، يطلق في الصباح والمساء لتنظيف القرية وما حولها. وكل المرضى الذين يموتون، وأكاد أتخيل حتى قبل أن يموتوا أحياناً، يقذف بهم في النهر، المار أمام القرية. أما أولئك الذين يموتون موتاً عنيفاً فيتم أكلهم على وجه العموم.

[72] وجدنا هناك خمسة مبعوثين من جونجو، في حالة متوترة، دون أن يعرفوا كيف سنعاملهم. ولقد أظهروا إقدامهم بمجيئهم إلينا، وإن كان الخوف من الموت ينتظرهم إن عادوا إلى زعيمهم دون نجاح بعثتهم. لقد أحضروا معهم هدية: بعض العاج وقطيعاً من الغنم، وقالوا إن جونجو قد عومل معاملة سيئة على أيدي العرب، ولأنه هُزم في كل مرة هاجم فيها قوات الدولة، فإنه بات الآن مصمماً على العمل لأجل نفسه، وأنه وإن سمح له، فإنه يود أن يصبح صديقنا ومساعداً إضافياً. بدا ذلك مقنعاً، وأرسلنا مبعوثين مع هدايا، بحماية حرس قوي، إلى لوسامبو (Lusambo). وكان الحرس ضرورياً كحماية ضد سكاننا الأصليين، والذين كانوا أبعد ما يكونوا من أصدقاء لشعب تيبوتيب، والذين تُعرف ميولهم إلى الفارات بكل الأنحاء. عدنا أنا ودو فوترز إلى لوسامبو بالطرق المائية. وكانت شروط جونجو مناسبة إلى حدٍّ أن مبعوثيه وبعد أن جرى الاحتفاء بهم في لوسامبو، أعيدها إليه محملين بالهدايا والوعد بأننا سنزوره وسنرتب لوضع الشروط الأخيرة [73] للاتفاقية. بعدها مباشرة أرسل اثنان من الضباط ترافقهما حراسة مشددة لزيارة جونجو؛ وفي المقابل فإن القائد، ونتيجة الترتيبات الجديدة والتي غيرت الكثير من خططه، لم يعد قادراً على البدء لأسبوعين آخرين. حينها عثرنا على صانع التعاويذ ذاك، «رجل السحر»، في الجوار المحيط في لوسامبو يسمّم الناس في المنطقة، وبرؤية حالات متعددة مثيرة للشبهة بين أناسنا أنفسهم اتفقنا على أن يأمر القائد بإلقاء القبض عليه. أحضر للمحكمة، وهو ما أدهش السكان الأصليين كثيراً، فقدموا بالملأ لروية ماذا سيحصل لنا لكوننا قد تدخلنا في عمله. وحين الانتهاء إلى قرار بكونه مذنباً، حكمت عليه المحكمة بالجلد. على أنه، وقبل أن ينفذ به الحكم، أخبره القائد بأنه سيسمح له باجتراح أي سحر أولاً، حتى لا يشعر بألم الجلد. فقال أن ليس لديه أي شيء يصنع منه تعاويذه، بحيث إن كل مواده موجودة في كوخه. فأرسل بضعة رجال إلى قريته وعادوا بالكوخ نفسه وبكامل محتوياته. [74] وبعدها وضع في داخله، وأعطى نصف

ساعة لاجتراح السحر، ثم أخرج وجلد علنياً. وأقنعت صيحاته الحادة الكم المتجمع أن «سحر» الرجل الأبيض أقوى من سحره، ولدى إطلاق سراحه اضطررنا لتزويده بحارس للحماية من الأصليين الذين مارس ضدهم جبروتاً لمدة طويلة، والا كانوا قد قطعوه إرباً. وحدث في اليوم التالي أن هبّ إعصار مصحوب بسقوط البرد، وكان بعضه بحجم بيضة الدجاجة. وكان سقوط البرد شيئاً استثنائياً للغاية في تلك المنطقة - بل إن بعض المحليين قالوا إنهم لم يروه من قبل قط؛ وفي الحال اعتبر بعض السكان الأصليين أنه عقوبة حلت علينا من «رجل السحر» لتدخلنا في عمله. على أنه، وبينما هرعنا جميعاً وجمعنا البرد، وعملنا منه شراباً بارداً، سرعان ما تلاشى هذا الشعور، وقال المحليون بحكمة أن ليس من الطيب عمل التعاويذ للرجل الأبيض لأنه سيقوم فقط بالتهاهما.

[75] تمتعت لوسامبو بوجود قطع شبه متوحش، وتمكنا دون كبير عناء من أن نفصل الثيران ونستخدمها للركوب. وكانت مفيدة للغاية لهذا الغرض، بحيث إنها تستطيع بقرونها الضخمة أن تتغلغل ضمن الحشائش الكثيفة أو الأدغال الخفيفة بسهولة كبيرة بالمقارنة. وهي لا تجزع أبداً من أراضي المستنقعات، بل إنها تخوضها وتتقدم مقاومة عبرها دون أي تردد.

وفي الثامن عشر من أغسطس بدأت برفقة القائد بحملة لزيارة جونجو لوتيته ولوبونجو (Lupungu)، على الطريق نحو كانتجا في الجنوب. وفي اليوم التالي، وبعد اجتياز سانكورو، ذقت ولأول مرة تجربة السفر في غابة عظيمة.

فهناك، وعلى الرغم من المصاعب الهائلة التي لا تعد ولا تحصى في كل منعطف، فإن هناك عنصراً من الإثارة في الغابة الاستوائية لا يشابه شيء، لربما عاد إلى الفرحة العارمة التي تستقيم بنهاية توقع الخروج منها. فهناك همت مطبق يحوم حول كل شيء، وليتزايد أكثر للوجود غير العادي وأحياناً

كثيرة غير المتوقع للأصوات التي تقطع الصمت في أحيان عدة، لتختلط [76] مع تلك الأكثر ألفة، مثل زعقات طائر الطوقان المزعجة، أو ثرثرة فرد طارئ، أو صوت اصطدام فرع أو شجرة ساقطة. على أن صمت الغابة يظل ثقیل الوطأة على الصدر على الرغم من أصواتها الغريبة، ويترك أثره على القافلة إلى حد أن أفرادها لا يتحدثون إلا همساً، أو بصوت منخفض، وسيدبر أي صوت مهما ضوّل على أي جانب من الطريق كل رأس وبشكل غريزي. كان غياب الحياة يبدو تاماً وفي كل مكان - فلا طنين حشرات ولا تغريد طيور، وعلى الرغم من أنه وفي كل مكان تعج شفرة كل حشيشة وكل بوصة من التربة بالحياة على كل شاكلة، فلا صوت هنا ولا حركة. ولا يخفف من الرائحة الممتلئة بالرطوبة والتي تطبع كل شيء أي عبق آخر ولا حتى هبوب النسيم؛ ففي الغابة الاستوائية لا يتأتى إلا لريح عاتية أن تجعل من نفسها محسوسة. كانت امتدادات الخضرة المعتمة واللون البني الكئيب تمتد لأميال وأميال لا تخترقها زهرة واحدة. ولم تكن توجد أي إشارة للزهور العجيبة ولا لإشراق الغابات الاستوائية المحكي عنه. وقيل إن ذلك ربما وجد في أعالي الأشجار [77] على ارتفاع مائة قدم أو تزيد فوق الرؤوس؛ على أنني وفي مناسبات عدة تسلقت قمة نتوء صخري يبرز فجأة من الغابة في وضع النهار، وبإطلالي على منظر أعالي الأشجار كاملاً، راقبت من هناك البحر الأخضر المتموج يمتد لساعات إلى الأمام دامجاً بين رتابة اللون والصمت المطبق من الأعلى كما هي الحال في الأعماق بالأسفل. وبين لحظة وأخرى سيمر طوقان فرد أو سرب من الحمام الخضراء، ولكن حتى تلك المخلوقات لن ترى إلا في المساء أو الصباح. وهنا وهناك لربما بمسافة يفصلها نصف ميل بين واحد وآخر سيتغطى أعلى شجرة بالزهر، وعادة ما يكون أبيض باهتاً، ولربما أوحى شجرة بأوراقها القرمزية بمنظر ورود في الأفق. وفي أي حال، ستكون تلك الظلال من الألوان نادرة جداً، بحيث يصعب القول بأنه سيقال من تماثل امتداد الخضرة الكئيب على مرمى النظر وفي الاتجاهات كافة. كل شيء رطب، ولن يشتعل أي خشب عدا

جذع أو فرع مات حديثاً، والذي سيتوجب قبلاً نزع نصف بوصة أو بوصة من الغطاء الخارجي المخضّل [78]. وتغيب إشارات المعسكر المفرحة المعتادة، ويتحرك كل فرد بدون صوت - وتعمل الطبقات المتراكمة من النبات المتعفن والرطب تحت الأقدام على كتم أي صوت أيضاً. وحتى الحمالون والجنود تراهم يستلقون بهدوء حول النيران، دون أن يضحكوا أو يثرثروا أو يغنوا كما هي العادة.

وصلنا عند قرية بانيا موتومبا (Pania Mutumba) في الرابع والعشرين، وهنا قمنا بإعادة ترتيب القافلة. وإزاء طلبنا أن يُرسل خمسون رجلاً معنا للقيام كأدلاء أو كحَمَّالين إضافيين، أبدى بانيا مصاعب عدة، إلا أنه وافق في النهاية على أنه بمقدورنا الحصول على الرجال إذا دفعنا تكلفة ذلك. حينها اشترى القائد ثلاثة وستين رجلاً لقاء قدين من الخرز لكل واحد. ثم هرب عدد من هؤلاء لاحقاً، إلا أن العديد منهم رُقِّيو، وأصبحوا جنوداً جيدين حين أدركوا فوائد الحرية. وبشكل توضيح الفوائد التي تجنى من الحرية أحد أصعب الأمور التي يمكن شرحها لعبد أفريقي عادي. فلا يتأتى لقواه العقلية أن تتجاوز المنطق التالي: «إذا كنت حراً ولم أحصل على عمل، فمن سيطعمني؟» [79] في حين أنه إذا ما كان لي سيد، فسيتوجب عليه أن يوجد لي عملاً، وحين لا يكون هناك عمل فسيتوجب عليه أن يطعمني».

وحين قطع السانكوروزحفنا في منطقة مهجورة لخمسة أيام صعب خلالها أن نطعم القافلة. على أننا، في أي حال، قد أُنذِرنا مسبقاً، الرجال والنساء منهم اللائي يرافقنهم بأن يحملوا معهم غذاءً بأكبر قدر ممكن، فإننا تمكنا من اجتياز الصحراء براحة بالمقارنة، ووصلنا قرية مونوكيالو (Mono Kialo) في أول سبتمبر. وكان مونوكيالو زعيماً مساعداً لشعب البالوبا (Baluba)، حيث إن الزعيم الأكبر هو لوبونجو، والمقيم على مبعدة مسيرة أربعة أيام جنوباً، والذي قمنا بزيارته لاحقاً. وأفراد شعب البالوبا هم

أناس جيدو البنية والصحة ومجتهدون، ويمكن رؤية نتائج ذلك الجهد ببقاع واسعة خارج منطقتهم. وهم مزارعون، وحدادون ونساجون، ويشكل النسيج المصنوع في هذه المنطقة نقداً يستخدمه جزءٌ كبيرٌ من المستوطنات العربية إلى الغرب. وكانوا حتى فترة قصيرة لا يأكلون لحوم البشر، وحتى الآن فإن الرجال فقط هم الذين يأكلون الأعداء الذين يسقطون في ساحة المعركة. [80] وشعب البالوبا جميعاً، رجالاً ونساء، يبردون أسنانهم ويدبونها، وهذه العادة تخص القبائل الآكلة للحم، إلا أنني لاحظت أنها ليست عادة ثابتة بينهم، وأن العديد من القبائل التي تأصل لديها أكل لحوم البشر لا تمارس عادة الأسنان تلك. وتتميز نساء البالوبا بالجمال والحيوية والمرح والكد. وتتميز قبائل البالوبا بعامة، والنساء بخاصة، بأن سميرتهم ليست أكثر دكنة من المصريين. كما أنهم يتحلّون بتقاطيع جيدة للغاية، فيما عدا الأنف الذي هو عادة ما يكون مفلطحاً. وحتى هذا وعلى الرغم من أنه واضح بجلاء، فإنه يحتفظ بعظمة جسر جلية تفوق ما ينتشر بين القبائل الزنجية. ويحتفظون بشفاة دقيقة وحلوة التشكيل، وبوجه بيضاوي، وبعيون كبيرة متألقة. وتستخدم غالبية نساء البالوبا صبغاً لتكحيل الجفنين، الأعلى والأسفل، كما تفعل العديدات من النساء الأوروبيات، وإن كانت تلك العادة قد انتشرت حيثما توغل التأثير العربي في حوض الكونغو. وغالبية الأصليين هنا هم إما سمر أو بلون أصهب غامق، ويندر وجود أشخاص سود تماماً. وتبدو الأسنان الأمامية مبرودة كلها [81]، وإن كان يصعب اعتبار ذلك تشويهاً، وهو شعور يبعث على الغرابة. وصفاتهم الطبية المتعددة ومستوى أخلاقهم العالي يجعل منهم ذوي قيمة كبيرة، وهم محل بحث من قبل العرب، بل حتى الأصليون كحريم لهم.

ولفت اهتمامي نقطة أخرى إزاء البالوبا ضمن منطقة النفوذ العربي وهي نظافتهم الشخصية الفائقة. فحمام كامل ست مرات يومياً كان هو القاعدة أكثر من كونه الاستثناء.

وجرت العادة بين غالبية الأصليين ضمن تلك المناطق أن يتزوج البنات والأولاد ضمن أعمار سبع أو ثماني أو تسع سنوات، ومما لا يقبل الجدل حقيقة أن الزوج هم شعب سليمو البنية وواسعو التكاثر. فالمرأة تبلغ منتصف عمرها في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، أما الرجال، وفيما عدا الزعماء، فإنهم نادراً ما يعيشون إلى سن متأخرة، إذ إن حوادث الحياة بين تلك القبائل المتوحشة هي من الكثرة بحيث إن الرجل عادة ما يقتل قبل أن يبلغ أوجه.

وبينما كنا نستريح ليومين في قرية مونو كيالو، وصلت هديتان كبيرتان إحداهما من جونجو لوتيته والأخرى من لوبونجو، [82] وطلب منا كل منهما أن نزرره أولاً. ولأن هدية لوتيته كانت الأكبر، فإن القائد أدار وجهته نحو الشمال الشرقي للقيام بواجب الزيارة له أولاً. واخترق مسيرنا ولأيام عدة طرقاتاً خلال الغابة، وهناك رأيت للمرة الأولى البتوا (Batwa)، وهم «شعب الغابة القصار القائمة». ومن خلال تأثير أحد أدلاء السفر، والذي احتفظ بعلاقات طيبة معهم، لم يتواروا عن النظر بخلاف عاداتهم حين اقتراب قافلة منهم، ولذلك تأتي لي ملاحظتهم عن قرب أكثر مما هو متاح عادة.

وما أثارني لأول مرة، أنه وعلى الرغم من كون متوسط طولهم أقل من أربعة أقدام، فإنهم متينو البنية ومستقلو الشخصية. وهم كقاعدة، قوم رحّل، ولم ألتق قط بأي ممن سبق له أن رآهم في مستوطنة بأعداد كبيرة. ولأنهم صيادون، فإنهم يتبعون الطريدة بمجموعات صغيرة، ويغيرون خلالها مكانهم مع تغير هجرة الحيوانات. ولأنهم الصيادون الحقيقيون الوحيدون في حوض الكونغو، ويمتلكون معارف الغابات، فإنه لا بدّ للرحالة العادي (أوروبياً كان أم أفريقياً) من أن يمر على بعد ياردات قليلة منهم وألا يكون، وبكل معنى الكلمة، عارفاً بوجودهم، في حين أنهم يراقبونه. كما أن قاماتهم القصيرة تمكنهم من الهروب خلال طرقات الحيوانات بسهولة تامة، وهي ممرات يستحيل على الرجل العادي أن يمر بها إلا إذا انحنى للنصف تقريباً. وفي الحقيقة، فإنه يصعب على رجل عادي أن يجدهم، أو يراهم في الغابة بقدر ما يصعب على

رجل ولد في المدينة (town-bred person in this country) في هذه البلاد أن يعثر على فأر في حقل ذرة. وأستطيع أن أتذكر أنني غير مرة، وبينما كنت أسير وسط زخات المطر، ماشياً متتبِعاً آثار أقدامهم، والتي كانت لا تزال جافة لكنها أصبحت رطبة خلال دقائق، لتظهر بأنه لا بد لشعب قصار القامة من أن يكونوا قد مروا ضمن ياردات مني، على الرغم من أنني لم أر أو أسمع شيئاً؛ فصمت الغابة العظيمة، والذي يظهر حينها بحسب الحضور الإنساني، يبدو مطبقاً أكثر من المعتاد. فواقع الأمر أنه وكثيراً ما يكون المرء غير مدرك لقرب أقرانه من بني الإنسان، بينما تكون الطبيعة على هيئة حيوان أو حشرة، وبشكل غريزي عامة حين يكون العدو الرئيسي في الجوار.

يملك هؤلاء الأقزام معلومات دقيقة عن السموم، وأقواسهم وسهامهم، والتي يبدو [84] عليها أنها أدوات لعب لا ضرر منها، وسيحتقرها أطفال أوروبا على أنها أشياء للعب، هي قاتلة بلا مرأى في الصيد أو الحرب مثلما كانت منذ اختراعها. ويكون فعل بعض تلك السموم سريعاً إلى حدٍّ أن يموت الرجل بسببها بعد أن يُجرَّح بها في خلال ثلاث دقائق إلى عشر. ولقد سقط فيل في محطتنا ميتاً برمح مسموم، بعد أن جرح في الفخذ قبل أن يمشي لمائة ياردة؛ وفي إحدى المرات قتل سهم مسموم اخترق سترتي القطنية حين أطلق من مسافة ثلاثين ياردة، طائراً جُرح به في دقيقتين. وتتمثل إحدى الحيل التي يشترك فيها رجل الغابة الصغير مع رجل الأدغال من القناصين (ويذكرها غالباً رحالة، وإن كانت روايات بيضاء وسوداء تضيي عليها الاستحالة)، في أن بمقدورهم وبشكل محدد، إطلاق ثلاثة سهام وحتى أربعة، بسرعة فائقة إلى حدٍّ أن الرابع ينطلق حتى قبل أن يصل الأول منتهاه. ويستطيعون أيضاً تسديد رمح إلى حدٍّ أنه يخترق في أحد طرفيه رجلاً في حين أن طرفه الثاني يستقر في رجل آخر. ولطالما أرسل صائحو العبيد من العرب والمغيرين على العلاج حملات في الغابة العظيمة، عانت إلى حدٍّ كبير على [85] أيدي هؤلاء الشياطين الصغار، حتى إنه لم يعد منهم إلا القليل، وأحياناً لم يعد أحد ليروي

كيف قتلوا دون أن يروا من سدد لهم الضربات. وأحياناً يهاجم شعب الأقزام قافلة في فسحة من الغابة، وتكون حركتهم خفيفة للغاية إلى حد يصبح فيه الدفاع مستحيلاً من الناحية العملية. فما إن يروا شعلة إطلاق البندقية، حتى يُقَعُوا، واذ يأخذون في الجري تخفيهم الحشائش، ويقومون برمي عدوهم بالرماح في أثناء إعادة تعبئة بندقيته. وعلى الرغم من أن هذا النظام، قد استجاب جيداً لمواجهة حملاتنا المعتادة المسلحة بينادق تعباً من فوهاتها، فإنه لم ينجح ضدنا وضد بنادقنا التي تجري تعبئتها من مؤخرة الماسورة. وفي أي حال، يبقى أن كثيرين منا، يفزعون مما يبدو من مظهر سحري لأشباه الأقزام هؤلاء وهم على بعد ثلاث ياردات لأربع ياردات منا، وقد استقامت رماحهم القصيرة موجهة لتدميرنا. والحقيقة أن نجاحهم كان فائقاً أحياناً إلى حد يجعل المرء يشك فعلاً في كونهم بشراً.

مرت مسيرتنا من هنا إلى نجاندو (N'gandu)، في عاصمة جونجو على نهر لومامي عبر بلد خربها صائدو عبيد يعملون في خدمة تيبوتيب. فمنذ أن غادرنا [86] المنطقة العائدة لموتومبا، وفيما عدا بقعة صغيرة توسطتها قرية مونوكيالو، فإن هذا الخلاء، الذي افتقر إلى وجود البشر والغذاء، قد أحاط بنا. وتغطى كل مرتفع بمزارع النخيل؛ وبقايا القرى كما تظهرها السياجات الشوكية والخنادق أو حيطان الخشب الدفاعية، والتي استقرت جذورها في الأرض ونمت لتصبح أسواراً دائرية. لم تعانِ قافلتنا من الجوع، لأن القائد قد سمح لكل رجل بأخذ امرأة وصبي، للعمل على نقل المؤن والاعتناء بمتابعة ترتيباتها. وصلنا في الثالث عشر من سبتمبر إلى نجاندو وحصلنا على استقبال رائع من جونجولوتيته: برز الآلاف من شعبه للترحيب بنا، يطلقون النيران ويرقصون ويزعقون كما لو أن الأرواح قد تملكهم.

ولد جونجولوتيته في مَالِيلا (Malela)، وانتمى بقربى الدم إلى الباكوسو (Bakussu). ولقد كان هو نفسه عبداً، حين سقط كطفل في أيدي العرب. وفي شبابه، وكمكافأة له على سلوكه المتميز وإقدامه في حملات الغزو،

أعطى حريته. [87] بدأ ببندقية واحدة، في عمر الثامنة عشرة، ثم جمع حوله، تدريجياً، ثلة من قطاع الطرق، حكمها بقبضة حديدية، وسرعان ما أصبح صائد العبيد والعاج الرئيس لتيبو تيب.

أقام في نجاندو على اللومامي، حيث أدار جزءاً من مليلاً لسيف (Sefu)، ثم ومن خلال القيام بالغارات وسَّع من نفوذه شيئاً فشيئاً باتجاه الغرب، مما جعله يصطدم بالدولة. هزمه النقيب دوكامب أولاً ثم دانيس لاحقاً. وتوصل بعد هزيمة دانيس في أبريل 1892 لعدم جدوى مقاتلة الدولة، ولأن العرب لم يدفعوا له لفترة من الوقت لقاء عمله ولا لقاء العاج الذي كان يرسله لهم، فإنه قرر، إن أمكن، أن يعقد الصلح مع الدولة لحسابه الخاص. وكان هذا قراراً حكيماً، بحيث إن العرب كانوا بلا شك قد باتوا يخافون سطوته ويغارون منها، ولم يكن ليمر وقتٌ طويلٌ قبل أن يغتالوه.

من المرجح أن جونجولوتيته كان في ذلك الوقت في الثلاثين من عمره. كان يمتلك قامة متينة ويرتفع طوله لخمسـة أقدام وتسـع بوصات. وكانت عليه ملامح الذكاء [88] وكان ذا بشرة سمراء، وعيون واسعة بنية بأهداب طويلة للغاية، وفم صغير وشفاه دقيقة، وأنف مستقيم ودقيق نسبياً. وكانت يداه هي أكثر خصائصه تميزاً؛ إذ كانتا طريتين على نحو يبعث على الانتباه، تنتهيان بأصابع طويلة دقيقة وكانت أطرافهما دائماً ما تنثني إلى الداخل لو بسط يديه. ودأبت يد واحدة أو الاثنتان على الحركة الدائمة، تنبسطان وتنقبضان دون راحة، وخصوصاً عندما يكون في حالة تأثر قوي. وفي المقابل كانت أعضاؤه الأخرى تبقى دون حركة على الإطلاق. وعلى الرغم من أنه كان يتصرف بألفة وود مع بعض منا، فإنه كانت لديه القدرة دوماً على ألا يجعل أي إنسان ينسى أنه الزعيم، ولطالما كانت تصرفاته رزينة. ولطالما توجب على المرء أن يرى الرجل في ساحة الحرب ليتعرّف على الجوانب المختلفة لشخصيته. فالزعيم الهادئ والمتعطر، أو الرفيق اللطيف والودود، ينقلب في ميدان القتال إلى شخص متحمس عصبي المزاج، يصدر أوامره همساً الواحد تلو الآخر دون

لحظة تردد. وكانت لديه المقدرة لتحمل الإرهاق المتصل ويقود فرسانه معاً عبر البلاد في حركة مستمرة لساعات.

[89] تشكلت ثلة قطاع الطرق التي أحاط جونجو نفسه بها من جنس الباتيتيلا (Batetela). كان الباتيتيلا هؤلاء، وعلى نحو محدد الباكوسو، أكثر أكلي لحوم البشر تأصلاً. فخلال رحلات قمت بها في جوار مدنهم، شهدت في أكثر من مناسبة حالة إعدام عامة. فعندما يقرر زعيم المدينة، الذي هو حاكم مطلق، أن يحكم على رجل الموت، يسلمه لشعبه. وفي الحال يمزق إلى قطع، ويختفي بقدر ما يتقطع أرنب على يد قطع من الكلاب. فكل رجل يمسك به مرة بيد واحدة، يقطع قطعة منه بسكين باليد الأخرى؛ ولا يتقدم أحد لقتله أولاً لأنه لو قام بذلك فسوف يفقد قطعته. وفي غير من مرة وبعد قرار محكمة الميدان العسكرية بإعدام جاسوس أو فار من الخدمة، كانوا يقولون لنا في النظارة: «ولماذا تدفونه؟ لا فائدة من ذلك فعندما تذهبون، سنقوم بالطبع باستخراجه». ولا تأثير لتعليق التعاويذ على القبر بغرض منع الناس من لمسه خوفاً من السحر. [90] لم يكن يبدو أن هؤلاء الناس أي شكل من أشكال الديانات، ولا خوف من الموت أو الأرواح الشريرة. وعبر بلاد الباتيتيلا كافة، الممتدة من لوبيفو (Lubefu) حتى لويكي (Luiki)، ومن لوريمبي (Lurimbi) نحو الشمال إلى مسافة خمسة أيام سيراً، لا يرى الإنسان شيخاً ولا أعرج ولا أعمى. فحتى الوالدان يأكلهما أبنأوهما لدى بروز أول بوادر وصول للشيخوخة. لذلك يسهل فهم لماذا حين تؤخذ الظروف في الاعتبار، يظهر الباتيتيلا كجنس رائع. فأكلة لحوم البشر هؤلاء وكقاعدة، لا يبردون أسنانهم الأمامية، ولا يشمّون الوجوه.

استكشفت اللومامي لست ساعات أو ثمانٍ أعلى نجانندو. ويتسع النهر بمسافة مائتي ياردة، وهو سريع في مواقع عدة، وكثير الصخور، ويصعب اجتيازه حتى في قارب صغير. وتمتد إلى الشمال والجنوب والشرق من نجانندو

غابات واسعة من النخيل، وتحتوي على بقع عظيمة من نبات المطاط المتسلق. وحتى نجاندو نفسها، وكما رأيتها لأول مرة، وقعت في سهل منفتح، يفصل أحد جوانبها إلقاء من اليسار وهي ضفة اللومامي بقطاع من المستنقعات والغابات باتساع مائتي ياردة. [91] كانت هذه القرية، التي تضم عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف نسمة، بيضاوية الشكل ومحصنة بشكل قوي بخندق مضاعف وبمتراس على هيئة أنشودة، ويحيط بكامل الموقع سياج من أخشاب الأشجار. وتوج أعلى كل شجرة بجمجمة بشرية. كانت تحمي القرية ست بوابات؛ فبعد المرور بكل بوابة سيتوجب اجتياز نفق، بطول ثلاثين ياردة تقريباً، يتكون من كومات خشب، يجتاز في كل امتداده عبر فتحة تخترقه. وينتصب فوق هذا النفق مبنى للحراسة، في أرضيته ثقب يمكن للحارس من الأعلى أن يرمي برمحه أي عابر في الأسفل دون أن يشك الشخص في الأمر. وقد زينت المعابر لكل من هذه البوابات الست بالجماجم البشرية، ولا يظهر من تلك الجماجم على سطح الأرض إلا اليافوخ منها. لمع هذا الطريق الأبيض كالثلج مرور الأقدام العارية عليه ليصبح بنعومة العاج. وعددت أكثر من ألفي جمجمة على طريق واحد من البوابات فقط.

الفصل الخامس

جونجو لوتيته يترك العرب نهائياً ويتحالف مع قوى الدولة - الوصول إلى كابيندا، عاصمة لوبونجو، زعيم البالوبا الأكبر - تحركات العدو برئاسة سيف، ابن تيبو تيب - التحضير للمواجهة

[92] رُحِبَ فينا بفخامة ولشهر كامل في نجاندو. ودأب جونجو يومياً تقريباً على إرسال هدية لنا، ولأنه بدا أنه يحسب بالمئات، فكان يرسل مائة من الأغنام يوماً، ومائة من الماعز يوماً آخر، ثم مئات السلال من الذرة، أو مئة عذق من الموز. ارتحلنا بشكل جيد. وباقتراب نهاية الشهر أعلن جونجو لوتيته أنه سترك العرب، وسيأتي إلينا، شرط أن نحافظ على العهد معه، وأيضاً، وفي حالة ما إذا تعرض للهجوم من قبل العرب أن نساعد في الدفاع عن نفسه. ولإثبات مدى إخلاصه قدم لنا هدية كبيرة من العاج، [93] وطلب الإذن من القائد للبقاء في منطقته التي قد استقام فيها، وهي التي بحسب معاهدة رتبها السيد ستانلي باسم دولة الكونغو الحرة، في زنجبار، كانت خارج منطقة النفوذ العربي. أخبرنا جونجو بأن العرب قد قضوا على حملة إم هوديستر بالكامل، و«الرجل الأبيض القادم من الشرق»، والذي حدسنا بأنه أمين. أخبرنا أيضاً أنهم أبادوا حملتي ستيرز (Stairs)³⁰ ودولكومون (Delcommune)³¹ في

William Grant Stairs 30 ويليام جرانت ستيرز (1 يوليو 1863 - 9 يونيو 1892)

بريطاني من أصل كندي: مستكشف وعسكري ومغامر وكان له دور قيادي في اثنتين من أكثر الحملات إثارة للجدل في تاريخ استعمار أفريقيا و توفي في إحدهما (http://en.wikipedia.org/wiki/William_Grant_Stairs) و(http://en.wikipedia.org/wiki/Stairs_Expedition_to_Katanga) (المترجم).

31 هو من المرجح (Alexandre Delcommune) الضابط ألكسندر دولكومون (1855-1922)

أرسلته شركة الكونغو للتجارة والصناعة في بروكسل لاستكشاف الجوانب الاقتصادية للكونغو (<http://www.zum.de/whkmla/documents/rolduch/rolduch1-2.>)

(http://fr.wikipedia.org/wiki/Alexandre_Delcommune)، (html).

(http://en.wikipedia.org/wiki/Stairs_Expedition_to_Katanga) (المترجم).

الجنوب؛ لكن ذلك، وهو أمر لم نكن نعرفه حينها، لم يكن صحيحاً بالطبع. تركنا اثنين من الضباط وحارساً في نجاندو وتابعنا مسيرنا باتجاه كاتنجا، متبعين الحد الفاصل بين اللومامي واللوييفو. وفي أثناء هذه المسيرة مررنا بمئات من الهياكل العظمية البشرية - وبحسب أدلائنا من الباتيتيلا، فإن هؤلاء الضحايا كانوا قد سقطوا بوباء الجدري. ولكن بدا أن هناك ثقب رصاص في بعض الجماجم، ولربما لم يكن البوباء إلا غارة للباتيتيلا على العبيد.

بعد ستة أيام من السير وصلنا إلى كابيندا، وهي عاصمة لوبونجو. وكان بونجو الزعيم الأكبر [94] للبالوبا، ويمتد تأثيره شمالاً حتى لولوا (Lulua)، وإلى الجنوب حتى كاتنجا. يميل لون بشرة السكان في هذه المقاطعة إلى الزيتوني، وشفاهم دقيقة، وهم حتى من وجهة النظر الأوروبية حسنو الشكل. وعين دي أويش مقيماً، ليبدأ فوراً عملية بناء محطة في كابيندا.

وتطلب الأمر من دانيس حينئذ أن يعود إلى لوسامبو. وكان هناك العديد من المسائل في المنطقة لترتيبها، وكان هذا آخر مكان يمكن أن يتواصل مع لوسامبو، قبل أن نواصل المسير إلى كاتنجا.

واصلت رحلات الاستكشاف والصيد في جوار كابيندا، وهي منطقة جيدة وغنية وصحية. وخلال فترة وجودي، عشت أيام استجمام جيدة.

قررت أنا وشيرلينك (Scherlink) في السادس عشر من أكتوبر السير نحو مدينة كولوموني (Kolomoni) على نهر لورمبيي (Lurmibi). وتمثلت لدينا عدة أسباب لذلك: فالطعام، كما سمعنا، وفير هناك، وكان مضيفنا لوبونجو إما أنه يفتقر إلى التموين أو أنه لم يكن قابلاً بمنحنا أيّاً منه. وكان الرجال أيضاً يتذمرون: وبدأ دو أويش [95]، وقد انتهى من إقامة بيت كبير كان يبنيه، في إحضار كميات هائلة من طين ترابي استخرجه حفراً لأجل هذا الغرض. ونتيجة هذه التربة المقلوبة حديثاً، تدهورت صحتنا جميعاً، وأصيب بعض السود مع شيرلينك وسيركيل (Cerkel) بالحمى. ومن المرجح

أن التأثير الضار يعود إلى التربة المقلوبة حديثاً، والتي لم تعرض سابقاً لتأثير الضوء، وهو العامل الحاسم في القضاء على البكتيريا التي تعج بها الأرض غير المحروثة. ولدعم تلك النظرية، يشار إلى ما حدث إبان انتشار الملاريا بـ أنتويرب (Antwerp)³² لدى القيام بحفريات في المدينة عندما بنيت تحصينات جديدة. فهذا الطين الترابي الأحمر، يتحول بعد أن يكون رطباً إلى صلابة القرميد حين ينشف، ويوجد في المنطقة كافة بعمق من ياردة إلى ياردتين.

أخذنا معنا ثمانين رجلاً، ووصلنا في اليوم الأربعين إلى الأراضي العائدة إلى كولوموني. وعلى بعد ساعة من المدينة قابلنا زعيمين شابان ينظران باستقامة هم كولوموني وماكيبولا (Makipula)، [96] مع ألف من الرجال مسلح العديد منهم بالبنادق، رقص هؤلاء الناس حولنا، وهم يطلقون النار تاركين العنان لتعابير مفرطة تظهر البهجة برؤيتنا. وكان يصعب تخيل ما دفعهم إلى ذلك، لكنها عبرت جيداً عن حملة دولكومو، التي مرت منذ سنة مضت. وفي أثناء حديث مع الزعماء، الذين أعطونا، من ضمن أشياء أخرى، هدايا من الخنازير والماعز وأربعين سلة من الطحين، وعلمنا أن ماكيبولا كان صديقاً شخصياً لكولوموني وأنه على الرغم من كونه مزارعاً جيداً فإنه ليس محارباً. وعليه فقد قررا كما يبدو أن يعيشا في المدينة نفسها وأن يجدا هدفاً مشتركاً لأن كولوموني لا يصلح إلا للقتال. وبدا ذلك الترتيب جيداً، لأن البلاد قد زُرعت بأكملها، وكانت المدينة من أحسن ما رأيت بناءً.

وفي الثاني والعشرين من أكتوبر، وصل خطاب من الملازم ثان ديبروين (Debruyne) وهو ضابط بلجيكي، كان يقيم مع القائد ليبينز (Lippens) في بلاط سيف في كاسونجو. وذكر فيه بأنه بات مسجوناً، وأن سيفاً، ابن تيبو تيب يرافقه [97] عشرة آلاف رجل جميعهم مسلحون بالبنادق والسيوف

32 - مدينة في بلجيكا (المترجم).

قد زحفوا من كاسونجو بهدف القضاء علينا. لم يكن ذلك، بأي حال، سوى جزء من الانتفاضة العربية العامة، وكان ذلك بعد أن قام العرب بالقضاء على حملات هوديستر - أمين. ومضى يقول في الخطاب إن خطة سيف كانت تقضي، بأنه وبعد قتلنا، سيسيطر على البلاد بأجمعها وحتى ليوبولدفيل؛ وأن لا شيء سينقذنا ويرضي سيف إلا تسليم صديقنا جونجولوتيته أو إرسال رأسه كهدية، وبعدها نغادر خارج البلاد، التي يعتقد سيف أنها له. وبدون تنفيذ هذين الشرطين فوراً، فإن سيف سيعبر نهر اللومامي وسيقاتلنا. كتبنا بدورنا خطاب ترضية لكسب مزيد من الوقت، وما إن انطلق حاملوه، حتى صقينا المعسكر وتبعناهم، آمليْن أن نصل إلى جويموياسو (Goimuyasso) على اللومامي قبل العرب، لنصل النهر قبل أن تتمكن القوات العربية من عبوره، وكانت في ذلك فرصتنا الوحيدة لإيقاف تقدمهم. لكن زحف الأيام الأولى تقريباً كان قد نال من طاقة القافلة. إذ اجتزنا ما لا يقل عن خمسة وعشرين نهراً وجدولاً تتجه كلها نحو لوريمبي، وهي مؤشرات [98] لما كنا نعتقد أنه يتجه شمالاً. ولكن لسوء حظنا، كانت هناك عواصف خلال الأسبوع المنصرم، وتحول كل جدول لسيل جارف. عسكرنا في الساعة الخامسة مساءً، وقد نال منا التعب، كوننا زحفنا دون توقف لعشر ساعات.

كانت مدينة جويموياسو، التي وصلنا إليها في السادس والعشرين من أكتوبر 1892، تتمتع بموقع عظيم بضفاف خصبة على نهر اللومامي؛ فهنا يتسع النهر بمسافة مائتي متر عرضاً، ويجري التيار بسرعة ثلاث عقد. وبعد صعوبة كبيرة واجهتنا، عثرنا على مكان للمعسكر جيد إلى حد كبير، مع مزارع تابعة لجويموياسو تحيط بنا من كل الاتجاهات، وتتحكم في النهر لمسافة ميل إلى أعلى موقعنا وأسفله. ثم قام جويموياسو، وهو زعيم عظيم البدن لامع البشرة، بإحضار كمية من الطحين والماعز، على أنه لم يعطنا إلا القليل من المعلومات أو لا شيء على الإطلاق، إما بسبب اللامبالاة الأفريقية المعتادة، أو

لشكه الفطري في أنه، ولوقوع العرب على مسيرة أربع ساعات منا، سيجد نفسه في أي ساعة من النهار أو الليل مضطراً للهرب طلباً للنجاة. ولربما كان، من المرجح، أن السبب لعدم تحليله بروح تواصل أنه لم يكن قد حسم موقفه بعد في ما إذا كان سيلتحق بنا أو بالعرب [99]. في اليوم التالي، نقل لنا جواسيسنا أن سيفاً قد أمر جونجو موتشوبا (Gongo Muchufa) ونيار جونجو (Nyar Gongo) - وهما زعيمان على الجهة المقابلة من النهر، على مسافة خمس ساعات أو ست، من السير شمالاً - أن يجعلوا قواربهما جاهزة لمبور قواته للجهة الأخرى، حيث إنه ينوي أن يعبر النهر في جوارهما. وسمعنا أيضاً أن زعيماً كبيراً يسمى ديبوي (Dibui)، وعلى الرغم من أنه على غير استعداد للقتال، فإن سيفاً قد أرغمه على أن يضم قواته إليه. وفي أحد الأيام عصراً، استطاعت ابنة أخ جويموياسو (Goi)، وهي زعيمة من أعالي النهر، أن تنقل لي أخباراً بأن محمدي (Mahomedi) وديبوي كانا يحاولان عبور النهر مقابل قريتها، لكنها تمكنت من إعادة القوارب الأولى. ولدى سماع ذلك، قررت أنا والملازم أول شيرلينك أن نزحف ليلاً. وسيكون من المستحيل شرح المصاعب المستتبعة لأي ممن لا يمتلك خبرة المسير ليلاً خلال جزء غير معروف من أفريقيا المدارية. فالطريق المار عبر المستنقعات والغابات لا يتسع أكثر من عشر بوصات، ويأخذ المرتحل بدون سابق إنذار إلى أعلى تلال النمل والصخور وأسفلها، وخلال الوديان الضيقة والشديدة الانحدار، وعبر الجداول ومصائد الحيوانات. وهذا الطريق، حتى في وضوح النهار، هو من المشقة بمكان للأعصاب والجسد. [100] على أن اتباع أحد تلك الطرقات في الليل البهيم في محاولة لاجتباب الشجيرات ذات الأشواك وتلال النمل، ضمن احتمال مخاطرة الشنق «بجبال القردة» أو التعثر بالجدور في كل منعطف، فإن ذلك يشارف على الاستحالة نفسها تقريباً.

مما بعث على الراحة وبعد ثلاث ساعات من العثرات في الغابة، أن

نقابل رسولاً من صديقتنا الأميرة، التي أخبرتنا بأن قبيلتها قد اجتازت النهر تحت جنح الظلام، وأنهم قد رفعوا كل القوارب من على الضفة اليمنى، بحيث إنه لم يعد هناك أي خطر داهم من عبور العدو. وبناء على ذلك عدنا أدراجنا متوخين أثر خطواتنا، فرحين من القلب لعودتنا إلى المعسكر. في الأيام القليلة التالية انشغلنا في إقامة سياج محيط - والذي تكون من سياج شوكي بخندقين مزدوجين - للإحاطة بمجمل المعسكر. كان ذلك دفاعاً واهناً إذا ما قورن بما علمتنا إياه المواجهات مع العدو لبننيه فيما بعد. وبحيث إن تلك التحصينات العربية قد أدت دوراً مهماً في تعاملنا اللاحق مع العدو، فلربما كان من المناسب شرح أحدها بالتفصيل.

فحين تكون هناك قوة عربية زاحفة، فإنها تستخدم عدداً كبيراً من العبيد لقطع الأشجار والشجيرات وحملها معهم [101] وهذه الأشجار تكون بطول خمسة عشر قدماً، وقطر يبلغ ستة أقدام. وحالما يتم اختيار موقع للتوقف، يقوم العبيد بتركيز هذه الأخشاب في دائرة يبلغ قطرها حوالي خمسين ياردة، بحيث يقوم الزعماء والضباط بترتيب وضعها. وبعدها يحفر خندق ويستخدم الرمل المستخرج لتجميعه إزاء السياج، ثم تثبت بها سيقان أشجار الموز في كل اتجاه. وحول المركز، وباتباع الارتفاعات غير المتساوية على الأرض، يقام خط أوتاد آخر، وربما امتد ذلك الخط في دائرة يبلغ قطرها مئات الياردات. وبعدها يحفر خندق آخر بالطريقة نفسها، وتوضع سيقان الموز مرة أخرى فوق التشكيلة المكونة من الرمل. ويحتل الجنود الفسحة ما بين التحصينين. وهذا جُلّ ما يصنع عادة إذا كانت النية قائمة للاستفادة من ذلك التشكيل لمدة يوم أو يومين، على أنه إن كان القصد للبقاء لمدة أطول، فإنه يتم حفر خندق خارج التحويطات. وهدف سيقان الموز بهذه الطريقة لا يخلو من براعة. إذ إنه خلال أربع ساعات أو خمس، ستدوي السيقان تاركة فجوات يمكن للمدافعين أن يستخدموها لإطلاق النار من خلالها دون تعريض أنفسهم للانكشاف. [102]

وتقام أكواخ صغيرة في داخل التحصين كله، مصممة بحذق بحيث إنها تكون أيضاً مضادة للقذائف. وهي تتكوّن من حفرة بعمق ياردة ونصف، وتغطى بالخشب. وهو ما يشكل سقفاً، ويوضع عليه تراب استخرج من الحفرة بارتفاع قدمين، ثم تغطى كلها بالقش ليصبح بمثابة سقف للوقاية من المطر. وفي تحصينات عديدة على تلك الشاكلة، وجدنا أن المدافعين قد حفروا أنفاقاً من الخنادق الرئيسية في مختلف الاتجاهات، حيث كانوا يعيشون، وقد فرشوها بالقش. وينقسم التحصين بكامله إلى أربعة أقسام أو أكثر من التحصينات والخنادق الأصغر، بحيث إذا ما اجتich التحصين يجد المهاجم نفسه تحت وابل متعدد المصادر- وهو وضع أسوأ من محاولة فعلية لاجتياح مدخل الموقع. ولقد وجدنا أن القذائف من مدفعية الكروب 7.5 (7.5 Krupps)³³ لا تفعل إلا القليل أو أنها لا تحدث أي أثر بتاتاً في تلك القلاع.

وفي يوم 29 أكتوبر، تسلّمنا رسالة أخرى من ديبروني تقول إن العرب قد وزعوا قواتهم بقصد [103] عبور النهر في ثلاثة مواقع في الوقت نفسه، وبالتالي إرغامنا بدورنا على تجزئة أنفسنا. وإذا ما نجح ذلك، فإنهم كانوا يتوقعون ألا يجدوا صعوبة في القضاء على قطعائنا المحددة. ورجانا ديبروني أن نخلى عن فكرة القتال لأنها ستكون دون جدوى، وبدلاً من ذلك، يجب أن نعبّر النهر ونجري حواراً ودياً مع سيف. وأضاف كإنذار، بأن سيفاً، على الرغم من أنه غير تواق للقتال، فإنه أخبره في الليلة السابقة بأن صبره قد بدأ ينفد تقريباً، وأنه لن يبقى على أي مّا في حال أننا لم نستسلم على الفور. وأول رجلين يود قتلهما هما ليبينز وكاتب الرسالة. وبالطبع، فإننا قررنا ألا نلقي بأنفسنا للكرم العربي، وأرسلنا قائلين بذلك، كما أرسلنا في الوقت نفسه بنصف ما نخزنه لديبروني. وتسلمنا في ذلك المساء رسالة من دو أويش، تقول بأنه هو وأربعون من الرجال سيصلون في اليوم التالي من لوبونجو.

33 - من المرجح أنه من مصانع عائلة كروب في ألمانيا والتي عملت في مجال إنتاج الأسلحة (<http://en.wikipedia.org/wiki/Krupp>) (المترجم).

وفي الثاني من نوفمبر، وصلتنا معلومات محددة عن جونجو موتشوقا بأنه يحتفظ بقواربه جاهزة لعبور قوات سيف. وبما أننا عرفنا بأن دو أويش سيصل سريعاً، أخذت أربعين من الرجال وزحفت أسفل ضفة النهر، بهدف قطع الطريق على القوارب إن أمكن - وإن لم أتمكن من محاولة إيقاف تقدم القوات العربية وهي تحاول اجتياز النهر. أوصلتني ست ساعات من المسير إلى ضفة النهر، وأرغممتني الأرض المرتفعة، مرة أخرى، على أن أغادر المسافة المفتوحة والجافة على مسافة ميل أو اثنين من النهر، مما أتاح لي سيراً أفضل على الأقدام. ووجدت أن قرية العبور قد هجرت، واختفت القوارب كافة. وحيث لم توجد فسحة فراغ قرب النهر، وكانت الغابة مكتظة بشكل خطير، عدت أدراجي إلى أرض مرتفعة تبعد ميلاً عن المكان. وكان هناك إعصار قد استعر، ولأننا لم نجد ما نفعله إلا أن نستلقي على الأرض ونحن جوعى ومبللين يجتاحنا البرد، بانتظار أن يتوقف المطر والريح. أقام رجالي بيتاً صغيراً لي من أوراق الموز، ومن الأعشاب لهم. وبإضافة ترف النار شعرت بالدفء وبالراحة، وعلى الرغم من العاصفة، فإني نمت بهدوء حتى أوقظت بفهد تسلل إلى المعسكر وبث الرعب في أوساط الحرس إلى حدّ كاد يفقدهم صوابهم. وتشرفت في الصباح بزيارة من نيان جونجو، وهو رجل ترتفع قامته ذات العضلات لطول ستة أقدام وبوصتين، ويحتفظ بأفضل بنية بدنية للأصليين رأيتهما بحياتي. [105] كانت قريته تقع بالقرب وهي عاصمة للمقاطعة؛ وبعد المحادثة المعتادة - حيث أظهر ألفة مع العادات العربية - طلبت منه أن يحضر طعاماً للبيع، وهو ما فعله، إلا أنه طلب منا ثمناً غالياً إلى حدّ أننا لم نشتر منه إلا القليل. وفي الحقيقة كان خطأ منا أن نطلب شراء الأكل، فالعادة العربية هي في توفيره للمسافرين مجاناً. بعدها لم يبد نيان جونجو أي مؤشرات وجود، وبانتهاء المدة، قاربت تمويناتنا على النفاد تماماً، فأرسلت له أحد السكان طالباً لقاءه. فردّ على ذلك بالقدوم مختلاً إلى معسكري على رأس حريمه ومجموعة كبيرة من أتباعه، تتقدمهم فرقة من البنات المنشدات، ورجال يقرعون الطبول

(tum-tums) ، ومعهم عدة مئات من الرجال المسلحين. وسأيرته بسؤاله بماذا كان يتوقع لرجالنا أن يقتاتوا إذا لم يحضر لنا أي غذاء، فردّ على ذلك بأنه غير قادر على إطعامنا إن لم ندفع له إلا القليل، وقال إنه، وقبل مواصلة الحديث، يتوجب عليّ أن أعطيه معطفي وأحذيتي. [106] وقال بأن لدى العرب أقمشة وهدايا له أكثر مما لديّ. لقد بعث ذلك على الضيق وخصوصاً أن ذلك كان يعبر عن الواقع. وكان العرب أيضاً على الضفة الثانية وتواقين للعبور، في حين أننا كنا نحن على جانبه، وليس هناك من شيء نتوق لإحرازه. ولكن كان من الضروري أن نحصل على غذاء بطريقة ما. ولذلك صفّرت فتحلّق رجالي حولي، وفي خلال دقيقة قمنا بتجريده من السلاح وأسرنا الزعيم غير المضيف هو ونصف دزينة من قاداته. بعدها شرحت له بأن من الأفضل له أن يبعد رجاله كلهم، وألاّ يتناسى أحدهم النتائج المترتبة التي ستكون لغير صالحة، وأنه كلما أسرع قومه بإحضار الطعام، كلما كان ذلك أفضل، لأنني لا أنوي أن أموت جوعاً إلا إذا مات هو ورجاله أيضاً. وبعد برهة، بدا عليه الاقتناع، فأرسل لإحضار الطعام، الذي انهال على معسكرنا بكميات كبيرة في مساء ذلك اليوم نفسه. بعدها أطلق سراحه، مرافقاً بهدية صغيرة لتهدئة كرامته المتعكرة. وبدا عليه أنه فوجئ [107] بفكرة أن رجلاً يمثل السلطة التي يحتفظ بها، ينعم عليه بالحرية وبهدية، أكثر من مسألة أنه قد جرد من السلاح واختطف في حين أنه بينما كان هو زعيم لكل من مر بهم. وأصبحنا أنا ونيان جونجو صديقين منذ ذلك الوقت. وبعدها بشهور، وحين بدا أنه مجرد واحد من زعماء صغار يدينون لنا بمحض وجودهم، والذين ما كان يتوقع لهم أن يدفعوا لنا أية جزية بأية هيئة أو شكل كان إلا من خلال لوبونجو، اعتاد نيان على أن يحضر لي بنفسه هدايا صغيرة؛ وأعتقد أنه كان يقوم بالغريزة نفسها التي تجعل من الكلب يتودد لشخص قد عاقبه.

ولثلاثة أيام أو أربعة، قمت بحراسة أعلى النهر وأسفله، في ذلك الجوار

الذي أخبرني جواسيسي أن سيفاً كان يحاول فعلياً أن يعبره. في ذلك الوقت، تسلّمت رسالة من دوشين (Duchesne) في نجاننو، يأمرني باتخاذ الحيطة الشديدة بحيث إن جواسيسه قد اكتشفوا أن سيفاً يريد فعلياً أن يهاجمنا حيث كنا، وأن من يُسمّون بأصدقائنا من السكان الأصليين قد رتبوا لمساعدة العرب. وصل الملازم شيرلينك إلى معسكري في السابع من نوفمبر، بعد أن ترك دو أويش [108] بإمرة تابعة جويموياسو. ولقد سررت لرؤيته، لأنني لم أكن قد حصلت إلاّ على القليل من الراحة أو على لا شيء منها على الإطلاق، في ليل أو نهار، أحاول غربلة الأخبار الخاطئة وزاحفاً بناءً على «معلومات موثوقة» لمقابلة عدو لم يتم بعبور النهر قط، والذي كما اكتشفنا لاحقاً لم تكن لديه نية في العبور (حين عرف بأنني كنت هناك). وفي مساء التاسع من نوفمبر تسلّمنا مذكرة مستعجلة من دو أويش، تقول بأنه لربما في الوقت الذي تصلنا فيه المذكرة، يكون هو قد قطع عنا. فقد أخبره وبشكل مجاني أسير وقع بين يديه، أن سيفاً سيقوم بهجوم في صباح يوم الحادي عشر. قوّضنا المعسكر عندما شع القمر بما يكفي من الضوء، وعندما لم نكتشف أي أثر للعدو، وصلنا تابعة جويموياسو. وحين وصولنا، أحضر عدد من الأسرى، الذين ألقى قوم جويموياسو القبض عليهم في أثناء ارتكابهم سرقة قوارب. وقالوا بأن سيفاً قد أرسلهم عبر النهر للحصول عليها، وكان ذلك بمثابة المصدر الكامل للإنذار. وأخبرنا أحد الأسرى والذي كان «ساحراً - طبيباً» بهدوء بأنه يغير نفسه إلى بطة عندما يريد أن يعبر النهر. ولقد ألقى القبض على هذا الرجل لاحقاً [109] وأعدم كجاسوس. واعتقد كل أصلي، بل حتى بعض النظاميين من الذين كانوا معنا، بأن الساحر قد اجتاز الحراسة متحولاً إلى أحد الحيوانات، وأخبرونا أن لا جدوى من محاولة قتله. وفي أي حال، فقد أعطي تحذيرات كافية، وأثبتنا أن سحره لم يكن مضاداً للرصاص.

واستعداداً للهجوم المبلّغ عنه بأنه سيقع في الحادي عشر من نوفمبر،

وضعنا مرايض للبنادق في موقع للتحكم في الطرق الرئيسية حول المعسكر. وكان رجالنا، وغالبيتهم من الهوسا، رماة سيئين بشكل مريع، ولو تركوا لأنفسهم، لما كانوا ليصيبوا رجلاً على مبعدة ثلاثين ياردة. وصلتنا رسائل من القائد دانيس، تقول بأنه يأمل أن يصل يوم الرابع عشر مصطحباً حوالي عشرة آلاف من الحلفاء من الأصليين، وأعطانا أوامر بعدم العبور لأي مبرر حتى ذلك الحين. وعندما سمعنا أن هناك عدداً من القوارب بأعلى النهر، وهي قوارب كان العرب يحاولون السيطرة عليها، أرسلنا سرية بأمرة دو أويش إلى أعلى النهر لإحضار القوارب إلى أسفل النهر إن أمكن، أو تدميرها إن فشل الأمر. ولقد أبلغ دو أويش [110] بالأمر يعبر النهر وهو المعروف بأنه الأكثر طيشاً من الشياطين- الجريئين. وفاجأ المدينة حيث وجدت القوارب، واكتشف أن القوات العريية، كانت قد أخذتها إلى الجانب الآخر. وعندما عثر على نصف قارب قديم، رقبه بالطين، واصطحب رجلين معه فيما يسمى تجاوزاً بالقارب، وعبر النهر أخذاً في البحث عن القوارب، التي كانت مخفية وسط الأعشاب الطويلة. قام حلفاء العرب بالاصطفاف بالمئات على الضفة، ووسط رشاش من الرصاص والسهام قام دو أويش بالتراجع دون أي جرح على غير توقع، وترك بعد «Après les avoir envoyés quelques pruneaux»، أو «بعد أن أرسل بعض البرقوق» كما عبر لي عن ذلك. وخلال غيابه كان سيف قد أرسل دوبرويني مع حامية قوية إلى النهر، بهدف إقناعنا بالعبور وزيارته، مخفورين بما لا يزيد على نصف دزينة من الرجال. وحذرنا جواسيسنا من أن سيفاً ينوي أن يغويننا بأي سبب لإقناعنا بالعبور، وعندها إما أن يقتلنا وإما أن يأسرنا. وبما أنه حيث جرى تنبيهنا مسبقاً فإننا رفضنا ذلك، وشرحنا أن لدينا أوامر من القائد بالأمر نتجاوز اللومامي، ذاكرين في الوقت نفسه [111] أننا نتوقع أن يكون القائد دانيس معنا خلال يوم أو يومين. وحاولت المستطاع لإقناع دوبرويني بأن يسبح لنا، ولكن بالنظر إلى ما كان قائماً حينئذ رفض القيام بذلك. وبعد عدة شهور لاحقاً، وعندما فتحنا قبر الرجل المسكين في

كاسونجو، اكتشفنا أنه قطع إلى ما لا يزيد الواحد منها على القدم، وإن سعدنا، وكما اكتشفنا من قتلته ومن شهود مستقلين، أن هذا السحل تم بعد الوفاة.

وصل القائد في العشرين من نوفمبر وبصحبه مدفع كروب 7.5، يرافقه النقيب دو فوترز وسيركيل ولوبونجو كولوموني وأتباع كثيرون. ولدى سماعه في الطريق أن العرب قد ظهروا أسفل النهر قبالة نجان دو، أرسل دانيس النقيب ميشو (Michaux) ومعه ثمانين رجلاً لتقوية الملازم أول دوشين (Duchesne)، والذي كان مع جونجو لوتيته في نجان دو. وبذا أصبحت تلك المجموعة الذراع الثانية للهجوم.

الفصل السادس

المواجهة الأولى مع العرب - الاستيلاء على اثنين من حصونهم

[112] في اليوم الذي تلا وصول القائد إلى لومامي سمعنا أن بعض أتباع سيف قد عبروا النهر على بعد مسيرة ثماني ساعات أسفل منا. وحيث إننا لم نأخذ الأمر على محمل الجد وعلى نحو كبير، أرسلنا مفرزة من أربعين رجلاً بإمرة رقيب أسود يسمى ألبرت فريز (Albert Frees) وعريف يسمى بنجا (Benga)، مع لوبونجو وكولوموني وأناسهما للاستطلاع، والاشتباك إن لزم الأمر.

كان ألبرت فريز المنروفي بالولادة رجلاً قصيراً دقيقاً بطول خمسة أقدام وست بوصات، يتحدث الإنجليزية بلهجة أميركية قوية وكان كثير الهذر. كانت طاقته وذكاءه فوق العادة لرجل لم يحصل على قدر من التعليم. وكان بنجا مواطناً من سيراليون، بقوام غليظ ووجه زنجي الشكل إلى حد كبير، نادراً ما يتكلم إلا إذا كان لديه شيء شديد الأهمية للتحدث عنه. كان صمته المطبق [113] أكثر ما يلحظ عليه، ودأب على البقاء لساعات دون أن يفتح شفتيه. وكان الاثنان صديقين حميمين، واحتفظ كل منهما بعزم في جسمه يفوق كل جماع ما لدى السود الآخرين الذين قابلتهم في حياتي. وكان كل منهما رامياً ماهراً، وقد نجحاً معاً في الحملة في تحقيق أكثر الأعمال بطولية لأي فرد يتأتى له أن يقوم به. وبعد قتال يوم اعتادا على اصطحاب رجالهما وملاحقة فلول العدو المنسحب وسط الليل. وكان دائماً ما يدعو لإعجابنا أن تتأتى لهما العودة من مهماتهما تلك.

في المساء التالي هرع رجل إلى معسكرنا حاملاً معه بندقية عربية، وأحضر معه رسالة تقول بأن العرب كانوا في أوج استعدادهم، وبعد قتال عنيف فإن الموقع لم يتم الاستيلاء عليه. بدأ القائد فوراً باتخاذ وضعية القتال، برفقة شيرلينك وأنا ومفرزة من أفضل الرجال. وسرنا حتى منتصف الليل، عندما، توغلنا في غابة كثيفة، حيث بات الظلام حالكاً وأضحى من الخطورة أن نواصل، فجلسنا على دروبنا وانتظرنا طلوع الفجر. وكنا قد

سرنا لمدة ثلاث [114] ساعات فقط على الطريق حين التقينا بعض الأصليين الذين أرسلوا إلينا حاملين رسالة من ميشو. وكانوا يحملون بنادق وينشستر (Winchester)³⁴ ذات التردد، ويحرسون أسرى بمثابة رموز للانتصار على القوات العربية. ويبدو أن جونجو لوتيته قد اكتشف أن العرب قد اجتازوا النهر؛ عندها زحف هو وقبيلته، مستبقاً ميشو ودوشين، ليكتشف أن العرب قد وصلوا إلى الحصنين والشمس توشك على المغيب. وكان ألبرت فريز يناوش تلك القوات حول الحصنين لبضع ساعات. ولدى وصولهما بحلول الظلام، سحب ميشو وجونجو لوتيته رجالهما وأقاما على مبعدة مسيرة ساعة من ألبرت فريز ولوبونجو، اللذين عسكرا قرب الحصن الأصفر.

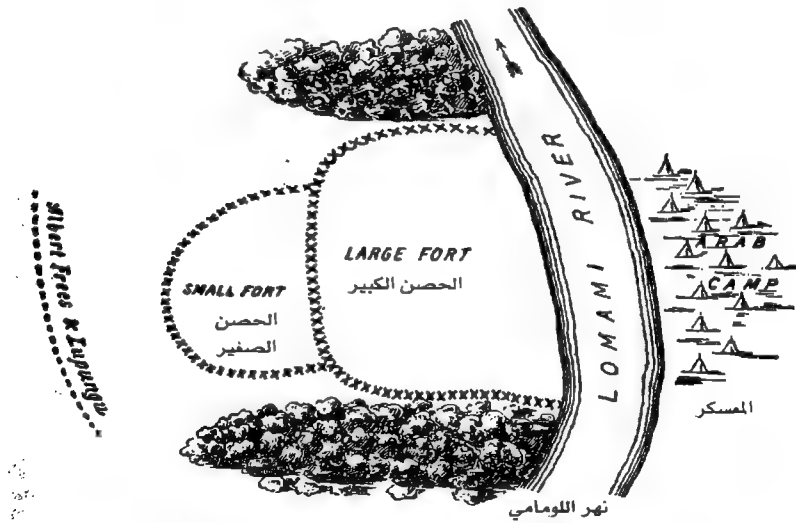
هب إعصار وتبعه مطر، واستمر طوال الليل، وعند الفجر نصح ألبرت فريز بالهجوم. شنَّ العرب هجومهم بقوة، ولكن القليل من مدافع الكبسولات المعدنية (cap guns) (التي كانت تشكل عماد تسليحهم)³⁵ تفجّرت، فاقْد تشرب البارود تماماً بمطر الليل. [115] واذا سارع ألبرت فريز لاكتشاف المأزق الذي باتوا فيه، وبلااستفادة منه، دفعهم إلى مواقعهم بالمشاركة مع لوبونجو، وهاجم الحصن الأصفر في الوقت الذي برز فيه ميشو وجونجو لوتيته.

تراجع العرب نحو الحصن الكبير، الذي لم يصمد طويلاً في وجه الهجوم المشترك. فانتشر ذعر لم يعرف مصدره وقذف الجمع بنفسه في النهر، وهو باتساع مائة ياردة وبسرعة تيار تبلغ أربعة أميال. فأخذ النظاميون والأصليون من الأصدقاء يقتلونهم بالمئات في المياه. [116] وكان سيف نفسه قد عبر قبل بدء القتال وبذلك هرب. ولدى عد الخسائر العربية وجدنا أن

34 - هي من المرجح البندقية بعثة التردد وينشستر الأميركية الصنع وأنتجت منها خمسة نماذج بين عامي 1866 - 1892 وأشهرها نموذج 1873 (http://en.wikipedia.org/wiki/Winchester_rifle). (<http://www.winchestercollector.org/guns/w-history.shtml>) (المترجم).

35 - لا يتضح هنا ما هو المقصود من تلك البنادق حيث إن الـ (cap guns) هي بنادق قصد بها أن تكون للعب. ربما كان القصد أنها بنادق صوتية فقط (http://en.wikipedia.org/wiki/Cap_gun) (المترجم).

600 قتيل سقطوا في أرض المعركة، في حين أن ما بين 2000 إلى 3000 فرد قتلوا أو غرقوا في النهر. أخذنا 30 بندقية مرتدة جيدة وما يزيد على ألفي مدفع بالكبسولات المعدنية مع كمية كبيرة من البارود والطلقات. وكان الرقيب ألبرت فريز والعريف بنجا أول الواصلين إلى سياج الحصن الخشبي، وقد تعرض ألبرت لثلاث إصابات بالقذائف. أما بنجا، الذي كان رياضياً عظيماً، فسرعان ما ركض وقذف نفسه باتجاه السياج، ليتمكن من تأسيس موقعين أو ثلاثة مما أحدث فجوة تقدم من خلالها هو وألبرت يتبعهما قواتهما. وهناك تمكنا من إلقاء القبض على ثلاثة أسرى رئيسيين، أحدهم سادي (Sadi) الذي خدم مع ستانلي. وكانت ذراعه قد كسرتا كما أن فخذه والجمجمة قد اخترقهما الرصاص، ومع ذلك فقد ظلّ على قيد الحياة لثلاثة أسابيع.



قرر القائد حينها ملاحقة العرب حتى بلادهم. وكانت لديه حرية في القيام بذلك، لسبب أنهم، بعبورهم اللومامي [117] ومهاجمتنا وفي مقدمتهم سيف، وهو ضابط في الدولة، فإنه يكون قد خرق اتفاقية زنجبار.

كنا أنا وشيرلينك في طليعة القوة المهاجمة. عبرنا نهر اللومامي يوم

السادس والعشرين من نوفمبر وعسكرنا في سهل على بعد نصف ميل من ضفة النهر. وبعد البقاء يومين بدون عمل، وبينما كنا في انتظار عبور الجزء الأكبر من القوة للنهر، بدأنا ولأجل تحقيق رضا الرجال الذين كانوا متذمرين وجوعى بشن غارات. هاجمنا قرية محصنة اسمها تشيلي (Chile)، وهي إحدى أجمل القرى المزروعة التي رأيتها والتي بنيت بذوق في وسط أفريقيا. بنيت البيوت على منصة بارتفاع قدمين عن الأرض، وقد شيدت من الخشب وسقفت بالأعشاب العادية. وقد طليت الجدران من الداخل بطين أبيض، وزخرفت بشكل غريب بالأصفر والأسود والأحمر. وأثنت بيوت القرية بكاملها تقريباً بأمكنة للنار ومقاعد مصنوعة بالشكل المعتاد. أما النوافذ أو الفتحات من أي شكل وعلى الجوانب فهي أشياء لا يمكن لأحلام الأفريقي الأصلي أن تصل لترتيبها. وعادة ما تترك فجوة صغيرة أحياناً في السقف لكي يتسرب منها الدخان، [118] وحتى ذلك لا يشكل عملاً يتبع باستمرار. وغالباً ما يكون هناك ممر صغير واطئ ليشكل وسيلة التهوية الوحيدة، باستثناء الشقوق العشوائية التي تركت خلال نسج السقف.

وكثيراً ما لاحظت وسط الأفارقة الأصليين انتشار حالة بالمتحمة (الفشاء المخاطي في باطن الجفن) في العين ذات لون بني وأحياناً كبقعة دموية، على الرغم من أنه وحين فتح الجفن أكثر من المعتاد، فإن بياض العين يبرز نظيفاً وخالياً من أي شيء. ولقد توصلت إلى قناعة بأن هذه الحالة ينتجها الدخان. حيث يمكن استيعاب أن الجو في كوخ بهذا الوصف، وفيه نار سيكون مليئاً بالدخان، إلى حد أن أي أوروبي عادي ليس معتاداً على هذه الحياة، من المرجح أنه سيصاب بالاختناق. وفي المقابل، فإن الأصليين، يعتادون على ذلك من بواكير أيامهم، وحين يجلسون حول نار في الهواء الطلق فإنهم عادة ما يختارون أن يتموضعوا باتجاه مهب الريح، بحيث يشكل الدخان حماية ضد هجمات البعوض وغيرها من الحشرات الضارة.

ولقد كان هذا الموضع هو الذي أبرزت فيه خصائص أكل البشر لأصدقائنا لأول مرة لي [119]. فبالعودة عبر المدينة بعد متابعة السكان لميل أو اثنين، اكتشفت أن القتلى والجرحى قد اختفوا، وتبرع بعض رجالي لإخباري بأن أفراد قوة الأصدقاء قد قاموا بتقطيعهم وأخذهم معهم كطعام. ولم أكن لأصدق هذا. وفي طريق العودة إلى مكاننا، تعرضنا للهجوم. وهكذا توقف الأصدقاء والذين كانوا يرقصون في المقدمة، وأطلقوا أرجلهم للفرار تاركين من بين الغنائم التي خلفوها وراءهم أذرعاً بشرية عدة وسيقاناً ورؤوساً منتشرة على الطريق، والتي اعتنى الرجال الذين شككت في معلوماتهم بالإشارة إليها كدليل على أنهم لم يكذبوا. ولقد كان هذا الاشتباك مهماً لسبب آخر. فلقد اعتليت كثيب نمل لأرى كيف كانت الأمور تسير وكيف يتموضع العدو؛ ومباشرة أمامي، وعلى تلة أخرى على بعد ستين ياردة، كان الزعيم المعادي ومساعدوه يتموضعون. وما إن رأيته حتى أخذ في إفراغ مدفع الوينشستر باتجاهي، حتى أصبته برصاصة ماورز في صدره أسقطته من عليائه. وبعد سنة قابل شيرلينك هذا الرجل؛ وأظهر الزعيم بافتخار [120] تلك الجروح التي أحدثتها الرصاصة التي اخترقت عظام صدره وظهره لتخترق بعدها الحجاب الحاجز لأحد رجاله، والذي توفي بعد بضعة أيام متأثراً بجراحه. ولقد دأب إخواني الضباط على الإشارة إلى احتمال أن تكون الرصاصة قد تعفنت حين مرورها بصدر الزعيم، وأن الرجل الثاني من المرجح أنه قد توفي نتيجة تسمم الدم.

وبعد الكثير من التجريب بعدة أنواع من البنادق القصيرة المدى³⁶، فقدنا جميعاً الثقة في قدرتها على القتال أو إيقاف العدو، وبتنا نفضل تسليح رجالنا بنوع (chassepots)³⁷ التي استخدمت في الحرب الفرنسية - البروسية عام 1870.

36 - (Small-bore rifles) هي بنادق بفوهة 0.22 بوصة، وذات مدى قصير باتت تستخدم داخل المباني في المسابقات ومداها بين 15 إلى 200 ياردة وتستعمل في مباريات الرماية (www.answers.com/topic/rifle-range) (المترجم).

37 - نوع من البنادق اشتهرت باسم (Fusil modèle 1866) واستبدل فيه تقييم الرصاصة من

وبعد عودتنا من الاشتباكات قابلنا القائد ومعه دو فوترز والرقيب الأبيض سيركيل، وكل القوة الموجودة التي أمكنه حشدوها. عسكرنا على الفور، ومساء ذلك اليوم أعاد القائد ما سبق أن قاله لنا عندما سأل عمن يود أن يذهب معه - وبشكل أساس، ذكر أنه لا ينوي العودة حياً من الحملة إن لم تكن ناجحة، وأنه في حال كان أي منا غير محظوظ بشكل كاف بحيث يقع في الأسر لدى العدو فإنه سيعتبرنا ميتين [121]، ولن يخاطر برجل واحد لإنقاذنا.

أخذنا في اليوم التالي مدينة كيتينجي (Kitenge)، وأرسل ألبرت فريز للمقدمة لطمأنة الزعيم وشعبه. وبما أنهم من السكان الأصليين، فليست لدينا نية للقتال معهم، لأن صراعنا سيكون بالطبع مقتصرًا على صائدي العبيد من العرب وحلفائهم. وقد نجح في تهدئتهم، وكان يتحدث بهدوء مع الزعيم عندما برزنا على التلة المطلة على المدينة، ولدى رؤيتنا دب الفرع بكل السكان وهربوا جميعاً؛ وحتى كيتينجي نفسه راوغ جيئةً وذهاباً وسط الحشد لكن ألبرت وقد أدرك هدف الزعيم، تابعه وسط الغابة وأحضره إلينا في الوقت الذي سيطرنا فيه على المدينة. وعندما سأل القائد عما حدث، أعطى ألبرت الجواب على النحو التالي: *caught man plenty wild passed him before*. أحضرنا قوتنا بأكملها إلى المدينة، وأعطيناهم مقرات أخلاها كيتينجي وهي أماكن لحريمه. وقد ضمت مائتي بيت منفصل تقريباً، وأحيطت بسياج قوي، بحيث يشكل الموقع معسكراً ذا كفاءة عالية [122] لأناسنا. وامتلك الوضع مزية إضافية كونه منفصلاً عن الأصليين والمدينة، وبالتالي قُتل من إمكانية الاحتكاك بين الفريقين. وكانت البلد المحيطة بالمدينة غنية جداً. وأحضرت جماعتنا كميات هائلة من الموز، وأنواعاً مختلفة من الذرة، والأناس والبطاطا

مقدمة ماسورة البندقية أو فوهتها إلى التلقيم من الخلف وباستخدام ترباس. واشتق اسمها

من مخترعها Antoine Alphonse Chassepot (1833 - 1905)

(<http://en.wikipedia.org/wiki/Chassepot>).

(http://en.wikipedia.org/wiki/Bolt_action).

(<http://en.wikipedia.org/wiki/Muzzleloader>) (المترجم).

وقصب السكر وأغذية أخرى. وفي الثالث من ديسمبر بدأنا الزحف باتجاه الشمال والشمال الشرقي. وعلى الرغم من أن طريقنا يمر عبر مستنقعات فإنه ولحسن الحظ لا يعبر غابات. ووصلنا بلدة كامابا (Kamaba) في الخامس من ديسمبر والتقانا الزعيم، الذي أكد لنا أن لا خلاف له معنا، وأنه سبق ورفض الالتحاق بالعرب ضدنا؛ على الرغم من أنه ليس لديه نية في الانضمام إلينا ضد العرب. ولقد افتخر بأنه لم يسبق له قط أن جُرَّ إلى حرب. وبما أنه يعيش في مستنقعات لا متناهية فمن المرجح أن العرب أنفسهم وجدوا أنه من عديم الجدوى أن يحاولوا إرغامه. أهدانا ثوراً رائعاً سبق لفيسمن أن تركه في حوزته لعدة سنوات مضت، لكنه لم يقدم أي هدايا أخرى، ولم يسأل لأي منها. وبعد أسبوع من البقاء هنا وصلت الأنباء إلينا بأن ميشو وجونجو لوتيته يتقدمان للقائنا مما جعل القائد غير مستقر على ما إذا كنا سنلقاهما في بلدة ديوي (Dibui) أو لوسونا (Lusuna). وبعد انتظار طال لبضعة أيام، ثبتنا فيها معسكرنا على بقعة صغيرة من الأرض الجافة ترتفع بمسافة قدم عن مستوى المستنقعات المحيطة، سمعنا أن طابور ميشو يتقدم باتجاه لوسونا. عندها أعلن القائد وسط بهجة الجميع أن البدء سيكون في الغد. ولما وصلنا إلى لوسونا يوم الحادي عشر وجدنا ميشو، الذي سيطر على المدينة عبر هجوم كاسح قبل ثلاثة أيام أو أربعة. أعطانا سكرًا وتبغًا وملحًا كانت بمثابة مواد رفاه لنا بعد ثلاثة أسابيع اقتصر غذاؤنا فيها على لحم الماعز القاسي الذي حصلنا عليه أثناء اشتباكاتنا، مع أرز مطبوخ بمياه المستنقعات النتنة. ومن بين كل المصاعب التي واجهناها خلال حملتنا، أعتمد ويوافقني الآخرون، أن الأسوأ منها كان حرماننا من الملح. وكانت صحة القافلة بأكملها إبان ذلك الوقت ممتازة، على الرغم من أن الماء الذي كان يشربه الجميع تراوح ما بين الأحمر والأخضر والأصفر وحتى الأسود. [124] ودأب ضابط نوبة اليوم والذي كانت المؤخرة بإمرته وبالتحديد قوة إطلاق النار أيضاً، على الوقوف منتصباً بثبات على قدميه لمدة عشر ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة دون غذاء ويعمل في معظم اليوم منغمساً حتى وسطه وأحياناً حتى عنقه في

المستنقعات. ولا أعزو غياب الحمى عن القافلة لشيء غير أثر الضوء، حيث إنه لم تكن هناك أي غابات في الجوار المباشر، ووقعت جميع المستنقعات تحت أشعة الشمس المباشرة.

وجدنا عند لوسونا أن ميشو قد أحضر جونجو لوتيته وبرفقتة من خمسة إلى عشرة آلاف من القوات المساعدة، وبما أنه كان يرافقنا كل من لوبونجو وكولوموني وجويموياسو، فإن عدد معسكرنا في ذلك الوقت قد شارف على 25 ألفاً من الأصليين و400 من النظاميين وستة ضباط بيض. وبعد مرور بضعة أشهر على وصولنا، توفي لوسونا العجوز -أوروسونا كما كان كاميرون يسميه- وكان خليفته رجلاً رقيقاً من طينة مختلفة تماماً. وكانت مسألة أن كلا الطرفين كانا آكلين للحوم البشر، أو أن الجانبين ضمّاً آكلين للحوم البشر في عربتهما، قد شكلت عنصراً مهماً في نجاحنا. وبحسب تعاليم الدين المحمدي [الإسلامي] فإن الجسد الممزق لا يدخل الجنة، حيث يقتصر ذلك على الرجال المكتملين. وعلى ذلك فإنه وبحسب ذلك الاعتقاد، فإن العرب البيض وغيرهم من الأتباع المخلصين للإسلام، وبعد الصدة الأولى، وبدل محاولة تغيير مسار اليوم، أطلقوا عنانهم للهرب بأسرع وقت - لا للحفاظ على حياتهم، بل لخوفهم أثناء سقوطهم من أن تقطع جثثهم إلى نتف. وبغير هذا فإنه وفي المناسبات التي حوصروا فيها، أبرزت الاستماتة في الشجاعة نفسها، والتي تنسب إلى العرب، على أقوى ما تكون.

الفصل السابع

الاشتباكات مع العرب - عودة سيف للهجوم

[127] أنشأ القائد نظاماً جيداً للغاية شعرنا جميعاً بفائدته، وهو أساساً، تزويد كل رجل أبيض، وعلى حساب الدولة، بأكبر عدد من الخدم الصبيان يختارهم ويوظفهم بنفسه. وهم عادة ما يكونون أوغاداً صفاراً متوحشين، أو عبيداً محررين مؤخراً، أو أطفال أسرى حرب، أو هدايا يرسلون إلينا من الزعماء المحليين. وتمثلت مهمتهم في توفير الراحة الشخصية للبيض، مما جعلهم يمتلكون سريعاً قدراً معيناً من التمدن، وثقة مطلقة في الرجل الأبيض. وحين يكونون صفاراً تماماً، يعملون كمترجمين في الأعمال العادية مع الأصليين، وما إن يكبروا ويصبحوا أقوياء بدرجة كافية - وهو ما يترافق مع تغذية جيدة، وهي مسألة بضعة أشهر فقط - حتى يسلموا بنادق، ويُعلمون كيف يمكنهم استخدامها. [127] وبهذا يشكلون ما يشبه الحرس الخاص لأسيادهم عندما يزورون زعماء محليين أصدقاء. وبالتدريج، تشكلت ما بات يسمى بـ «كتيبة الصبيان»، وأصبحت أذكى مجموعة جنود لدينا. وكانت متعتهم الكبرى عندما يكونون خارج الدوام في أن يزاولوا تدريبهم. وعادة ما يكون في عهدة العريف من الصبيان مجموعة من المحليين أو الأسرى للعناية بهم؛ وهم يقومون بتدريبهم لسرورهم بعملهم نفسه، وقد تحوّل العديد منهم بعد ذلك إلى جنود. وتتمثل إحدى الفوائد الكبرى بأولئك الصبيان، أنهم، إن وقعوا في صعوبة ما في أثناء الاشتباك أو اضطروا للتراجع، فإنهم وبشكل ثابت سيتجمعون حول أقرب رجل أبيض، وفكرتهم الوحيدة للأمان هي في تواجدهم بقرب البيض.

وحيث إنه تقرر علينا وجوب أن نحصى القوات المساعدة، لتبين على نحو ما كمية البارود المتوجب علينا أن نعطيها للزعماء المختلفين، تقدمنا للقيام بذلك [128] على الطريقة العربية المعتادة. وهي أن يوضع جلد حيوان بري على الأرض، وإذا ما أريد لعدد القوات جميعاً أن تحصى، فسوف يمشون

عليه واحداً واحداً. وجدنا أن لدى جونجو لوتيته ألقى بندقية؛ وأن لوبونجو والقبائل التي معه يمتلكون ما يزيد على الثلاثة آلاف؛ ولطالما كان جونجو لوتيته ولوبونجو أعداء قديمين؛ فإذا مثل جونجو لوتيته القوة العربية، فإن لوبونجو كان الزعيم الأكبر لقوى السكان الأصليين. وقد أعلن لوبونجو في هذا المنعطف وببرود أنه بات خائفاً من التقدم على أيّ مسافة أخرى؛ وأن شعبه سيهجره إذا ما فعل ذلك، حيث إن الدسنتاريا والجذري منتشران باتجاه اللوالابا، وأنهم جميعاً سيموتون إذا ما تقدموا. وبما أن مسألة تغذية هذا العدد الهائل من البشر يجب أن تخاطب أيضاً، فإن القائد دانيس أرسل لوبونجو ورجاله جميعاً إلى موطنهم، مبدياً أن لدينا قوة ضخمة على نحو كاف بإمرتنا بدونه. كانت هذه بمثابة خدعة ألقت الرعب في قلوب العرب الذين تقدموا إلينا. وبينما كنا عند لوسونا سمعنا بأن دولكومون وفرانكي (Frankie) قد عادا من حملتهما بكاتنجا وأن القائد قد طلب منهما أن يأتيا إليه أو يرسلأ أيّ مساعدة ممكنة. ووصلتنا [129] الأخبار أيضاً بمقتل ليبينز ودوبغون (Debruyne)، وهما ضابطان يمثلان حكومة الدولة الحرة، ومقيمان في بلاط سيف في كاسونجو. ولقد علمنا لاحقاً أنه بعد هزيمة سيف في اللومامي (والتي انتهت بمقتل ابن عمه وعدد من الزعماء المبرزين)، وصلت مجموعة متقدمة من العرب المتراجعين إلى كاسونجو، وأنه وكوسيلة انتقام فردي قتلوا المقيمين الاثنين. وبما أننا لا نملك أي دليل بعكس ذلك، فإن من المرجح أن ذلك قد تم بدون أوامر سيف. فلقد افعل اثنا عشر شخصاً من هؤلاء الناس وقد تسلحوا بالسكاكين المخبأة في ثيابهم ذريعة لزيارة ليبينز في مقر إقامته، والذي رفض أن يخرج لمقابلتهم فأخبروه حينها أن معلومات حول معركة ضخمة قد نقلت إليهم من سيف؛ وعندما سمع ليبينز بذلك خرج وبينما كان يتكلم في الشرفة، طعن على الفور وبدون ضوضاء. وحين دخل بعض القتلة الحجرة المجاورة وجدوا دوبغون يكتب، فقتلوه قبل أن يعرف مصير قائده. وعندما عاد سيف إلى كاسونجو بعد يوم أو يومين لاحقاً،

أعطى أوامره بأن [130] تجمع أجزاء جسد دويغون وتدفن مع ليبينز، الذي لم تقطع جثته فيما عدا اليدين (واللتين أرسلتا إلى سيف وموهارا قائد نيانجوي (Nyangwe) كعلامة. ولحق ذلك حادثة قتل غريبة، إذ إن قائد المجموعة، واسمه كبوارّي (Kabwarri)، قُتل على أيدينا في معركة 26 فبراير وبيده بندقية المارتيني³⁸ السريعة العائدة لليبينز. أما الآخرون - وهم كلهم أبناء زعماء، وبعضهم رجال أنفسهم ذوو مكانة - فقد مات أربعة منهم بالجدرى، وقتل أحدهم في نيانجوي، وواحد في اجتياح كاسونجو، وألقينا القبض على الستة الباقين كأسرى في كاسونجو. وفي أثناء المحاكمة، وفي أحد الأيام وعلى الرغم من كونهم في قيد مشترك، فإنهم تفوقوا على الحارس، وهربوا. غرق أحدهم حين عبوره نهراً؛ وقتل ثلاثة منهم إما في المعركة وإما بالصدفة، بعد شهر أو اثنين من هربهم؛ وألقينا القبض على الاثنين الباقين وشنقناهما؛ وهو ما أورد لي نقطة مثيرة للانتباه. إذ إن بين كل الذين قمت بشنقهم ماتوا جميعاً مختنقين تقريباً وليس عبر دق العنق. فبالمقارنة مع إطلاق النار، يبدو لي أن الشنق هو أقل الإعدامات ألماً، لأن التعيس يموت بدون شعور خلال ثوان، في حين أن الرجل المهدوم بإطلاق النار عليه غالباً ما يحتاج إلى طلقة رحمة، مهما كان وضع فرقة الإطلاق.

ولقد قمت خلال ذلك الوقت برحلات عدة في البلد للبحث عن الطرائد، وأيضاً كوسيلة للتعرف على المنطقة. وما صدمني على نحو أكبر في تلك الحملات هو عثوري على عدد من الجثث المقطعة بكل اتجاه ولأمتيال عدة. بعضها كانت تنقصه الأيدي والأرجل، وبعضها قطعت منها شرائح من الفخذ أو أجزاء أخرى، وأحياناً تمت إزالة أحشاء الرأس منها، وذلك كله كان يتم بحسب ذوق المتوحش الشخصي، وإن اكتشفت لاحقاً أن ذلك يعود إلى الذوق القبلي أكثر من الشخصي. ولم يكن يستثنى الكبير أو الصغير أو النساء أو

38 - بندقية مارتيني - هي بتقييم خلفي ودخلت الميدان عام 1871 (http://en.wikipedia.org/wiki/Martini_rifle) (المترجم).

الأطفال من احتمال استعمالهم كغذاء للمنتصرين عليهم أو لجيرانهم.

ووصلتنا إشاعات كثيرة أن موهارا من النيانجوي يتقدم باتجاهنا. وحدثت [132] عدة إنذارات خاطئة عن هجمات ليلية وكنا سعداء جداً عندما بات واضحاً لنا في التاسع والعشرين من ديسمبر أنه إن زحفنا فإننا سنلتقي العرب صباحاً إلى حد أن جونجولوتيته تقدم بالمرافقة مع القائد على ذلك. وكان دانيس لا يزال غير مصدق، وهكذا راهن بعشر بالات من القماش، آملاً أن يخسر لأن عدم التأكيد والإنذارات الكاذبة كانت تنال من أعصاب قافلنا.

في الخامسة من صباح الثلاثين من ديسمبر، زحفنا، وكان جونجو والألف من بنادقه يستكشفون في مقدمتنا، وبعد ست ساعات ونصف من الزحف المرهق سمعنا طلقات في المقدمة. فهرعنا أنا والقائد، وخرجنا إلى سهل مغطى بحشائش قصيرة في الوقت المناسب لرؤية جونجو ورجاله في حالة فرار كامل من أمام العرب المنتصرين، وهم لا يبعدون أكثر من أربعمائة ياردة من أمامنا. وسرعان ما قدّم ميشو وكتيبته، وأعطى القائد أوامره بالهجوم. وإذ بدأنا طلب مني أن أسحب رجالي، وأن أبقى في الخلف لحراسة النساء والمتاع. وأمرني بأنه وما إن تصل الكتائب الأخرى فعليّ إرسالها بصحبة مدفع الكروب. [133] حينها كان الهوسا قد أطلقوا صرختهم للحرب. وما إن سمعها رجالي من الهوسا برمتهم حتى اندفعوا في القتال، وتركوني بمفردي مع العريف الرئيس. ولأنني اعتليت قمة تل نمل، وعرفني إلى جانبي فإنني كنت في أفضل وضع لرؤية المعركة يمكن لأي رجل أن يرغب فيه. رأيت القائد وميشو يختفيان في الأرض - والسبب في ذلك، الذي لم أعرفه ولم يعرفاه حتى وقعا في الأمر، هو أن المستنقع الذي يمتد لمساحة مائة ياردة تقريباً، امتد بيننا وبين العدو. وكان أكثر الأشياء إثارة للاهتمام أن نرى رجالنا مغمورين حتى رقابهم في الطين والماء وهم يطلقون النار على العرب. وبينما كانوا يتقدمون كان العرب يتراجعون، وإذ رأى جونجو أن الدعم قد وصل، حشد

قواته المتراجعة، وبالتعاون مع قواتنا، طارد العرب عبر السهل وفي معسكرهم المحصن، والذي قامت القوات النظامية لاحقاً باجتياحه. تجمعت قوة كبيرة من العرب على جناحنا الأيسر، لم تتبته لذلك لا قواتنا ولا جونجو. ووسط فزعي رأيت قواتنا تبدأ في مطاردة الجزء الأكبر إلى أرض ذات أشجار واطئة، وتتابع تلك القوات مخفية عن الأنظار [134]. وفجأة كادت قرقة البنادق تتلاشى من الأسماع، وأصبحت هدفاً لأربعمئة أو خمسمئة من العرب الذين باتوا بيني وبين القائد، على مبعدة تقل عن أربعمئة ياردة من تل النمل الذي أقف عليه. والشئ الوحيد الذي فكرت فيه وأنقذني هو أن العرب لا بد من أنهم قد أخطأوا الظن بأن العتاد والنساء اللائي أحطن بي هن بمثابة احتياط. وبعد عشرين دقيقة وصل شيرلينك، وتقدم للالتحاق بالقائد، متبوعاً بسرعة بالنقيب دو فوترز برفقة المدفع. فتبعناه بدورنا وبأكبر سرعة ممكنة ملتفين حول المستنقع. ورأيت في أرض المعركة تلك، الحالة الوحيدة التي وضع فيها أحد السكان الأصليين الحب قبل الخوف أو الخطر. ففي بقعة كان رفاقي قد استولوا عليها للتو، مررت بامرأة جالسة على الأرض بقرب زعيم ميت، تبكي بهدوء وقد وضعت رأسه بحضنها، بينما كان الرصاص يئز حولها، ليخطئها أحياناً ببوصات. وبعد قليل، وبينما كنت أعيد عبور أرض المعركة، تبين لي أنه لم يتبق من الآثار سوى بقع دماء متجمدة هنا وهناك، تشير إلى المكان الذي قطعت فيه ضحايا القتال لتوفير مأدبة في المساء للصامدين المنتصرين. [135] وكان اشمئزانا متخيلاً أكثر مما هو معبر عنه، حيث إننا وجدنا أن معسكر الأتباع والأصدقاء لم يفرقوا في هذا الصدد بين المقتولين أو الجرحى في جانبنا أو جانب العدو. ولقد قتلت إحدى زوجات جونجو لوتيته خلال تقدم المعركة، فقطعت وأكلت على أيدي رجاله أنفسهم، فانتقم منهم باختصار عبر تقديمهم لتشكيل وجبة طعام لرفاقهم. ولقد ألقى القبض على عدد من رجالنا في أثناء النجاحات العربية في بداية اليوم، وعندما تراجع العرب قتلوا بعضاً منهم، وقطعوا أجزاء بعضهم دون قتلهم تاركينهم على الطريق. ولم يكن هذا

أجراءً حكيماً، بحيث إن ذلك لم يجعل شعبنا أرحم في معاملتهم مع مقترفي الجرائم تلك والمتراجعين.

يقع المعسكر العربي الذي استولينا عليه على أرض مرتفعة في قرية كاسونجولواكيلا وحولها. ولأنه كان موقعاً حصيناً، فقد نفعا أيضاً كمقر لنا. وفي المعسكر استولينا على بارود وطلقات وبنادق وذخائر أخرى [136] وعثرنا أيضاً على خيم عربية وممتلكات شخصية، وخيمة من صنع إيديسون (Edison)، والتي من المرجح أنها ربما عادت إلى عضو من حملة هودистер التعيسة الحظ. واكتشفنا من الأسرى وبعض الوثائق التي في المعسكر أن موني بمبي (Muni Pembe) (وهو ابن موهارا) ومحمدي قد قادا العرب. وصعب تقدير خسارتهم، ولكن ربما فاقت المائتين من القتلى. ووصلت خسارتنا إلى ما يقرب من الاثنين والثمانين من القتلى والجرحى.

فرقنا معسكرنا في أول يناير للبحث عن الطعام. اجتاحتنا عاصفة مخيفة، وإذ لم تظهر أي إشارات للتلاشي، اضطررنا لإقامة معسكر على جانب تل. كان كل واحد في حالة يرثى لها وفي وضع عصبي، كان الغذاء شحيحاً، والطبخ مستحيلاً، والأشياء كلها رطبة وباردة. تقدمنا في اليوم التالي وكنا تحت شمس حارقة، ووجدنا أن الحرارة باعثة على السرور بعد برد اليوم والليلة السابقين ورطوبتهما. أدت بنا ساعتان من الزحف للوصول إلى نهر موادي (Mwadi River)، والذي شكّل بتياره السريع ومياهه العميقة بخمسة وعشرين قدماً، عائقاً صعباً لعبور قافلتنا. وبعد ساعات أربع من العمل الشاق نجحنا في إقامة جسر [137]، وعبر كل واحد بسلام، فيما عدا ما يقرب من نصف دزينة من رجال جونجو لوتيته الذين غرقوا. وبعد ساعتين من السير عسكرنا على هضبة تسمى جوويو كابوبا (Goio Kapopa) على ارتفاع ثلاثمائة قدم من السهل المحيط، والتي يمكن لثلاثة مجار من أنهار كبيرة نسبياً أن تشق مداها. وواجهنا إلى الشرق نطاقاً عالياً من التلال.

وفي إحدى الأمسيات، وبينما كنا في المعسكر في جوويو كابوبا قدم بعض المشعوذين من بين رجائنا وقالوا إنهم بمثابة منتدبين للقائد ورجوه كمعروف أن «يصنع طباً»، لإظهار كيف ستكون نتيجة الصراع المتوقع مع العدو. وقالوا إن العرب حاولوا في كل شكل من أشكال التعاويذ التي يعرفونها، ولكن كل وسطائهم الروحيين كانوا خُرساً (كانت الطريقة العربية الأوسع استخداماً، هو أن يقتلوا ماعزاً أو طائراً، ويتظاهر الطبيب - المشعوذ بأنه يستطيع قراءة الطالع من النظر لأحشاء الذبيحة). ولم يطلعوا على تجربة رجل أبيض، وكانوا شديدي الرغبة في أن نستجيب [138] لطلبهم. وأعلن القائد أنه سيتأكد من المقادير في الساعة الثامنة من ذلك المساء، وأخبرهم بأنه أصبح طُبه وبعد الإعداد اللازم، أحمر وهذا مؤشّر بأن القوات العربية ستُسحق في المعركة القادمة، وإن كان أبيض فهذا دليل على أن المعركة ستكون متساوية. ولكن إن كان اللون أخضر فسيوجب تفادي المعركة لشهرين بحيث إن النتيجة باتت غير معروفة. وفي المساء برزت كل روح في معسكرنا وفي معسكرات الأصليين لرؤية ماذا سيحدث، وحتى مستضيفو سيف على التلال المقابلة كانوا يتابعون أيضاً بترقب. كان لدينا بعض صواريخ إشارات، لم تتبقّ منها إلا دزينة صالحة للاستعمال، والتي تركت للاستخدام حين الضرورة القصوى. وعندما أمر القائد بإطلاق ثلاثة من صواريخ الإشارات الحمراء، كانت صرخة الفرع التي ترددت في المعسكر مروّعة تماماً. وحيث إن المشاهدين قد عرفوا بأن الـ «طب» كان أحمر، وثلاث مرات متكررة، تراقصوا حولنا في نوبة فرح عارمة، وطلبوا أن يوزع البارود عليهم لجعل الأمسية ليلة احتفال به. فلقد كان من خصائص أتباع العرب والمحليين [139] تفريغ بنادقهم في كل مناسبة - الفرع أو الحزن، الوصول أو المغادرة - تصلح كمعز لإطلاق النار. وحتى سقوط المطر كان يمكن أن يؤدي إلى فقدان غير مسؤول للبارود، فكان كل رجل يقدم على إطلاق النار، «خوفاً من أن يصبح البارود رطباً». وحين يتوقف المطر وتطلع الشمس، كان يطلق زخة أخرى أيضاً «للتأكد من أن البندقية لم تبتل». وفي تلك المناسبة

الخاصة طلبوا باروداً، وحلت بهم السعادة حين حصلوا على برميلين منه، فجعلوا من تلك الليلة ليلة شنيعة اشتملت على الصياح والرقصات وزخات الرصاص المنتظمة من الأسلحة النارية. وفي المقابل كان هناك صمت أطبق على معسكر الأعداء، الذين لوقمنا بمهاجمتهم لفروا حينها وبكل اتجاه.

وفي الخامس من يناير وصلت إلينا ثلاثمائة أو أربعمائة امرأة ممن تركن عند نهر اللومامي بصحبة أمتعة الجنود الخاصة، وكان هناك فرح عارم في المعسكر، ذلك أن الرجال كانوا يعيشون بدون أغطيتهم الزائدة، وبدون نسائهم للعناية بهم، حتى أصبحوا معتلي الصحة وسيئي التغذية. ولقد أحضرت النسوة من لومامي أيضاً ملاحظة من دولكومون يستجيب بها لطلب [140] القائد بأن يرسل له ضابطاً أبيض واسمه كسار (Cassar)، وبضعة جنود، وكل بنادقه والذخيرة، لكنه اعتذر عن إرسال بقية جنوده. فهم، بحسب قوله، سيتوجب عليهم الاشتباك مرة أخرى في لوسامبو، ولذلك يجب ألا نتوقع رؤيتهم مجدداً لشهرين لاحقين. ولم تأت أي أخبار من حملة فرانكي على الإطلاق. في ذلك المساء رأينا نيران المعسكر على التل المقابل، وسمعنا طبولاً تدق والكثير من الصياح. كان ذلك بمناسبة عودة سيف والأمراء الآخرين للهجوم على الرغم من هزيمته الماحقة في اللومامي. وقرر القائد أن يتركهم يعبرون النهر، أو في كل الأحوال أن يرسوا بجزء كبير من قواتهم على جانبنا قبل مهاجمتهم.

الفصل الثامن

المزيد من الهزائم العربية - القائد يقرر أن يأخذ المبادرة ويقود هجوماً على قوات سيف

[141] في صباح التاسع من يناير، وفي حوالي الساعة السادسة، سمعنا طلقات رصاص خلف معسكرنا. وبعد الاستفسار من جونجو لوتيته، رأى أنه ربما كان بعض أفراد من شعبه قد تشاجروا مع الأصليين. وبعد بضع دقائق، سمعنا بوضوح وابلأً من الرصاص وبما أنه لم يكن ممكناً أن يأتي ذلك من الأصليين، فإن القائد أرسل ميشو ودوفوترز للاستكشاف. وبعد بضع دقائق هرع رجل إلى المعسكر لا يكاد يتنفس، وصرخ وهو ممسك ببندقيته ذات التلقيم الخلفي ونصف دزينة من الطلقات «الرجل الأبيض يتعرض للهجوم ويطلب المساعدة» وسقط غائباً عن الوعي. وعندما تمكن من إعطاء تقرير متماسك عن نفسه، قال [142] إن الرجل الأبيض لا يزال يقاتل، لكن الضغط يتفاقم عليه، لذا أرسل يطلب تعزيزات.

بدأ ميشو ودوفوترز وشيرلينك على الفور بكتائبهم ومجموعة تمثل قوة جونجو لوتيته، وتركونا: أنا والقائد وسيركيل في حالة مروعة من التوتر. وصلنا إلى المعسكر ونحن على أهبة الاستعداد لمواجهة أي هجوم؛ كانت قوة سيف تمسك بمواجهتنا، وبحسب التقرير الذي تسلمناه للتو، فإن موهارا (Mohara) من نيانجوي (Nyangwe) كان يقاتل في مؤخرتنا. أتى هذا الخبر في وقت لا يكاد يمكن تصديقه، وإن كان قد بدا بأنه واقع فعلاً. في وسط النهار بدأ إطلاق النار على بعد بضع مئات من الياردات في معسكرنا وسط الحشائش. وإذا اعتقدنا بأن القتال أوشك على البدء، زحف كسار إلى داخل معسكرنا بكل متاعه جريحاً، لكنه تمكن من تخليص نفسه من المشكلة التي وقع فيها حتى دون رؤية القوة التي أرسلناها لمساعدته. وكانت كلماته الأولى: «أيها القائد» «كدت أوشك على الوقوع في الأسر، ولقد أحرقت الكثير من الطلقات». قال القائد: «آه» «لا تزال حياً، وهذا هو الشيء المهم. أعتقد

أنك فقدت كل المتاع والذخيرة التي كنت قد أحضرتها لنا.» لكن الرجل [143] المقدام لم يفقدها؛ وكان هذا هو ما جرى بحسب الرواية التي قدمها لنا.

كان قد عسكر، في المساء السابق، على بعد ساعتين ونصف زحفاً من مؤخرتنا، وبما أنه لم يكن يشك في شيء، فقد نام جيداً. كان قد أحضر لنا حوالي 50 ألف طلقة من الذخائر، وأربعين بندقية من نوع (chassepot) مربوطة في رزم؛ وتكونت قافلته من 26 من الجنود النظاميين و250 من رجال جونجو لوتيته كحمالين. وبينما كان يغسل جسده في الساعة السادسة إلا ربعاً في الصباح، كان متعجباً من زخة طلقات أطلقت على المعسكر من الأشجار الواطئة المحيطة. ووجد أن الأدغال المحيطة به من كل جانب باتت مليئة بقوات معممة. أعد رجاله على الفور، وبدأ بالرد على النيران. وكسر حمالوه الذين لم يكونوا مسلحين ببنادق التلقيم بفوهة البندقية (muzzleloaders) صناديق الذخيرة، وأخذوا البنادق ذات التلقيم الخلفي واستمروا في إطلاق النار عشوائياً في كل اتجاه، إلا بالاتجاه الضروري. وفي أي حال، فقد كان ذلك الإطلاق العشوائي، كافياً لمنع العرب من اجتياح المعسكر، وكان كسار يهاجم بجنوده في أي نقطة يقترب فيها العدو كثيراً. واستمر ذلك لما يزيد على الأربع ساعات. [144] انسحب العرب، ولسبب لم يعرفه كسار حينها لساعة وعشرين دقيقة. وعرفنا فيما بعد تفسير ذلك كما اكتشفنا لاحقاً، أن موهارا قد أصيب في رجله برصاصة طائشة. خلال ذلك التوقف أنزل كسار خيمته، وأخذ متاعه لكنه جرح وهو في الطريق، فانسحب باتجاهنا. كان الدغل شديد التشابك، وحين تبعه العرب، تمكّن من إيقافهم حتى عبرت قواته بأكملها نهراً عميقاً، صادفه لحسن الحظ في طريقه. وحيث لم تكن هناك من وسيلة لاجتياز النهر إلا عبر شجرة ضخمة منفردة ألقى فيه، لم يجد صعوبة في تجميد حركة العرب حتى يتمكن الجزء الأكبر من قافلته من قطع مسافة جيدة كبعد. وبعدها أسرع خلفهم، ووصل إلى معسكرنا كما وصفت.

وبينما كنا لا نزال نتحدث، بدأ القتال مرة أخرى من الاتجاه نفسه تقريباً حيث سمعناه في الصباح. وفي المساء قدم أحد جنودنا ومعه رأس موهارا، ومذكرة من دو فوترز يقول فيها إنهم قاتلوا الجزء الأكبر من القوات العربية، وهزموها، وقتلوا موهارا وأنه أرسل [145] رأسه للتعرف عليه. وصل جنودنا في الصباح الباكر، حاملين معهم كميات كبيرة من الغذاء، والحمير، ورزمة كبيرة من المراسلات العربية، بالإضافة إلى أسرى وخيم. وبحسب تقرير دو فوترز فقد قالوا إنه بعد السيطرة على المعسكر العربي وجدوا عدداً هائلاً من الجرحى، والكثير من القبور المحفورة حديثاً مما يشهد على قساوة قتال كسار في الصباح. وقال إنه تمكن من تحقيق نجاحه بسبب أن العرب قد أخطأوا حين ظنوا أن قواتنا هي بعثة كانوا يتوقعونها أرسلها سيف وحرسه. وبفعل هذه الغلطة، تركوا قوة دو فوترز تزحف في الوادي المليء بالمستنقعات والذي كان يحمي أحد جوانبهم، وتستولي على أرض مرتفعة حيث كان المعسكر قائماً، دون تحرش. وما إن اجتازوا المستنقعات، حتى أصبحوا في منطقة مرتفعة الحشائش وفيها حقول الكساد³⁹، مما أخفى الهوية الحقيقية لهم عن العدو حتى تمكنوا من تشكيل طابور وكشفوا الغطاء على بعد مائة ياردة من أقرب خط عربي. وعلى الرغم من أن العرب قد رأوا وصول [146] أناسنا فإنهم وبحسب كل النوايا والأغراض كانوا متفاجئين. ولحسن حظنا، فقد قتل موهارا، الذي جرح في الصباح، لدى بدء القتال، وخسارة الزعيم، تنشر الفزع وسط الصفوف، وهو أمر معتاد إلا لدى الجنود الأوروبيين.

كان أقرب نهر إلى الشرق منا هو نهر اللوفوبو (Lufubu). وبعد نجاحاتنا في اليوم التاسع من الشهر، قرر القائد أن ليس هناك من سبب

39 - Cassada، نبات يستخدم جذره عموماً لصناعة الخبز ولكن يقال إن عصيره حين لا يزال نيئاً يكون خبيث السم

(المترجم) (<http://ftp.columbia.edu/itc/mealac/pritchett/00generallinks/kerr/vol02chap05.html>)

يمنعنا من مهاجمة قوات سيف، التي لا تزال أمامنا. وعلى ذلك أرسل ميشو في اليوم الحادي عشر برفقة كتيبته لتوفير الحماية لشعب لوتيته، الذين أمروا ببناء جسر على اللوفوبو. ولقد قاموا بإنجاز ذلك في ثلاث ساعات، في نقطة كان عرض النهر فيها أربعين ياردة فقط وبعمق عشرة أقدام. وعندما أنجز الجسر عبره ميشو، وبعد مسيرة ساعتين وجد نفسه على ضفاف كييانجو (Kipango) على بعد أقل من ميل من معسكر سيف والذي استقر على ارتفاع ثلاثة أرباع الميل من النهر. وحين اكتشف العدو أن قواتنا باتت قريبة جداً، نزل أفرادُه بقوة لمنع أناسنا من عبور نهر [147] الكييانجو. وبدا ذلك طبيعياً عندما ساورتهم الظنون بما اعتقدوا بأننا نتوي القيام به. وحدث اشتباك حاد عبر النهر. وكانت حرب الكلمات أشد وقعاً حتى من بنادقنا. قاد محمدي وسيف العرب، والذين كانوا يسخرون من شعب لوتيته ويعيبونهم، قائلين إنهم في حالة يرثى لها، وإن من الأفضل لهم أن يفروا من الرجل الأبيض الذي يجهل أمر أن موهارا وكل قواته من النيانجوي معسكرون في مؤخرتنا. رد شعب لوتيته: «نحن نعرف كل شيء عن موهارا، لقد أكلناه أول أمس». لم تكن أخبار هزيمة موهارا حتى ذلك الحين قد وصلت إلى سيف، حيث كان معسكرنا يفصل بينهما، وكان موهارا قد هزم وقتل قبل أن تتصل الأخبار بين الجيوش العربية.

تراجع ميشو، تاركاً شعب لوتيته، مخفياً وسط الغابة ومجهولاً من العدو، لبناء جسر على النهر في موقع أعلى. عبرنا اللوفوبو في اليوم الثاني عشر، وحين وصلنا كييانجو وجدنا أن الجسر الذي أقامه حلفاؤنا قد جُرَّ بعيداً. وكانت ثلاث ساعات من العمل الدؤوب قد مكنتنا من بناء جسر آخر، قوي بشكل كاف [148] لتحمل مرور النظاميين من جنودنا والمتاع، بالنظر إلى أن جزءاً من قوة لوتيته كان قد عبر النهر قبل أن يكتمل بناء الجسر. ولقد نجح

الجزء الأكبر من قواته المتبقية من العبور عبر تسلق الأشجار التي على الضفة والتمرجح عبر النباتات المتسلقة. وعلى الرغم من أنه وفي بعض المواقع، كانت الفروع متشابكة، فإننا شهدنا بعضاً من أكثر المناظر إثارة للربح في القلوب. فتحن الذين كنا نعمل أسفل النهر، رأينا الكثير من رؤوس أو أذرع أو سيقان وسط فيضان يغلي ويجري كمسار طاحونة أمامنا. ولم يكن من الممكن بذل المساعدة. وما كان لدى رجالنا سوى القليل من خيارات المرور، وقد غرق أحدهم وسحبه التيار. وإذا مالت الشمس للغروب عبرت قواتنا، وبعد أربعين دقيقة من الزحف هجمنا على المعسكر العربي، لنفاجأ بأنه قد أخلي. أمضينا ليلة كاسفة، حيث لم يتمكن حمالو المتاع والتموين من التعرف على المعسكر في الظلام. وبحسب بعض المعلومات التي تطوع بها بعض الأسرى في اليوم التالي، بدا أن سيفاً كان مشوّشاً، فلقد قتلت إحدى زوجاته المفضلات في أثناء الاشتباك على ضفة النهر مع ميشو، [149] برصاصة طائشة بينما كانت جالسة معه في الخيمة على بعد ميل من مشهد المعركة. وبعدها بفترة قصيرة انسحب ميشو، وأكد رسول له ما كان حلفاؤنا قد أخبروه به أساساً أن موهارا قد قتل وأن قواته قد تبعثرت.

ارتفع التل الذي كان العرب قد أقاموا معسكرهم عليه، والذي نحتله حالياً، بشكل مفاجئ من وسط السهل، وشكل هضبة بمساحة ميل ونصف مربع، تحيط به ومن كل اتجاه منحدرات حادة مغطاة بالحشائش المنتصبة. ولا يمكن لموقع دفاعي أن يكون أفضل من هذا. ولو كان سيف قد دافع عن موقعه، لشككت في أننا كنا سنستطيع السيطرة عليه أبداً. لكنه كان لا يزال متألماً بعد ما ألم به على الطريق إلى اللومامي، وكان قد جزع كثيراً إزاء مقتل موهارا، الذي عُرف بأنه أعظم المقاتلين في غرب بحيرة تانجانيقا. وكان ينتشر في البلاد عن موهارا قوله: «لم أخسر أي معركة قذتها شخصياً، وإنني

أفضل أن أموت في الميدان على أن أذهب إلى البيت بعد أن أكون قد خسرتها». لا يمكن للمرء إلا أن يعجب بصائد العبيد العظيم هذا، والذي [150] فضّل، وبعد سنوات من النصر، أن يموت على أن يغادر مشهد أول هزائمه.

في العشرين من يناير، أقام القائد معسكراً، مقترحاً في الليلة السابقة بأن نلقي نظرة على اللوالابا حتى نتأكد من القول بأننا قد رأيناه بعد أن حصلنا على معلومات مؤكدة بأن القوات العربية بمجملها قد تراجعت إلى الضفة اليمنى من النهر. كانت قافلتنا محملة بأغذية كثيرة، وكل من ادعى معرفة بالامر اتفق على أن بيننا وبين النهر هناك صحراء وسيكون من المستحيل تغذية القافلة لما يزيد على يوم أو يومين. ولأن مرضاً انتشر في هذا المعسكر كناية عن مفص معوي وحمى خفيفة والذي عزوته لموقعنا المكشوف وسط السهل. كانت الليالي شديدة البرودة بحيث تهبط الحرارة من مائة درجة إلى 50 درجة على الرغم من أننا لا نرتفع إلا لثلاثمائة قدم عن السهل المحيط.

وعلى الرغم من هذا، فإن قافلتنا كانت في حالة احتفال واسع، لأننا بتنا في مقاطعة الملح، حيث تقع عدة مستنقعات مالحة على بعد مسيرة ساعة. وتمتد هذه المستنقعات المالحة [151] من اللوفوبو غرباً، إلى اللوالابا شرقاً. ويموّن الملح من هذه المقاطعة البلاد بمجملها من تانجانيقا إلى كاساي. ولقد زرت، من بين ما زرت، حفرة ملح مثيرة للاستطلاع في قاع سرداب مظلم وضيق مثلث الشكل. وخلال هذا المستنقع، كان الماء الأسود المالح الحار ينبعث في فقاعات من الأرض على مجمل السطح، ومع ذلك يتخلله في أسفل الوسط جدول من الماء البارد النقي، والذي رفع مجراه بأيدي الأصليين لكيلا يقلل الماء العذب من ملوحة الماء الآخر.

وبدا نسران على القمة كما لو أنهما قد حنّتا؛ كان كل شيء مالحاً وساكناً؛ وحتى الرجال لم يكونوا يتحدثون إلا همساً. ووسط السكون أزلت فجأة

نصف دزينة من الرصاص، وامتلاً الجانب الآخر من التخم على الفور بالعرب تقريباً. وفي لحظة امتلاً المكان بأكثر الجلبات صخباً كان كل واحد يصيح ويطلق النار. ولاحظت أنه حتى أحد التسرين قد أطلق صيحة. وكانت الأصدااء هائلة، وتزايدت وضاعفت من الفوضى. وعندما أخلينا التخم جلست وأخلدت للراحة. وامتلاً المكان كله برائحة [152] الكبريت، وارتفعت سحب الدخان، مستعدة بوابات جهنم. وقال أحد رجالي، وهو زنجي أميركي من ليبيريا، والذي كان يقطع بهدوء إحدى الأيدي من إحدى الجثث كوسيلة لانتزاع أساور، «أعتقد أنه لم يرتفع غبار مثل ما ارتفع اليوم منذ أيام الخلق». عندها ناديت بالانسحاب وتردد صدى النداء لما يزيد على الدقيقتين وغادرت بعدها.

الفصل التاسع

قوات الدولة تعسكر قبالة مدينة نيانجوي على الجهة الأخرى من نهر لوالابا - وصف شعب المياه - مواجهة مفاجئة مع رتلين متقدمين من العرب

[153] في وسط النهار من يوم 21 يناير 1893، وبالقدوم من حزام الغابات الكثيف، رأينا نيانجوي (Nyangwe) تتبسط أمامنا. وامتد بينها وبيننا سهل بعرض ميلين ونهر اللوالابا والذي كنا نعرف أنه يمتد بعرض ألف ياردة؛ وكان الجو جلياً إلى حد أننا شعرنا بأننا على مبعده مدى بندقية من المدينة. ولم تكد تمر دقائق على وجودنا حتى بدأنا نتبين عبر مناظيرنا اضطراباً هائلاً في شوارع نيانجوي. وكان واضحاً أننا قد اكتشفنا. أوقف القائد قواتنا حتى تأخذ القطعات المختلفة مواقعها. في هذه اللحظة، هبت زوبعة. [154] ولكن بما أن الطابور قد شكّل فإننا قدّمنا قواتنا، وما إن نزلنا من المرتفعات حتى منعت الأعشاب الطويلة والتي غطت السهل أي فرد من الرؤية لمدى يزيد على عشر ياردات أو خمس عشرة ياردة إلى الأمام. وحين بتنا تقريباً قبالة جنوب نيانجوي، على بعد أقل من ميل ونصف من ضفة النهر وإن بدا حينها أن المسافة أقرب اعتلينا هضبة صغيرة مدورة من الأرض ترتفع عنوة من المستنقع شبه الجاف والذي كنا نزحف وسطه. ومن هذا المكان رأينا طابوراً طويلاً من الرجال يتقدم تجاهنا خلال الأعشاب، لا يبعد أكثر من نصف ميل عنا. وأقمنا على الفور خطأً دفاعياً، وأمر القائد كتيبتيّن بأن توقفا التقدم المفترض للعدو. ولما كنا على مقربة من سماع الهتافات، اكتشف أنهم كانوا سرية من قوة لوتيته ضلّت الطريق، ووسط تفاجئهم العظيم، اصطدموا باللوالابا، قبالة المدينة تماماً. وأدت زخعة أو اثنتي أطلقتا عليهم من الضفة المقابلة من النهر إلى أن يفروا باتجاهنا بأسرع ما تعينهم أرجلهم. وأوشك هذا التهور من جانبهم أن يكلفهم [155] غالياً، ولولا أنهم لم يكونوا في انتظام واضح، لكننا على نحو التأكيد قد قصفناهم قبل أن نعرف هويتهم. توقفنا عند ذلك المرتفع وعليه،

والذي لم يرتفع أعلى جزء منه إلا ببوصات قليلة عن المستنقعات المحيطة؛ ولمدة خمسة أسابيع أو ستة، كانت بعض قواتنا تعبر المستنقع يومياً، وفي الأيام الأخيرة اضطرت للسباحة في جزء من الطريق حيث الاتجاه نحو ضفاف اللوالابا. قبالة الجزء الأهم من المدينة، كانت تقع جزيرة بطول ثلاثة أرباع الميل، وقد حصّنها العرب تحصيناً منيعاً. وكنا نستغرق وقتاً طويلاً كل صباح لإسكات الخنادق التي تطل على موقعنا المفضل على ضفاف النهر لإزعاج المدينة نفسها. وخلال التبادل اليومي للكمائنات كانت تقع بعض حوادث مثيرة. تمثّلت إحدى الحيل المفضلة للزعماء العرب أن يطلبوا دقائق من الهدوء للتحدث إلى أحد الضباط البيض. وفي عدة مرات يخرج ضابط للمحاوره - معتقداً بحسن نية العدو - وبينما تمتد المحاوره مع الزعيم، وبينما يكون الضابط مكشوفاً تماماً، كان يحدث أن يتعرض وبدون سابق إنذار [156] لوابل من النيران تطلقه في آن دزينة أو اثنتين من الرجال. وكان مثيراً لنا أن نرى كيف استفاد حلفاء العرب بسبب البنادق ذات التعبئة من الفوهة، من الاتجاه الآخر للنهر، وكانت طلقاتهم تتشكل من قطع من النحاس بطول بوصة واحدة وقطر بحوالي نصف بوصة تقريباً. ولقد أفزعت تلك الطلقات رجالنا في البداية وإلى حد كبير، لأن السلاح الناري المستخدم (musket)⁴⁰ لم يكن بندقية (rifle) حديثة، ولأن الطلقات التي كانت تصل إلى جانبنا على النهر كانت تحط وسط جلبه شنيعة. وكانت تلك الزخات القادمة من الجزيرة والتي لا تبعد إلا أربعمائة ياردة ذات فعل مؤثر للغاية؛ وكان بعضها والذي يطلق من المدينة نفسها يقع بيننا، وإن كانت النقطة الأقرب عبر النهر لا تقل عن تسعمائة ياردة بعداً.

كان قطيع كبير من الماشية والذي كان يمكننا رؤيته، يوفر لنا في بعض

40 - سلاح ناري يطلق من على الكتف لكنه ليس ببندقية من النوع الحديث. تنذف الطلقات من

ماسورة ناعمة لا تحقق دوراناً حين الإطلاق لضمان عدم انحرافها من محور طيرانها باتجاه

الهدف (<http://en.wikipedia.org/wiki/Musket>)

(المترجم) (http://en.wikipedia.org/wiki/Smooth_bore)

الأحيان فرصة لممارسة الرياضة. وفي أحد المرات حين اقتيد القطيع إلى الأسفل تجاه النهر للري (وحيث كان الرعاة غير واعين لكوننا في الأسفل مستقلين وسط القصب تجاههم)، قتلنا وجرحنا عدداً منها. وهاج القطيع، وبدأ أن ضيقه قد ازداد حينها من قادته، الذين كانوا يردون على نيراننا من الخنادق [157] التي في الجوار. فلقد ارتد عليهم، وفي دقائق معدودة أخلوا الخنادق. وكان الجنود، الذين يلتفتون إلى الخلف ويطلقون النار على الحيوانات الهائجة، يُفَرِّقون بسرعة بوابل أو اثنين من رصاصنا. لكننا كنا نرى بعد بضع ساعات من ذلك أن القطيع يركض إثر البؤساء الخائفين وسط طرقات المدينة.

وكم سيكون أداؤنا أفضل خلال الحصار لو توافر لدينا بارود بدون دخان. فإذا كانت الحال على ما هي عليه، فإن الجنود العرب سرعان ما يقبعون في خنادقهم لدى رؤيتهم لأول نفثة دخان، وبالتالي، يتفادون أن يصابوا. وقام هداونا بإضرام نيران كبيرة في الحشائش خلفهم، وإذا قاموا بإطلاق النيران أمام الدخان الغليظ، حسّنا من فرص تعمية طلاقنا.

خلال تلك الفترة بمجملها، كان الوجينيا (Waginia)، وهم شعب الماء، الذين كانوا يقومون بمحمل النقل على النهر، زواراً منتظمين لمسكرنا. والوجينيا هم وبكل المعايير شعب مميز. فهم وعلى الرغم من أنهم كلهم أحرار ولا يمتلكون عبيداً، فإن معظم خصائصهم، كان متناقضاً على نحو مثير. فهم لا يمشون أبداً [158] إلا أن كل من قابلت منهم، وهم شعب المياه على ما هم عليه، كانوا سباحين سيئين. وكل النقل البحري الذي كانوا يقومون به والمواصلات التي يقدمونها بأعلى النهر وأسفله، لنا وللغرب، كان يتم دون مقابل عدا تقديم الطعام لهم في أثناء العمل. وكانت قراهم تتكوّن من الأعشاب، وتتغير يومياً تقريباً. وكل الوجينيا يعرفون بعضهم بعضاً. وإن أراد أيّ منهم قارباً، فإنه يأخذ أي قارب يعثر عليه بالصدفة، ليعيده لاحقاً، ربما، بعد أشهر. وكانت هذه القوارب تُتحت من جذوع الأشجار، ويمكنها أن تحمل

من واحد إلى خمسين رجلاً؛ وعلى الرغم من أن الوجينيا يستخدمونها دائماً، فإنه ليس بمقدورهم صناعتها بأنفسهم، بل يشترونها من شعب قصار القامة في الغابات لقاء السمك والفخار. وهم لا يقاتلون أبداً، وإن برزت إشارة لأي اضطراب في مقاطعة بجوارهم، يتجهون إلى أسفل النهر على بعد مائة أو مائتي ميل، ويهربون خلال ساعة لمسافات لا يستطيع أحد ملاحقتهم بها. وهم يحضرون لنا بانتظام معلومات عن أعمال العرب (وبالطبع كنا ندفع لهم لقاءها)، ليزهّبوا من عندنا مباشرة إلى المدينة، ويخبروا العرب بكل شيء عنا. [159] وعلى الرغم من أننا كنا نعرف ذلك، ونعيّرهم بولائهم المزدوج، فإنهم لم يكونوا يعيرون ذلك أي اهتمام.

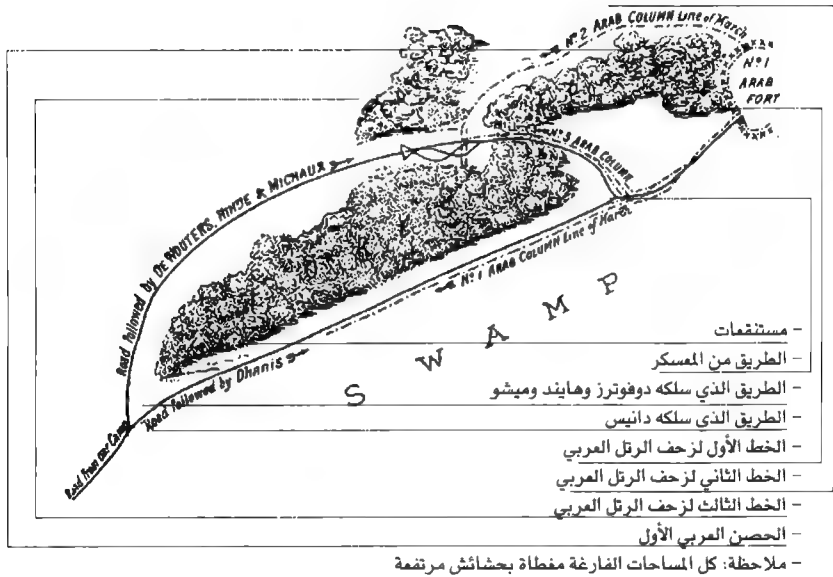
بعد بقائنا في المعسكر، أمر القائد لوتيته ببناء قارب نهري صغير، ليضاف إلى قارب أكبر كان قادماً إلينا على الطريق من لوسامبو، وبواسطة هذين القارين كنا نود أن نحصل على قوارب من الجانب الآخر للنهر. ولكن، في أيّ حال، فإن القارب الأكبر كان قد ضاع في أثناء عبور نهر اللوفوبو. وفي المقابل فإن القارب الصغير وحين أنهى منه كان لا يكفي إلا لحمل ستة رجال. وقبل أن نبني قارباً آخر، كانت الظروف قد تغيرت على نحو كبير إلى حدّ أننا لم نعد نحتاج إلى أي منهما. أنفذ القائد لوتيته وشعبه للقتال بالشمال، مع أوامر لهم بالعودة خلال أسبوعين. غادر لوتيته، تاركاً خلفه مائتين من البنادق ذات التعبئة من الفوهة وحملتّها من الرجال، لحراسة خمسة آلاف امرأة من اللائي تركهن في معسكره. بعد رحيل القائد بوقت قصير، التقاه الوجينيا الذين كانوا يتجسسون حول المعسكر، وأخبروه أثناء المقابلة أن التموينات باتت شحيحة في نيانجوي. وفي خلال المحادثة [160] سألوا عن وقت عودة لوتيته، فردّ القائد بأنه يتوقع له أن يعود في خلال أسبوعين أو أكثر. وأضاف أن ذلك سيكون فرصة عظيمة للعرب أن يهاجموه حينها، واقترح أنه يتوجب عليهم أن يخبروا سيقاً بهذه الفرصة قائلاً: «أبلغوه تحياتي» قال دانيس «وقولوا له

إنني سمعت بأنه جائع، وها أنا أرسل إليه نصف دزينة من الطيور. وكما ترون فإن لدينا الكثير منها. وعندما نأكل الطعام الموجود كله في هذا الجانب من النهر، سنعبر إلى الجانب الآخر.» وأعطاهم آخر نصف دزينة من الطيور وجدت في معسكرنا. وفي أي حال، فقد بدا أن الوجيهين قد نقلوا هذه المحادثة بإخلاص إلى الجانب الآخر من النهر، وكان لها الأثر المطلوب. فبعد أيام قليلة تلت، سمعنا بأن العرب قد عبروا النهر، على بعد مسيرة ساعتين أسفل منا. ولقد تعاملنا مع تلك المعلومة بالازدراء الذي تستحقه الإشاعات في أفريقيا عادة. إلا أنه وفي اليوم التالي، قدم إلينا عبد هارب وقال إنه قد أحضر عبر النهر على يد سيده، وانشغل في اليومين الماضيين في بناء بومات⁴¹ [161] وقال إن سكان نيانجوي الأحرار كلهم والقوات العربية العادية سيسنون هجومًا علينا في خلال يوم أو يومين. في تلك الليلة وبينما كان ثمانية من رجالنا يحضرون ماءً من نبع يبعد مائتي ياردة من المعسكر، أخذوا بعيداً على أيدي مجموعة استكشاف عربية. وحيث بدا أن المؤامرة قد أخذت تتراءى، فقد بات كل واحد على أهبة الاستعداد. وباقترب منتصف الليل حدث صخب هائل: فلقد فرت النساء من معسكر لوتيته واجتحن زاوية معسكرنا حيث كانت تقع طوابير ميشو. تخلصنا منهن بصعوبة بالغة، ولكن وبأقل من ساعة، أصبن بالذعر، عند انطلاق عفوي لبندقية، ومرة أخرى نشرن الفوضى في كل أرجاء معسكرنا. جعلناهن ينبطحن أرضاً ووضعنا عليهن حرساً بأوامر لإطلاق النار على أي ممن تنتصب واقفة. وفي أي حال، فإن أمراً من هذا لم يحدث خلال الليل؛ وحيث إن العرب، وعلى عكس عاداتهم لم يهاجموا عند الفجر، فإن القائد قرر أخذ المبادرة. سُلِّمنا أنا ودوفوترز حرس المقدمة، وبمعيّتنا مدفع كروب؛ وترك المعسكر بقيادة ضابطين ونصف الرجال. [162] وبعد زحف استمر ثلاثة أرباع الساعة افترق الطريق: كان الفرع اليمين يؤدي بحسبما قال لنا الأدلاء إلى البومات العربية؛ وبما أننا أخذنا الاتجاه اليسار، وبحسبما

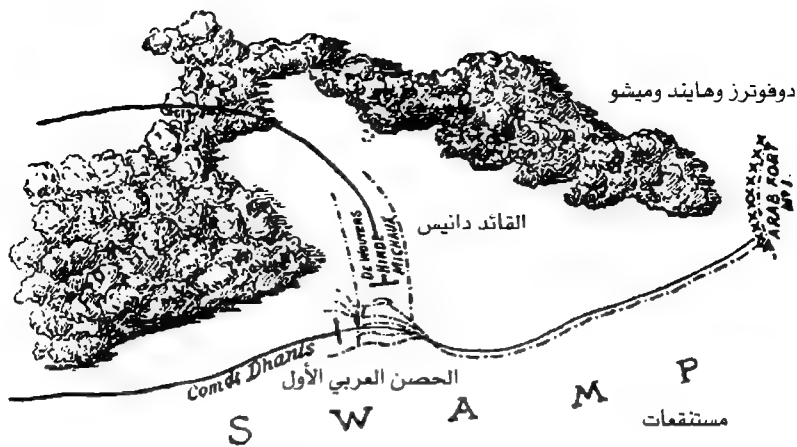
41 - جمع بومة (boma) وهي تحصين خشبي (المترجم).

أوضح الأدلاء، فإن ذلك سيؤدي بنا إلى أن نأخذ القوات العربية من المؤخرة. وامتد إلى اليمين منا قطاع من الغابة يفصلنا عن الطريق الآخر. وحين سمعنا همهمة عند هذه النقطة، التي بدت كأنها قدر كبير من الرجال في جوارنا المباشر، ركبنا مدفع الكروب وتقدمنا. وقبل مرور وقت طويل سمعنا إطلاق نار على مؤخرة جناحنا الأيمن. وبعد مشاورة، توصلنا إلى الاستنتاج بأنه لا بد من أنه القائد، الذي سلك الطريق المباشر للتحصينات بهدف مهاجمتها في المقدمة، والذي كان يتوجب أن يكون قد لحق بنا في نصف ساعة. وبما أن الوقت بات متأخراً للالتفاف خلفاً، فإننا تقدمنا بضعف السرعة، آمليْن أن نصل في الوقت المناسب لمهاجمة القوات قبل أن يحقق القائد اختراقاً. ولشدة استغرابنا، ولدى وصولنا إلى ما بدا أنه طريق مسدود في أرض مفتوحة - تتسع بمدى أربعمئة ياردة وتحيط بها الغابة من ثلاث جهات - استقبلنا [163] بزخات نار على جناحينا وفي المقدمة في الوقت عينه. فلقد دخلنا وسط طابورين من العرب المتقدمين، الذين حين شعروا بوصولنا أو حين نبهوا بواسطة كشافتهم، شكلوا نظاماً مفتوحاً، وأقاموا قطاعات من الرجال في الغابة وفي كل جانب من الطريق الذي كنا نعبه. وكانت تلك الزخات الأولى، التي أطلقت من مسافة ثلاثين ياردة إلى مائة ياردة من خطوطنا، قد أدت إلى إصابات بينهم أكثر مما أحدثت بيننا، حيث مرّت الرصاصات فوق رؤوسنا. ويصعب تخيل كيف تمكن دو فوترز من الهروب في هذه المناسبة وفي مناسبات أخرى: فطولُه يبلغ ستة أقدام وخمس بوصات، وغالباً ما يرتدي اللون الأبيض، فكان العلامة بين كل الآخرين للرماة العرب. وفي هذه المرة هجمت مجموعة من العرب على طابورنا بيني وبين دو فوترز - بهدف الاستيلاء على كيرونجو أو «مالك الحزين»، كما كان يطلق عليه بين رجالنا والعدو. وكانت الأوامر هي الاستيلاء على «مالك الحزين» حياً أو ميتاً، وأن تستخدم المدي، بما أن طلاقات النيران لم تكن كافية ضد تعاويذ سحره. ولقد كنت محظوظاً في أن أوقف هذا الهجوم قبل أن يحقق هدفه. [164] ولقد انكسر الطابور العربي الأسر وهرب

بعد حوالي ساعة من القتال. بعدها استدرنا أنا ودوفوترز لمهاجمة الطابور الأيمن، والذي كان الأقوى. وما إن أكملنا الحركة، حتى سعدنا لاكتشاف أن ميشو كان على جناحنا الأيمن، وقد قدم على جناح السرعة عند سماعه لإطلاق النار بالمقدمة. وكان من دواعي حظنا أنه قرر اتخاذ هذا النهج، بدلاً من العودة لاكتشاف سبب الإطلاق، الذي سبق أن لاحظته في المؤخرة. وهكذا كان الوضع:



كانت الأعشاب بارترفاع اثني عشر قدماً على وجه التحديد، وقد جعلت من هجومنا هجوماً أشعث وغير نظامي على أكثر ما يكون. [165] ولكن، في أي حال، كان هذا، ذا نتائج محدودة، بحيث انكسر العرب وترجعوا. وقاد دو فوترز، بسبب عدم الانتظام على الأرض، وإذا اضطرب الأمر عليه وسط الدخان، قاد الجناح الأيسر عابراً إلى الجناح الأيمن، حيث هاجم هو وميشو بضعة أفراد من العدو، الذين تموضعوا في الغابة. تابعت الجزء الأكبر، ووجدت نفسي فجأة في مؤخرة العدو، واقفاً وسط حزام من الغابة. وإذا شنت هجوماً، وجدت أن الطريق الوحيد خلال ذلك الحزام كان عبر طريق لا يزيد عرضه على خمسة أقدام. ولم يكن الإحساس بالمرور خلال هذا البقعة الخفيفة النباتات، بينما كان العدو يطلق النار من الأسفل على الأرض، ومن أعالي الأشجار وبكل الاتجاهات، باعثاً على السرور أبداً. هناك اتحدت مرة أخرى مع دو فوترز وميشو، اللذين لم يعثرا على عربي في الغابة: حيث إنهما وبعد الفشل في إيقافي، قد أدركا أنهما سيكونان واقعين بين نارين إن بقيا. وما إن جمعنا قدراً معيناً من الرجال حتى هاجمنا مرة أخرى [166] الجسم الأكبر من العدو، مندهشين من مقاومتهم العنيدة؛ لأن من السهل بشكل عام أن تجعل مجموعة من الرجال متحركة ما إن تكون قد بدأت في الانسحاب. خلال هذا الجزء من الاشتباك هوجم جناحنا الأيمن. وقد حافظ العدو على نار ثابتة ودائمة بشكل جيد، والتي اقتربت وإن بدت تتقدم على جبهتنا بانحراف.



حينها تراجع الجزء الأكبر الذي كنا نهاجمه في المقدمة، واستمر إطلاقنا على القوات المتقدمة على الجناح الأيمن. في تلك اللحظة سمعنا طبلًا، والذي عرفنا أنه صوت حلفائنا، فأوقفنا إطلاق النار فوراً. [يشكل الرسم الظاهر أعلاه ما حدث.] [167] سلك القائد الطريق الآخر، واشتبك فوراً مع العدو، وتمكن القائد من إرغامه على التراجع بعد قليل من القتال الشرس. ولقد طردنا العدو، وسط محاولتنا للنفاذ خلال حزام الغابة، أمامنا باتجاه طابور القائد الذي أوقف تقدمهم، وتقدمنا بدورنا بزاوية قائمة. وعندما تفرقت القوات العربية، تركنا نطلق النار كل منا على الآخر، وسط أعشاب طويلة للغاية ولم تكن أعدادنا كثيرة. ولحسن الحظ، لم يقتل إلا رجل واحد وجرح ثلاثة أو أربعة بسبب هذه الحادثة البغيضة. وكان نافخو أبواقنا، في كلا الجانبين، ينفخون أبواقهم بحسب أفضل قدراتهم، لكنهم لم يكونوا ليُسمَعوا لأكثر من عشرين ياردة وسط معمعان المعركة، في حين أن الطبول كانت تسمع أفضل من أي شيء آخر. وما إن تمكنا من جمع عدد كبير من الرجال في تنظيم

جيد، حتى أخذنا بمتابعة العرب المتراجعين، واتجهنا صوب حصنهم المتقدم، والذي اجتحناه بعد دقيقتين ولكن بجهد بالغ. ولقد بدا أن العرب، لم يجدوا وقتاً كافياً للتجمع مجدداً، بعد هزيمتهم في الخلاء، وهكذا سقطت قواتهم بسرعة. وبما أنهم بدأوا في إعادة التشكل على السهل [168] بين الحصنين واللوالبا، فإننا تقدمنا مرة أخرى ضدهم، وتراجعوا مرة أخرى إلى ضفة النهر. بعد ساعة ونصف من السير من الحصنين، يخلي اللوفوبو نفسه في اللوالبا، وهو يتسع هنا لمسافة مائة ياردة، وبعمق كبير جداً. ولقد تجمع العدو في جماعات متراسة في تلك الزاوية التي تشكلت باتصال النهرين. ولدى وصولنا حدث شيء بث الرعب في خطوط العدو المعاد تشكيلها؛ وبينما كان سيف وميسيريرا (Miserera) يعبران اللوفوبو (مائلين كل القوارب الصغيرة بأعوانهما)، فإن جمهرة العسكر بدأت بالمثلثات في محاولة للعبور في آن، ولقد غرق الكثير منهم.

في هذا الوقت يمكننا الادعاء بأننا وبدون قصد فاجأنا القوات العربية. فلقد بدا أنهم تركوا حصونهم في الوقت عينه الذي غادرنا فيه معسكرنا، بغرض مهاجمتنا في المعسكر من ثلاث جهات. ولقد أريد للطواوير الثلاثة، التي سلكت ثلاثة طرق، أن تصل في الوقت نفسه؛ على أن اثنين منهما، وبالنظر إلى حالة الأرض السيئة، فقد اضطرا للسير، كل منهما، على بعد مائتي ياردة عن الآخر، في اللحظة نفسها التي زحفنا أنا ودوفوترز بينهما.

الفصل العاشر

رواية سقوط نيانجوي

[169] عرض الواجينيا علينا أن يعطونا قواربهم، إن كنا مستعدين، في المقابل، أن نوفر لهم الحماية عبر الحصون العربية على الجزر أسفل النهر. لقد كان الأثر الذي تركناه فيهم بانتصارنا كبيراً للغاية إلى حد أنهم كانوا واثقين من نتيجة هجومنا على نيانجوي، وكانوا أيضاً على استعداد لإعارتنا قواربهم لعبور النهر. وكان أملهم في ذلك، أنه إذا نجحنا، أن يقوموا بقدر من النهب في المدينة؛ ومن ناحية أخرى، أنه إذا فشلنا، أن يجمعوا قدراً جيداً من النهب في معسكرنا. أرسل القائد شيرلينك وسيركيل أسفل ضفة النهر، وبعد اشتباك ذكي أو اثنين، نجحنا في الوصول إلى موقع إنزالنا قبالة المعسكر بصحبة مائة قارب كبير.

في الثالث من مارس، وصلتنا رسائل وتوجيهات في غاية الإثارة من المفتش فيفيه (Fivé) وآخرين [170] فلم نسمع أي شيء عما كان جارياً خارج عالمنا الصغير لأشهر. لقد أرسل إلينا المفتش أخباراً طيبة أيضاً، ونقلت توجيهاته لنا أنه أمر القائد تشاليان أوف باسوكو (Chalian of Basoko) لتشكيل صلة معنا، وأن يحضر معه مدفعية وتموينات. كما قال إن القائد جيليان (Gillian)، سيلتحق بنا بأسرع ما يكون وبكل الرجال المتاحين من مقاطعات سانكوري كاساي. ولقد أمل من أنه، وهذه القوات مصطفة ضد العدو، فإن العدو لن يستطيع أن يقاوم لفترة طويلة. ولدى مناقشة الأمر من جوانبه، برزت لنا أنه لربما يقوم تشالتان (Chaltin)⁴² بالاستيلاء على نيانجوي بالزحف على الضفة اليمنى للنهر. تملكنا هذه الفكرة، فهرعنا جميعاً لتناول الطعام للتأكد مما إذا كان العلم العربي لا يزال يخفق في سماء نيانجوي. كان ذلك بمثابة خيبة أمل أنه وبعد كل المشاق والمصاعب، سيأتي شخص آخر ويحظى بشرف الاستيلاء على نيانجوي. تعلقنا هذه الفكرة، بحسب اعتقادي،

42 - وردت تشالتان ولربما المقصود تشاليان أوف باسوكو. أنظر ما سبق (المترجم).

كثيراً بقرار القائد دانيس للهجوم فوراً على المدينة بعد ساعة من حصولنا على القوارب، مما جعل الأمر ممكناً.

خلال صباح الرابع من مارس، أقمنا معسكراً وانتظمنا فوراً على ضفة النهر. بدأت القوارب تمتلئ بالجنود، وكان لكل ضابط أبيض ثلاثين إلى أربعين رجلاً بإمرته. لقد كان منظرًا عظيمًا أن ترى مائة من القوارب، تشق سطح الماء هابطة بانتظام أسفل الماء تجاه المدينة المنكوبة. ولقد نجحنا في الإنزال وفي الاستيلاء على الجزء الأكبر من المدينة، ولم نكن قد أطلقنا طلقة واحدة. وبحلول العاشرة من مساء ذلك اليوم كنا قد حصنا أنفسنا في الجزء الأعلى من المدينة. وانسحب الوجينيا فور إنزالنا وظلوا حتى تأكد لهم نجاحنا فوافقوا على الاستمرار في نقل أتباع المعسكر من النساء والمتاع والأصدقاء. لقد تموضعنا في موقع لم نكن تماماً نحسد عليه، فلم نكن نسيطر على أي جزء من الضفة المعادية من اللوالابا، وخلفنا نهر عظيم، وبدون أي وسائل للتراجع، ودون إمكانية للحصول على تعزيزات أو تجهيزات جديدة من الذخيرة، أرسل ألبرت فريز في اليوم التالي بمعية مفرزة وبعض شعب لوتيته لمهاجمة المعسكر الذي [172] شكله موني بيمبي (Muni Pemb) والذي كان مفترضاً أن اثنين من أطفال هودистер كانوا سجناء فيه على بعد مسير بضع ساعات من نيانجوي. وبعد الزحف طوال الليل وسط عاصفة، نجحت الحملة في إحضار طفلي هودистер، وحريم موني بيمبي، وكميات كبيرة من البارود، والأسلحة، وغنائم أخرى. وصل مبعوث من سيف في كاسونجو، في الوقت عينه، بعروض للسلام. وردّد دانيس أنه لا يمكن له أن يقدم أي شروط في أي حال، حتى يعاد إلينا اثنان من أطفال لوتيته، واللذان يحتجزهما سيف كرهينتين، وبعدها سينظر القائد فيما يمكن عمله. وكان المبعوث، وهو الخادم الخاص للبيبنز، والذي أصبح ومنذ وفاة سيده عبداً عربياً؛ لم يكن خائفاً من العودة إلى سيف، وبعد مساء لته، قال بسداجة: «سأكذب عليه إن كان ذلك ضرورياً، حتى

يرسلني إلى هنا في مهمة أخرى، وبعدها لن أعود إليه.» وهذا ما حدث فعلياً لاحقاً. جاء أصليون ذوو أشكال رائعة يقدمون خضوعهم للقائد. وكثير منهم كانوا رجالاً عرّفوا أنفسهم بأنهم جنود عرب [173] مهزومون، وكثير منهم كانوا زعماء بأتباع عديدين، لكنهم جميعاً كانت لديهم قصة واحدة جاهزة: «أنهم سيلقون بأسلحتهم، وسيكونون أتباعاً للرجل الأبيض.»

في التاسع من مارس، اكتشف أن نيانجوي قد اجتاحت على أيدي رجال مسلحين. ولقد كنت أتجول في بعض الحقائق عندما قابلت مئات من الناس متجمعين معاً. توتر رجالنا، واحتشدوا حولنا. وفجأة بدا كما لو أن المدينة بأسرها قد استيقظت في الوقت نفسه، وألقي القبض على بعض رجالنا وقتلوا على أيدي المسلمين [وردت المحمديين]. أرسل القائد إلى لوتيته وأخبره أن هناك خيانة في المدينة. تخيل لوتيته، الذي كان معسكراً خارج الجزء الجنوبي منها، أنه لا بد من أن العرب قد وصلوا من الجانب الشمالي؛ ولذلك سار متبعاً ضفة النهر متجهاً شمالاً حتى وصل إلى خارج المدينة، وعندما بدأ إطلاق منظم للنار من الداخل قدم عبر المدينة باتجاه مقرنا، والتف مغافلاً المسلمين من الخلف. وعندما بدأ الهجوم، قاتل كل رجل، أبيض أو أسود، حيثما استقام. ولقد كان ذلك مفاجئاً إلى حد أنه لم تكن هناك [174] أي خطة عمل، وتوجب أن تمر ساعتان قبل أن نعرف بأي اتجاه كانت المعركة تسير. بعدها، وفي توافق متصل، بدا أن جماهير العدو بدأت تتكسر. واصلوا القتال في نقاط منفصلة فقط في الميادين، أو دافعوا عن البيوت المنفردة في أجزاء المدينة المختلفة. وبعد ساعة أو اثنتين من المرور بالشوارع، والاشتباك أحياناً بمعارك صغيرة، نُظِّفَت المدينة. كانت خسائرنا عظيمة، لكنها كادت تكون أكبر، والعديد من إصاباتنا أو إصابات قوات لوتيته سببت بإطلاق النار العشوائي على بعض من رجالنا أنفسهم. أشعلت النار في المدينة في مواقع عدة، وأحرقت مئات المنازل في الليل. وفي اليوم التالي أرسلت القوة بمجمعتها بتعليمات لدفن الموتى،

أو بالأحرى إلقائهم في النهر، حيث تعذر التعامل معهم بطريقة أخرى. لكن الأمور سُهلت لنا، في أيّ حال، حيث إنه لم يتم العثور إلا على بضعة مئات من الرؤوس بحيث أخذت كل الجثث كطعام. وأمر القائد عندها أن يحرق الجزء الأكبر مما تبقى من المدينة، [175] لأنه كان من الصعب لقوة صغيرة أن تبقى عدداً هائلاً من المباني تخضع للسيطرة، كما أننا كنا حذرين لئلا تنفجر موجة ثانية من الخيانة. يمكن القول بأن هذه كانت الوقفة الأخيرة لجيش موهارا، حيث إن القليل ممن هربوا لم يكونوا منظمين. ولم نر أي شيء من لوتيته، ولقد علمت منه لاحقاً، في أثناء الحديث عن الموضوع، أنه خلال تلك الأوقات لم يفادر مقره؛ لقد كانت المناظر في معسكره مريعة إلى حدّ أنه حتى هولم يضع نفسه في موقع المراقب لها دون داع. قال لنا إن كل واحد من آكلي لحوم البشر قد حصل على جثة واحدة على الأقل ليأكلها. ولقد طبخ اللحم كله وجفف بالتدخين، وشكل تمويناً لمجمل قواته ولكل أتباع المعسكر لأيام بعدها. واختفى ضارب طبل متطوع معنا، ولأيام، وكنا اعتقدنا بأنه قتل. وبعد يوم أو يومين اكتشف ميتاً في كوخ بقرب جثة جرى استهلاك نصفها - وكان من الواضح أنه أطعم نفسه بالكثير، ومات بالتخمة.

[176] وبدأ الآن أسوأ وقت عرفناه في أثناء الحملة. فلقد انتشر نوع من الإنفلونزا الفتاك في معسكرنا. كانت هناك ثلاثون حالة في اليوم الأول، وبعدها في اليوم التالي كان هناك ما يقرب من سبعين، وقبل أن ينتهي الأسبوع خرّ رجالنا كلهم تقريباً ومن تبقى بصحة جيدة كان عليه الواجب مضاعفاً، بحيث استمر القيام بالحراسة، فضلاً عن رعاية المرضى. وأمضيت وقتي في الأسبوعين اللاحقين في التنقل بين مجمل جنابات المعسكر، والإصرار على الأحياء أن يدفنوا الموتى. فلقد كان الجزء الغالب من الموتى أو المشارفين على الموت يُرمى بأيدي سكّنة الأكواخ خارجها في الشوارع المفتوحة. في هذا الوقت أيضاً، بدأ العرب وأصدقاؤهم بإرسال حالات الجدري في المنطقة إلى

من تبقى من المدينة. ونجحت الحيلة، وتلا الإنفلونزا انتشار وباء الجدري. وحول تفجر حالات الجدري خلال الحملة بمجملها كانت هناك حقائق مثيرة. فلقد كان الهوسا كلهم فيما عدا حالة واحدة مطعمين، ولم يصب سوى هذا الرجل في الكتيبة، ومات به. وفي كتيبة إلmina (Elmina) لم يكن هناك سوى رجلين غير مطعمين، وأصيبا بالجدري، ومات أحدهما به. [177] وفيما يخص حمّالينا من الكونغو الأدنى لم يكن إلا عدد قليل قد سبقت أصابته بالمرض، وبعضهم فقط جرى تطعيمهم. وبين هذه المجموعة المكونة من مائتي رجل أصيب ما يزيد عن ثلثيهم بالجدري، وحدثت بينهم خمس وستون حالة وفاة. وكانت حالات الوفاة من الجدري والإنفلونزا بين شعب لوتيته والأصدقاء الآخرين مروّعة. ويعزى الكثير منها بسهولة إلى أنه وعلى الرغم من التعليمات المشدّدة بالعكس، فبعد اليوم الثالث من الحمى، وعندما يشعرون بأنهم أفضل حالاً، فإنهم يصرون على الاستحمام. لقد تعلم المسلمون والمانييما المحليون (Manyema) أن يتلقّحوا ضد الجدري. وعلى الرغم من أن التلقيح قد أرسل إليّ من أوروبا، برزم بمختلف الطرق، فإنني لم ألّق ولا في حالة واحدة وليتطور اللقاح لنهايته. ولقد كان ذلك من سوء الطالع، لأنه لو كانت لدينا حالة نجاح واحدة فقط، لتمكنا من تطعيم مجمل السكان.

الفصل الحادي عشر

وصول سفراء من سيف بعروض للسلام - القائد يؤخر زحفه على كاسونجو - إعادة تعزيز قوات الدولة الحرة - الزحف على كاسونجو: سقوطها - وصف أصناف الرفاه التي عثر عليها في المدينة - بقايا من أمين باشا - التمرد في مدينة نيانجوي المنتزعة

[178] بينما كنا في هذا المأزق أرسل سيف إلينا سفراء من كاسونجو، وأحضروا معهم ابن لوتيته وابنته، اللذين استبقاهم العرب كرهائن، وقدم عروضاً للسلام. وبعد الكثير من النقاش، وافق القائد بالأيام على كاسونجو لخمسـة أيام، شرط أن يرسل له سيف كل حاجات ليبينز بما فيها خدمه الذين جرى استعبادهم. وخلال خمسـة أيام عاد السفراء للظهور وبمعيتهم كل ما جرت المطالبة به، ومنح القائد كاسونجو [179] خمسـة أيام أخرى من التأجيل، شرط حمل كل العاج الذي أخذ من ليبينز إلينا. والتزموا بذلك أيضاً، وأحضروا معهم هدية بما يقارب الثلاثين ناباً من العاج المُبهر، متضرّعين إلينا أن ننتظر أربعة أيام أو خمسـة. أقر القائد توقفاً واستمع لتضرعاتهم، مبدئاً ملاحظات عارضة أحياناً أنه ربما أراد سيف أن ينجز تحصينات كاسونجو. وقال إنه، ليس لديه اعتراض على ذلك، لأنه يرغب في أن يعلم جنوده كيفية الاستيلاء على بلدة جيدة التحصين. ولقد كان ذلك مسلماً على نحو كبير، بحيث إنه وخلال فترة استمرار المفاوضات، لم يكن لدينا أكثر من ثلاثين أو أربعين جندياً موجوداً بين أيدينا. وكان أوماري (Omari)، وهو جندي قديم لستانلي، السفير الأساس في هذه المسألة؛ ولقد أصر طوال تلك الأيام على أنه يحب الرجل الأبيض وأنه ينوي أن يلقي بحظه معنا، على أنه حين أزف القتال مرة أخرى، انحاز لأعدائنا. تلقينا رسائل في الثالث والعشرين من مارس مرة أخرى تكرر بأن المفتش فيفه قد أمر معسكر باسوكو، ومدافع وخمسـة مائة رجل على الأقل [180]، بالزحف لدعمنا (وهو ما يؤكد ما سمعناه على الجانب الآخر من النهر)؛ وتبيّن الرسالة أيضاً أن القائد جيليا قادم لدعمنا بتعزيزات من لوسامبو، ويتوقع وصوله بعد يوم أو يومين من الرسالة.

أتحنا الفرصة ليوم أو يومين أفريقيين، والذي يعني عادة أسبوعين على الأقل ولم نبتعد كثيراً، لأنه حتى وإن وصل القائد جيليا في يوم الخامس من أبريل، فإن قافلته بمجملها لن تصل قبل يوم الثالث عشر منه، مما أعطى الفرص لأناسنا أن يتعافوا مما ألم بهم من مرض. في الرابع عشر من أبريل كنا على أهبة الاستعداد وبروح عالية، وبمعيّتنا كميات كبيرة من الذخيرة والدعم مما جعل كل واحد يشعر بأن أياماً أفضل تُخبأ لنا. في اليوم السابع عشر أعطى القائد دانيس الأوامر بالزحف باتجاه كاسونجو، تاركين دو فوترز بمعية رقيب أبيض وخمسين رجلاً بإمرة نيانجوي، والتي تقلصت في خلال ستة أسابيع قصيرة من مدينة بنيت بشكل ممتاز يقطنها ثلاثون ألفاً من السكان إلى بيت كبير محصّن يحيط به الجنود. شكّل [181] القائد جيليا والملازم دوغم (Doorme) برجالهما الحرس المتقدم؛ وكنت أنا والقائد دانيس والملازم شيرلينك في القسم الرئيسي، وقام الرقيب سيركيل على المؤخرة. زحفنا ببطء، ولم يتأت لنا أن نرى منظر كاسونجو إلا في صباح اليوم الثاني والعشرين. كان القائد كما هي العادة حينما تكون هناك مهمة للإنجاز قد ترك القسم الأساس وأصبح في المقدمة بمراحل، حينما وقع تحت هجمات مناوشات سيف، والتي طاردها. في الوقت عينه هاجم دوغم حصن سعيد بن عدي (Said-ben-a-Badi's). حمى هذا الحصن نهاية المدينة من حيث دخلنا، وبالكثير من حسن الحظ جرى الهجوم الأول الذي شنّه دوغم، على الرغم من أن رجاله لم يشتبكوا قطّ مع قوّات عربية من قبل. تابع بعدها الحامية المتراجعة عبر المدينة. بنيت كاسونجو في واد وعلى منحدرات التل على جانبي الوادي. عبر دوغم في هجومه الوادي، وظهر في الجانب المقابل من التل في الوقت نفسه الذي تم فيه نشر قواتنا. ولقد أربك ذلك حسابات المدافعين: فلولهة الأولى، وبالنظر إلى كوننا قد ضللنا طريقنا، وصلنا بطريق ملتوية [182] بدل الطريق المستقيمة، وحططنا على كل دفاعاتهم بالمؤخرة. وبعد عشر دقائق من بدء القتال، ظهر دوغم على القسم الآخر من المدينة،

ونتيجة ذلك سقط العدو بين نارين. وبينما كنا نتقدم في متاهة الشوارع كان العرب خلفنا يتراجعون بانتظام، تعترض حركاتهم أعداد كبيرة من العبيد غير المسلحين وحشود من النساء والأطفال. وبعد فترة قصيرة أصيب الجمع من غير المسلحين بالهلع، ولدى محاولتهم الهروب نشروا المزيد من الفوضى بين صفوف العرب. لم نعطهم الفرصة لينظموا صفوفهم مجدداً، وخلال ساعة ونصف بنتنا سادة كل النقاط الرئيسة والأمكنة المحصنة الأساسية في المدينة. وقام أتباعنا من القوات المساعدة وأتباع معسكرنا، وقد تحمسوا للوضع، وقد أصبحوا شجعاناً للغاية، بمتابعة العرب المنسحبين في الأرض الخلاء - وهم يعلمون جيداً أن ليس هناك أسهل من إبقاء قوة منسحبة مستمرة في التراجع. وبالتراجع، تزايد الهلع أكثر، وغرقت أعداد هائلة وسط محاولتها عبور الأنهار التي تصادفها في طريقها. ولقد دفعت مجموعة كبيرة من الرجال على يد لوتيته [183] في اللوالبا، على بعد مسافة ثلاث ساعات. وهناك حُوصروا؛ وقام الوجينيا متظاهرين بأنهم سيعبرون بهم إلى الجانب الآخر من النهر، إما بنقلهم كأسرى وإما بالقائهم من أسطح القوارب، وهكذا أبيدت القوة بكاملها، فيما عدا النساء والأطفال، الذين عانى الكثيرون منهم أيضاً.

وبعد ما تم بعد الهجوم خلال المدينة سرعان ما انفصلت الكتائب المختلفة، لكن القائد ومعه أربعة رجال، لم ينفصلوا عن بقية القوة بأكملها، وإنما أيضاً عن كتيبته نفسها. وبينما كان يحاول البحث عن رجاله كاد يصاب من برج المراقبة العائد لأحد أفضل البيوت في المدينة والذي كان من المفترض أن يكون خالياً؛ وعندما اقترب من الجدار الذي فيه فتحات للرمي بالرصاص لم يكذب يتفادى محاولة قتله. وفي أي حال، فلقد استسلم الموقع بعد أن قدمت وبصحبتي دزينة من الرجال. وكان قد ألقى القبض للتو على خمسة من البيض العرب كأسرى، وأحدهم كما اعتقد كان تاجراً كبيراً في زنجبار، واسمه سعيد بن خلفان.

كانت كاسونجو مدينة أفضل كثيراً حتى من نيانجوي عاصمة العبيد العظيمة والقديمة. فحين حصار نيانجوي، التي كان الاستيلاء عليها متوقفاً بكثير أو بقليل [184] وجد السكان متسعين من الوقت لحمل كل نفائسهم، وحتى الأثاث، إلى أماكن آمنة. في كاسونجو، في أي حال، كان الوضع مختلفاً. فلقد هاجمنا المدينة بشكل مفاجئ إلى حد أن كل شيء قد ترك في موقعه. وجدت قواتنا كلها تجهيزات جديدة، وحتى الجنود العاديون ناموا على حشايا من الحرير والساتان، على سرر مزخرفة بالحفر، وبشباك بعوض من الحرير. ولقد كانت الحجرة التي استوليت عليها بطول 80 قدماً وعرض 15 قدماً، وبباب يؤدي إلى حديقة برتقال، وبعدها يتراعى منظر على مدى خمسة أميال. وكان من الصعب التصور عند الاستيقاظ صباحاً أنك في وسط أفريقيا، لكن نظرة على ثقب الرصاص على الأبواب ومصاريع النوافذ، ولطخة حمراء غامقة على الحائط، تعيدك سريعاً إلى الواقع. نجد هنا الكثير من أساليب رفاه الأوروبيين، التي نسينا استعمالاتها طويلاً: الشموع، والسكر، وعلب الكبريت، والفضة والأقداح الزجاجية والدواقر: كلها كانت موجودة بوفرة. ولقد استولينا أيضاً على 25 طناً من العاج، وعلى عشرة أطنان إلى أحد عشر طناً من البارود، وعلى الملايين من الفتيل وعلى رصاص صنع لكل نوع من أنواع البنادق والمدافع والمسدسات على الإطلاق؛ وكانت هناك قتابل، وعلم ألماني، أخذه العرب في شرق أفريقيا الألمانية. [185] وكانت مخازن الحبوب في كل أنحاء المدينة ملاء بكميات هائلة من الأرز والقهوة والذرة الصفراء والأغذية الأخرى. وكانت الحدائق فخمة ومزروعة بشكل جيد: كان البرتقال الحلو والحمض، والجوافة والرمال والأناناس والموز كله متوافراً في كل منعطف.

وكانت أولى الزيارات التي قمنا بها والتي كانت محزنة أيضاً إلى البيت الذي أقام فيه ليبينز ودوبغون، أخوانا المسكينان من الضباط، واللذان عملا أحياناً كسفيرين في بلاط سيف. والغريب (على الرغم من أنهما قد قتلا

وقطعاً)، أنهما قد دفنا مقابل باب البيت الخارجي، وقد أقيم ضريح صغير مرتب عليهما من قبل قتلتهما. وعند إخراج رفاتهما من القبر، وبالنظر إلى طبيعة التربة التي دفنا فيها، فإنهما لم يتحللا. وقد أعدنا دفنهما بكل مظاهر الشرف العسكري.

أحضر رجالنا من ضمن الغنائم الأخرى من البنادق التي تعبأ من المؤخرة والمضاعفة أنواعاً من ذات العشرة ثنوب (ten-bore double breechloaders) والعشرين ثقباً والاثني عشر ثقباً وخمس عشرة بندقية وينتشرت سريعة الطلقات، وعدداً مماثلاً من الوينتشتستر العادية. وعثروا على دزينات من المارتيني- [186] والسريعة - وعلى عدد لا يحصى من البنادق/ المدافع ذات الغطاء، وعلى ثلاثين أو أربعين ساعة يد وسلاسل من فضة، وذهب ونيكل؛ وعلى عدة من بقايا أمين باشا، بما فيها مذكراته بين يناير وأكتوبر 1892، وعلى وسامين - التاج الملكي لبروسيا (Crown Royal of Prussia) وفرانسيوز جوزيف من النمسا. وحتى أسرانا العرب قالوا إن أمين باشا كان أكثر الناس وداعة، ورأوه في أفريقيا. وقالوا إنه، وبحسب رواياتهم، لم يكن هناك أي سبب لقتله عدا قرار القيام بمذبحة عامة للرجل الأبيض، وأنه صدف أن دخل منطقة قتل فيها كل الرجال البيض، فشاركهم مآلهم.

وتكوّن قطيع الحيوانات الذي عثرنا عليه في كاسونجو من ثلاثة أنسال منفصلة: قطيع النوع الهندي - وهو بسنام كبير، ومستأنس للغاية - يدر أفضل الحليب، وإن كان الأكل هو المطلوب، فإن النوع البرتغالي المهجن ذا النوع الطويل القرون كان هو الأفضل. ولم أتمكن من اكتشاف من أين أتى النوع الثالث (weedy medium sized cattle) وهو نوع يعيش على الأعشاب أو متوسط الحجم بارتفاع الأعشاب ويكون أبيض اللون أو مبقعاً، وليس جيداً للتسمين أو الأكل أو لإدرار الحليب. كما أخذنا نسلين جيدين من الحمير - [187] الحمار السوري الأبيض الضخم، والنوع المهجن بين هذا النوع والحمار

الصغير، والذي يشابه في مظهره حمار الفاكهاني المتجول في هذه المنطقة. ولم يظهر الحمار السوري على الرغم من كونه حيواناً جيداً، وفيما عدا استثناء واحداً أو استثناءين، أنه مفيد مثله مثل أي من النوعين الآخرين. وكان الهجين بين النوع العادي والحمار السوري قوياً للغاية، وعلى الرغم من أنه غالباً ما يكون حروناً، فإن من المؤكد أنه من الحيوانات الأكثر فائدة التي رأيتها في حياتي وسط نوعية الحمير. وكان العرب عندما يهربون، يقومون بإطلاق النار على الكثير من أفضل حميرهم وبعض القطعان، لمنعها من الوقوع في أيدينا حية.

حرصت في أثناء بقائي في كاسونجو على التعرف على البلاد المحيطة، ولقد كنت مدهوشاً باستمرار من العمل الرائع الذي أنجزه العرب في الجوار. فلقد بنيت كاسونجو في زاوية غابة عذراء، وتمت إزالة كل الأشجار المقطوعة وغالبية الأشجار لأميال عدة. أما بعض الأشجار، مثل شجرة القطن البري الهائلة، فقد تركت على مسافات منتظمة، ربما كان ذلك كعلامات طريق أو للظل الذي كانت توفره، وهو ما لم يتضح لي. نمت في الغابة المزالة محاصيل [188] رائعة من قصب السكر والأرز والذرة الصفراء والفواكه؛ ولإعطاء فكرة عن مدى الفرس الذي تم فيمكن تخيله من واقعة أنني قد سرت راكباً في حقل أرز واحد لساعة ونصف. ولما كان يجري تجميع الناس لإقامة قرى في تلك البلاد، كانت تلك القرى تصبح مكتفية بعد مرور ثلاثة أشهر أو أربعة. كان الأرز يغلّ محصولين أو ثلاثة محاصيل بين زراعته في أكتوبر وبداية فصل الجفاف في مايو؛ وكان يمكن استهلاك الذرة الصفراء بعد ستة أسابيع أو سبعة، من زراعتها. ولقد أبعدت الطرائد من الجوار بالطبع - فيما عدا اللوالبا حيث كنت أذهب في حملات صغيرة إلى الصيد. كان يمكن صيد كل الطيور المائية والطرائد الصغيرة على ضفاف النهر بكميات - وبأعداد كبيرة خلال الفصل المطير؛ على الرغم من أنه في الكونغو الأسفل، كاساي (Kasai)، والأنهار الأخرى كان فصل الصيد الأفضل هو فصل الجفاف (من

مايو إلى أكتوبر) ، عندما تكون الضفاف الرملية مكشوفة، وتكون المستنقعات والجدول بالداخل قد نشفت. وعلى اللوالبا، في أي حال، وحين يكون النهر واطئاً، فلا يكاد يرى المرء في يوم طويل من التجديف على القارب بطة برية أو بطة (duck or goose)، ولن ترى الطائر الخواض أبداً. أما أفراس النهر، فيندرج وجودها لمئات الأمثال في أعلى الكاسونج وأسطله، [189] وتكون شريرة، تهاجم باستمرار دون أن تستثار إما القوارب وإما الناس الذين يقتربون منها. ويخاف الأصلليون من الأفراس هنا إلى حد كبير يصعب معه الحصول على طاقم للاقترب من قطع؛ ولن تكفي الآمال بالحصول على أكثر الكميات اللامحدودة من اللحم، حتى على الرجال الذين شهدوا رحلات صيد ناجحة. وكنت على الطريق من كاسونجو إلى نيانجوي، متوجهاً لزيارة دو فوترز - وهو ما اعتدت القيام به كلما سنحت الظروف لذلك - حين اصطدت أكبر فرس نهر رأيته في حياتي. لقد كان لمراً أقدامه الأربع في الأفق وعلى بعد خمسين ياردة من القارب، وبدلاً من بث الطمأنينة في الطاقم، فقد أخافتهم إلى حد أنهم قفزوا جميعاً من السطح وسبحوا حتى الشاطئ. ولحسن الحظ، كان لدي ثلاثة جنود أو أربعة، ومن خلالهم تمكنت من إردائه أرضاً. وبلغ ارتفاع أسنانه المعوجة، مقاساً بمسطرة محدبة اثنتين وثلاثين بوصة، في حين أن ارتفاع إحدى أسنانه السفلية المستقيمة بلغ ثماني عشرة ونصف بوصة وكان قياس الآخر وكان مكسوراً أقل من ذلك قليلاً.

[190] وأفضل الطرق لقتل الفرس هو الدنومنه بالقارب بأقرب ما يكون مباشرة بعد إصابته. وبالتزود بقصبة نهر طويلة نسبياً وفي المياه العميقة، يمكن الاقتراب منه دون خطر، وبإيجاد حبل لربطه وهو لا يزال يصارع. وما لا يعرف عن فرس النهر أن سيقانه القصيرة وأرجله الصغيرة، بالمقارنة مع ضخامة جسمه الهائلة تجعل منه سباحاً غير ماهر؛ وفي الحقيقة أنه لا يستطيع أن يسبح إلا بإبقاء رأسه فوق سطح الماء حتى يتنفس أو ينظر نواحيه.

وتتمثل طريقته في التقدم بالنظر إلى حقيقة أنه يحتل ماء بوزن يقل عن وزنه، هو أن يركض إلى القاع. وأذكر أنني رأيت قطعاً من الأفراس تحاول أن تجد طريقاً في الماء في جدول بعمق عشر قامات: وكم كانت مضحكة رؤية القفزات والتفجرات الحادثة عندما تطفو على السطح بعد كل غوصة - والتي كان قضي الجزء الأكبر منها من أجل ملامسة القاع - دون أن تتقدم إلى ما يزيد على الأربع ياردات أو الخمس في الوقت كله.

وحدث في تلك المرة خلال زيارة نيانجوي في يوليو 1893 أن وجدت دو فوترز متموضعاً بشكل سيئ [191]. ففي داخل المدينة أقامت مجموعة صغيرة من الزعماء والأتباع العرب، الذين استسلموا وأقسموا على الولاء لنا. ولقد سبب، من بين هؤلاء، وغدً يائس تبقى الكثير من المشاكل لدو فوترز. فبعد أعمال عديدة من التمرد والخيانات الصغيرة، تصاعدت الأوضاع إلى أن اكتشف المخلصون لدو فوترز مؤامرة رتبها علي لإبادة الحامية كلها في المستنقع والأعشاب الطويلة على بعد مائة ياردة من منزل دو فوترز. لقد نوى علي أن يضع رجاله - الذين يعدون من ثلاثمائة إلى أربعمائة في المدينة - قريباً من الحامية ومخفيين في الأعشاب، ورغب حين يصيح إنذار ما إن يفري دو فوترز وبعض رجاله نحو الشرك؛ ولقد عرف عن دو فوترز طريقته الحيوية في النظر في كل مسألة بنفسه. وعند سماعه عن الخطة، أرسل دو فوترز مترجمه سليمان منفرداً إلى معسكر علي، الذي يقع في نهاية المستنقع السابق ذكره. وتمثلت مهمة سليمان في أن يبحث في المسألة، وأن يضغط على علي بواسطتها، بتوقع أنه إذا عرف علي بأن خطته قد اكتشفت، سيكون خائفاً [192] من تنفيذها. وما إن بدأ سليمان حتى ندم دو فوترز على إرساله منفرداً. وخوفاً من أن يحدث علي بأن يكون سليمان هو العالم الوحيد بخطته، فيقتله على الفور، قام دو فوترز بإرسال عريف بصحبة خمسة وعشرين من الهوسا في العشب خلفه. وحيث نشر الهوسا الأمر فيما بينهم بلغتهم (والتي لا

تعرفها حتى نساؤهم) انسلوا بين الأعشاب في مواقع عدة من المدينة، واختفوا وسطها تماماً، ليلتحقوا بالعريف واحداً واحداً في المستنقع، الذي تمكنوا من أن يقتربوا من معسكر علي، ودون أن ينكشفوا، لمسافة خمس وعشرين ياردة. وفي الوقت نفسه اقترب سليمان، الذي اصطحب معه صبيه فقط، من المعسكر عبر الطريق الرئيسي. وعندما اقترب سليمان لمسافة خمسين ياردة من المعسكر، صاح به علي أن يبقى حيثما هو وألا يدخل معسكره؛ وإن كانت لديه رسالة ليسلمها فسيقدم إليه علي بنفسه. وبعدها، وبدون أي إنذار أمر علي رجاله بإطلاق زخة رصاص على سليمان، الذي كان من الغريب ألا يصاب بأي أذى، على الرغم من مقتل صبيه. فهم الهوسا على الفور الوضع، وهاجموا المعسكر [193] وأطلقوا زخات من الرصاص على مؤخرة قوة علي، الذين كانوا يتحركون لإلقاء القبض على سليمان. ولقد أوجد ذلك إرباكاً كبيراً وسطهم مكن الهوسا من الثبات في مواقعهم مسلحين بحراهم الطويلة حتى وصل دو فوترز وبقيه القوة - وكانوا قد سمعوا إطلاق النار - وأرغم قوات علي على التراجع إلى اللوالابا. وتمكن علي نفسه وبعض رجاله من السباحة عبر النهر وبالتالي من الهرب. ثم بعد ذلك تمكن من لم مجموعة جديدة من الرجال، وهاجم قوة من أناسنا، ولكن ألقى القبض عليه، وأعدم بعد محاكمة عسكرية في الميدان.

الفصل الثاني عشر

استقرار قوات الدولة الحرة في كاسونجو خراقات المواطنين، عاداتهم وطريقة عيشهم

[194] عندما بدأنا في تنظيم البلد بعد استقرارنا في كاسونجو، وجدنا أن من الأفضل أن نستعين بأولئك الأصليين وعبيد العرب الذين يمكنهم تعليم الآخرين. وهكذا وضع كل البنائين وصانعي القرميد والمزارعين والنجارين وصانعي السلاح والحدادين الذين عُثِرَ عليهم بين السجناء وضعوا كمسؤولين عن الرجال النابهين بين المساجين وأولئك المتطوعين من القبائل المحلية، ووضعوا للعمل، بهدف تشكيل مستوطنات، عندما يحين الوقت، في المقاطعات المناسبة لتلك الصناعات. بل إننا وظّفنا حتى صائدي الأفيال، الذين أخذوا للقتال، وتركنا لهم أسلحتهم شرط أن يصطادوا لنا، وأن يعلموا من يودّ أن يذهب معهم ماذا يتوجب عليه عمله. لقد كان صيادو الأفيال كثيرون التطير [195] وكانوا يقضون أسبوعاً قبل أن يرتفع القمر الجديد «يصنعون الطيب» للتأكد من نجاح حملتهم اللاحقة. ولذلك فلا يمكن إغراؤهم بالذهاب إلى الصيد إلا في النصف الثاني من القمر الجديد، وليس هناك من شيء يمكن إقناعهم به لبدء حملة (والتي عادة ما تستمر لشهر) في ظل أي ظروف. كانوا مسلحين ببنادق قديمة بعشرة ثقوب، ويفرضون استخدام الرصاص أو الحديد كطلقات، قائلين بأن النحاس هو أفضل القذائف. واعتدنا على شراء كل أساور النحاس والخلاخيل التي يمكن شراؤها من النسوة، ونعيد طرقها ككريات. ولقد كانت لدي دائماً شكوك، في أي حال، بأن النحاس الذي كان غالباً في طول البلاد وعرضها، اعتبر كشكل من أشكال النقد المقبولة. ولقد أسفت كثيراً لأنني لم أتمكن من مرافقة أي من تلك الرحلات. وكانت طريقتهم في الصيد هي أن يقيموا معسكراً في مقاطعة تكثر فيها الفيلة، والعبيد بالدرجة الأولى، لمراقبة قطع من الفيلة ومتابعته. ويرسل حينها إلى الصياد الأول، ترافقه دزينة أو ما يقارب ذلك من الرجال الأحرار، ولدى

اختياره لفيله، يقترب كثيراً [196] ويطلق رصاصة واحدة. فإن كان محظوظاً في قتل الحيوان، وهو نادراً ما يحدث، فإن الأمور تسهل، وإن لم يتمكن، فإنه يعود إلى المعسكر، ويقوم الباقي بتعقب الحيوان الجريح ليوم أو أسبوع، كما تقتضي الحاجة، حتى ينجحوا في قتله. نُعْطَى الأنياب، وكانت مبيعات اللحم فقط تجعل من هؤلاء الصيادين الأغنى بين الناس في المقاطعة.

ولقد كنا حينها نصادف الكثير من المتاعب مع الأصليين إلى الغرب مما يجاور كاسونجو، والذين دأبوا على مهاجمة أصدقائنا، بل حتى أناسنا أنفسهم، ما إن يخرجوا بحثاً عن الطعام. لقد أوقفت أو فرقت القوافل من الأصليين الأصدقاء الذين كانوا يحملون الغذاء لبيعه في المدينة. وأرسل القائد الملازم دوغم والملازم الثاني سيركيل لمعاينة هؤلاء، وأيضاً لاكتشاف النواحي. وبعد ست ساعات من المسير من كاسونجو دخلت الحملة غابة عذراء، جالت فيها لمدة أسبوع. لقد كانت النباتات السفلية منتشرة للغاية، لتشكل ما يشبه الجدار على جانب الطريق؛ وفي هذه الأدغال الكثيفة [197] قطعت الطرق المؤدية إلى الطريق العام بشكل عمودي، لتختفي بشجرة على كل جانب من التقاطع. ويقف الأصليون أنفسهم على جانب الطريق، وحين تمر القافلة (في رتل هندي، وبوجود مسافات طويلة بين الرجال أحياناً) فإنهم يقفزون عبر الطريق، ويمسكون بأول رجل يمكنهم القبض عليه، ويختفون معه وسط الأدغال الكثيفة على الجانب الآخر. وبهذه الشاكلة، وبدون أن يعرف أي واحد ما جرى، فإن كل الرجال المنتشرين سيقتلون. وفي مرات عدة أطلق المهاجمون النار من على الأشجار على بعد عشر ياردات إلى خمس عشرة ياردة من الطريق، ثم يهبطون فوراً، فيكونون آمنين من المتابعة بعد عشرة أدغال أو خمسة عشر، التي لا يمكن اختراقها بينهم وبين رجالنا. وكانت القرى في تلك المنطقة محصنة كلها، ومخفية عملياً بالغابة، والتي قطعت بكمية تكفي [198] لإيجاد فسحات للبناء فقط. ولقد أحرقت غالبية القرى قبل أن يصل دوغم.

وحين أقام بالمجموعة القليلة منها التي تمكن من مفاجأتها، تعرض طوال الليل إلى وابل من السهام، والرماح، والرصاص من الغابة المحيطة، وكان من غير المجدي الرد عليها. لكنه في أي حال، تمكّن من إلقاء القبض على ما بين عشرين أو ثلاثين أسيراً مهماً، وعاد إلى كاسونجو بعد أن قضى ربما أسوأ عشرة أيام في حياته.

ومن حين عبورنا اللوالابا كنا قلقين باستمرار من التطير الذي يسميه المحليون والعرب بالـ «كيم - بوتو». ولم يكن الـ «كيم - بوتو» سوى عنكبوت واسع الانتشار. ولقد أحضر لي مرة واحداً منها لاختباره، وكانوا يقولون دائماً إن هذه الحشرة إذا عضّت أحداً فإن مآله الهزال والضعف حتى الموت بعدها. وعلى ذلك وبسبب هذا الاعتقاد، فكل حالات التسمم ومرض السل، بل حتى أي عارض مميت لا يرى جهلهم سبباً محدداً وراءه، بل كانوا يعزونه إلى «كيم - بوتو». ولقد كان هذا الاعتقاد قوياً، إلى حدّ أن أحد الأصليين قديم (بل وحتى بعض رجالنا أصابتهم عدوى هذا الاعتقاد الخرافي) واستقر ذهنه على أنه واقع بين مخالف الـ «كيم - بوتو» الشرير، وأنه بات من الناحية العملية مستحيلاً إنقاذه.

ويعتقد كل من العرب والأصليين المقيمين بكاسونجو وجوارها اعتقاداً قوياً في الأشباح. فقد كانوا يصدقون بأن أرواح الموتى لا تنتاب أماكن معينة فحسب، بل تنتاب أفراداً من الناس أيضاً، وأنه يمكن لإحدى أرواح الموتى هؤلاء أن تظهر لرجل حي وأن تناديه، وبعدها يضحى من المؤكد أنه سيموت. ولقد انتشر هذا المعتقد، وكما اكتشفنا، وسط رجالنا أنفسهم، إلى حد التأثير على بعض الرجال الأذكى والمتعلمين والقادمين من الساحل، إلى حدّ أنهم يخافون من التحرك ليلاً. ولقد أتاني عدة أشخاص بقصص عن حوادث تجري فيها مناداتهم أو مهاجمتهم بكائن غير مرئي؛ وأذكر إحدى تلك الحوادث حين قدم جندي مع عريفه ألبرت فريز. بيّن هذا الرجل، أنه قريباً من المساء وبينما

كان يجلس بمعية ثلاثة أشخاص أو أربعة حول النار، فإن «شيئاً» لم يتمكن من رؤيته قدم من خلفه وصفع وجهه ولكم أذنيه. ولقد ودَّ أن يعرف ما إذا كان يمكنني أن أنتزع [200] الروح لأجله، بحيث إنه إن لم أتمكن من ذلك، فإن موته مؤكد. وحين حاولت أن أخفف الأمر عليه بالتفكه من اعتقاده، متوقفاً أن يدعمني العريف، إلا أنه فاجأني بالرجاء ألا آخذ المسألة بمنحى الدعابة، مؤكداً لي أنه إن لم أقم بعمل شيء للرجل فإنه هالك لا محالة. وعلى الرغم من أنني استخدمت كل جدل يمكن أن يرد على البال، فإنني لم أتمكن من زعزعة اعتقادهما. ثم إن العريف، في أيّ حال، عاد ورجاني أن آخذ الأمر على محمل الجد، لأن الرجل كان قيماً لنا وليس بمقدورنا تحمل فقدانه. عندها شرحت لهما أن ليس بمقدوري عمل شيء، وأخبرتتهما أن يعودا لمناقشة الأمر بعد يومين. وفي المساء التالي استدعيت الرجل، الذي كان في حالة منهكة وبدأ أنه ينازع. لقد كان مقتنعاً أنه سيموت حتماً، وهكذا مات في اليوم التالي. وعندما يقرر الرجل الأسود العادي بعبقه أنه ميت، فهو حتماً يموت، ويستحيل تقريباً عمل أي شيء له. وأشار إلى ذلك كواحد من أمثلة عدة سجلتها في مفكرتي لحالات مشابهة.

[201] وفي كل من كاسونجوني ونيانجوي أقيم في كل بيت كبير حمام أو أكثر، والذي كان بناؤه مبدعاً للغاية. يعلق في السقف جذع كبير مجوف أو قارب يثقب بثقب صغير في القاع ويحكم بسدادة حين لا يكون قيد الاستخدام. وحين يملأ بالماء، يشكّل حماماً برشاش مناسب جداً، ويمكن لستة جذوع حينما توضع جنباً إلى جنب في غور بالأرض أن تشكل منصة نظيفة للمستحم. ويسحب الماء عبر خندق، حيث يوضع جذع مجوف، يحتوي على الماء المستخدم وعبر جدار المنزل وإلى الخارج. ويضم كل بيت أو كوخ، مهما صغر، تحويطة صغيرة فيها ترتيبات النظافة نفسها، فيما عدا حمام برشاش. ولقد استحدث العرب صناعة الصابون، وبات يمكن في كل مؤسسة ضخمة أو سوق كبيرة

شراء صابون خشن لكنه مفيد. ويصنع هذا الصابون بخلط الأشنان ويحصل عليه عادة بعد حرق أوراق الموز وسيقانها مع زيت النخيل.

واحتلنا في الأشهر القليلة الأولى [202] كاسونجو، وكنا دائمي القلق بسبب الحرائق المروعة التي غالباً ما تحدث ليلاً. واكتشفنا أن تلك الحرائق الواقعة على المنطقة البعيدة من النهر سببها أناس لوتيته، الذين دأبوا على عادة إشعال النار في البيوت كوسيلة لطرد الفئران، التي كانوا شديدي الإعجاب بها كغذاء. ولقد أوقفت هذه العادة على يد لوتيته بطريقة مختصرة نوعاً ما. وبعدها، ظهرت حرائق من جانبنا من النهر، وإذ بدا دائماً أن تلك النيران تشتعل من مقراتنا نفسها باتجاه الريح، مما جعلنا نستنتج أنها كانت أعمال خيانة، واكتشفنا أنها أعمال أناس منا في معسكرنا والذين كانوا على صحبة مع العرب. وفي مرات عديدة بالكاد تمكنا من الهروب، وقررنا بعدها أن نطيح بكل المنازل القائمة في جوارنا المباشر. وعندما تركنا محيطاً بعرض مائتي ياردة حول مقراتنا توقفت النيران. ولقد كانت أمراً مثيراً مراقبة تصرف رجالنا في تلك الأحداث. فما إن يطلق الإنذار، وأهرع خارجاً، حتى أجد نفسي محوطاً على الفور بحرس متطوع مما يقرب من دزينة من الجنود المسلحين [203]، الذين يرفضون أن يتركوني أقترّب من الحشد، أو حتى أقدم بأي اتجاه لياردة واحدة دون مرافقة. وأعتقد أن الضباط الآخرين يعاملون، بالطريقة نفسها. ولقد شرح لي الرجال أن من السهل طعن حتى الرجل الأبيض بسكين عندما يكون الوقت ظلاماً أو وسط حشد.

وأضينا تلك الأشهر وسط مصاعب عظيمة في توزيع وترتيب وتنظيم العدد الهائل من البشر - الرجال منهم والنساء - الذين يعتبرون أنفسهم كعبيد لنا والذين منذ أن طرد العرب، باتوا كالغنم من دون راع. كان يأتي يومياً الآلاف من عبيد العرب والأحرار من الأصليين والعبيد الذين تتبعهم قطعان من النساء، والذين يسألون ما الذي يتوجب عليهم عمله. اخترنا الزعماء الأقل شأنًا، الذين لا يزالون قائمين (وفي الحالات التي قُتل فيها الزعماء، أوجدنا

زعماء جدداً)، وهم بدورهم، اختاروا، أناسهم. يقوم بعدها أحدها ويقود هذا الجمع في البلاد المحيطة، وبعد أن نختار مكاناً مناسباً لهم، نعطي الأوامر بأن يبنوا قرية، ويبدؤون في الزراعة. وزودنا تلك [204] المستوطنات بالذرة والأرز والحبوب الأخرى؛ وكانت تلك الطريقة ناجحة جداً إلى حد أنه خلال ثلاثة أشهر إلى أربعة، باتوا يعتمدون على أنفسهم، وبعدها أخذوا يزودون قواتنا بالأغذية. وعلى بعد مسيرة ساعة تقريباً إلى الشمال من كاسونجو، وجدت بلاداً رائعة الثراء، بمساحات خلافة مقطوعة من الغابات وبموارد ماء جيدة. ولقد كثرت آثار القرى السابقة، وكم وددت لو أرعى مستعمرة مزدهرة في مقاطعة موالية كتلك. ولقد قمت بتأسيس قرى لمرتين أو ثلاث مرات، وبالنتيجة الثابتة نفسها: كان السكان إما أنهم يقوِّضون مساكنهم، ويقيمون سكناً في مناطق أخرى، أو يأتون إلينا في كاسونجو يتدمرون بصخب مطالبين بمقاطعة أخرى. يأتون قائلين، الفهود في جوارنا، باتت كثيرة وكبيرة للغاية وعنيفة، إلى حد أن أي رجل يخرج من كوخه بعد الخامسة مساءً أو قبل السابعة في الصباح كان يُفترس ويؤخذ من قبلها. ولم يبد قط أن لدى هؤلاء الناس العزم أو الطاقة، لصيد الفهود أو إيقاعها في الشرك.

وبينما كنت في كاسونجو مر سرب جراد باتجاه جنوبي وجنوبي شرقي، [205] واستمر في المرور عالياً لمدة شهر. وقال العرب والأصليون إن هذه هي المرة الأولى التي يرون فيها حشرة الجراد. وكان من المثير للبحث في واقع أن القسم الأكبر من حوض أفريقيا الشمالي كان واقعاً، بسبب الحرب، في حالة اضطراب لما يقرب من ثلاث سنوات. لقد كانت العادة لدى الأصليين في كل حوض الكونغو أن يحرقوا الأعشاب في فصل الجفاف؛ ولدى انشغالهم بالحرب فإنهم لم يواصلوا العمل بذلك؛ وللسبب نفسه، وبدون شك، فإن الدواب الأخرى مثل الفئران والثعابين، وبسبب هذه العادة، لم تسبب الطاعون قط فيما عدا مقاطعات الغابة. أليس من الممكن أن يرققات الجراد، وبسبب حرائق السهول، وفي ظل الظروف المعتادة لم يترك لها الوقت قط للوصول إلى حالة النضج؟

الفصل الثالث عشر

اتهام حليفنا جونجو لوتيته بالخيانة وإعدامه في نجاندو
- وصول خمسة ضباط من أوروبا إلى كاسونجو - استمرار
المواجهات مع العدو - رحيل العرب من مدينة ستانلي هولز،
تاركينها تحت رحمة قوات الدولة - التحاق النقيب لوتيج
من البنجلا بقوات الدولة، ومطاردة العرب حتى النهر - بعد
قتال مريض، تنظيف النهر من العرب وحشودهم حتى نيانجوي
- تراجع قوات الدولة - هجوم القائد دانيس على حصن
روماليزا، على مسيرة ثماني ساعات من كاسونجو

[206] في الأسبوع الأخير من أغسطس بدأ القائد السير إلى نيانجوي
من كاسونجو. وكانت الإشاعات قد سرت سابقاً لبعض الوقت آتية من
مقاطعتي [207] مالا ولومامي، تظهر أن إدارة دوشين لم تكن ناجحة
تماماً. كان الأصليون في حالة مشاكسة وعاصفة، وقد أرسل حليفنا جونجو
لوتيته إلى عاصمته نجاندو لترتيب الأوضاع. وبما أنه لم يبد في الأفق أي
خط لعمل ناشط، وأيّ آفاق عاجلة لحملة على بحيرة تنجانيقا، فإنني قررت
أن أتطوع لمقاطعة نجاندو، ولهذا القصد قررت النزول إلى نيانجوي للتحدث
إلى القائد. وبينما كنت في نيانجوي وصلت المراسلات من دوشين بأنه قد
اكتشف، وسط اتهامات أخرى، أن جونجو لوتيته كان خائناً، وأنه قد وضعه
في السجن. كان هذا تصرفاً مغايراً للتوقعات، ولم نصدق بأي شكل الإشاعة
القائلة بأن جونجو كان يتآمر لاغتيال القائد دانيس نفسه.

بدأت الرحيل في الساعة الخامسة من صباح الحادي عشر من سبتمبر
مصطحباً معي اثني عشر رجلاً ومائتين من شعب لوتيته بقيادة زعيم صغير
اسمه كيتينجي. استمرت مقابلاتي مع القائد طوال الليل. وبعد ستة أيام من
الزحف السريع، [208] بمعدل ثماني ساعات في اليوم، وفي أي حال أوصلتنا
إلى نجاندو متأخرين لإنقاذ حليفنا الشجاع والمخلص، الذي أعدم قبل ثمان

وأربعين ساعة من وصولنا. من المرجح أنني كنت أول من شعر بتأثير هذه السياسة الخاطئة. فبينما كنت على بعد يومين من اللومامي وبضع ساعات من مقتل جونجو لوتيته، فقد عرف الأصلون كافة، وعبر اتصالات من بعد عبر الطبول، بما حدث في نجاندو، وإذ بات زعيمهم الأكبر ميتاً، اعتبروا أنفسهم في حل لقتل أتباعه الخاصين كافة وأكلهم والاستيلاء على مواقعه. وكان لدى تلك القبيلة على نحو التحديد سبعة من رجال جونجو منظمين لقيادتهم، وكان واجبهم توجيه الاتصالات كافة بين اللوالابا والعاصمة نجاندو. وبعد ورود أخبار موت جونجو، هوجم هؤلاء الرجال، وقتلوا وأكلوا على أيدي سكان المدينة العائدة للزعيم ويمبي (Wembe). وإذ جمع ويمبي قواته معاً هاجم قواتي، معتقداً بأنها مجموعة من جنود لوتيته عائدين إلى بيوتهم؛ على أنه سرعان ما انسحب حين اكتشف أنني كنت حاضراً. في اليوم التالي [209] قدم بعض الرجال من العاصمة حاملين معهم أخبار أن جونجو لوتيته قد قتله الرجل الأبيض؛ ولاحقاً في اليوم نفسه، سمعنا أن الباكوسو (Bakussu) وإثر سماعهم بموت زعيمهم، هاجموا محطة الدولة، وحاصروها. ولم تكن تلك الأخبار أبعد من أن تكون مطمينة، بحيث إنني قد قمت بزحف اضطراري، آملاً أن أصل قبل سقوط المحطة. ثم سمعنا لاحقاً وفي ذلك اليوم أيضاً أن المحطة قد سقطت. على أنني لم أصدق هذا التقرير، لأنه بدا من المستحيل ألا تستطيع الصمود لأسبوع أو اثنين بأقل تقدير. وإذ اقتربت من نهر اللومامي، انتبهت أن دزينتي من الهوسا باتوا قريبين مني جداً. لقد أعطوا كل أشياءهم ما عدا بنادقهم والذخائر لزوجاتهم لحملها، ولم يتركوا أيّاً من ناس كيتينجي أن يقتربوا مني لثلاثين ياردة: وقد كان ذلك احترازاً عديم الفائدة. وحتى بافتراض سقوط المحطة، وإن حشدنا للحظة قوة شعب جونجو معنا، فإن موقفنا - بوجودنا على بعد ستة أيام من الدعم بات ميؤوساً منه إطلاقاً. كان هذا [210] مثلاً آخر على ما لاحظته في كثير من الأحيان، أن الهوسا كانوا مستعدين دوماً للمضي قدماً حتى الموت (meant to die game) وللاتصاق بقادتهم البيض ما داموا قادرين على الوقوف.

ولدى الالتفاف على التلال إلى الجانب الشرقي من اللومامي، سعدت حين رأيت، وبمساعدة منظاري المقرَّب، علم الدولة لا يزال يخفق على بعد ثلاثة أميال عبر الوادي. ولدى الوصول إلى المحطة، بدا واضحاً سبب الإشاعات المقلقة التي وصلتني. فإن كل سكان نجانندو والمقاطعات المحيطة (وقد حرموا من زعيمهم كما آلت الأمور) انقسموا إلى زمر، كل زمرة تقاثل الأخرى فيما بينها، وتهاجم مقرات بعضها البعض، ويقومون بقتل كل من يصادفهم. وربما أطلقت بعض الطلقات على محطة الدولة، من قبل بعض السكارى أو من رجال في حالة هيجان قتالي.

وخلال عشرة أيام تلت وصولي، أدى التصرف العدائي للضباط البيض والفوضى التي ضربت أطناها في المقاطعة لتكون وضعيتي في حالة لا بد من أن أكون محسوداً عليها؛ ولقد كنت سعيداً جداً عندما وصل، وبعد عشرة أيام، القائد جيليا ليجري تحقيقاً. [211] رتب القائد وضعه في المدينة، على بعد ميل من المحطة (حيث بقيت)، وسرعان ما نصّبنا لوبونجو مكان والده، واعترف بسلطته كاملة.

لقد حافظ جونجو لوتيته على عهده معنا، وقد كان لعنايته ولمزمه الأثر الكبير لنجاحنا في المرحلة الأولى من الحملة. ولقد أصبح أكثر من نصف دائرة مواصلتنا بإمرته، ونجح كل شيء أوكلت إليه المحافظة عليه إلى حدّ أننا لم نفقد حتى حملاً واحداً. وبعد سيطرتنا على مايليا وسامبا (Samba) حافظ لنا عليهما، وأسس اتصالات منتظمة بين نيانجوي ولوسامبو. وكانت الرسائل والأحمال كافة تسلم ببساطة إليه، وحتى بدون أن يرافقها رجل واحد من عندنا، ودائماً ما أوصلت بسلام إلى مستقرها. أما فيما يتعلق به فإن شيئاً واحداً يجب ألا ينسى: فحينما انفجرت الحرب كان العرب يحتفظون باتنين من أطفاله - ولد وبنت - كرهائن. وحين ألقى بحظوظه معنا كان قد فكّر في أنه لربما لن يأمل أبداً برؤيتهما ثانية [212]. لكن القائد افتداهما، كما يتذكر،

من سيف، لقاء تأخير هجومنا على كاسونجو لخمسـة أيام. وعندما وصل طفلاه وقدما إليه سرى فرحه المؤثر على كل من كان حاضراً. وعلى الرغم من أن هذا كان ابنه الأكبر فإن لوتيته لم يكن، لوجود الابن لخمس سنوات مع العرب، ليجعله خليفة له، ثبت ثاني أبنائه، لوبونجو، وريثاً له، وأرسله ليعيش معنا في المحطة لكي يتعلم على أيدينا. وبعد المحاكمة العسكرية، عندما أخبر المسكين جونجو بأنه سيعدم في الساعة الثامنة صباحاً، عين لوبونجو خليفة له، وعندما ترك في زنزانته شق نفسه بحبل جدله من جزء من ثيابه لتفادي ذل الإعدام العلني. لكنه ولسوء الحظ، اكتشف قبل أن تفارقه الحياة، فقطع الحبل عنه وأنعش، وما إن تراجع بشكل كاف حتى اقتيد إلى الخارج وأعدم.

وبناء على اقتراح دانيـس فإنه أرخى من نظامه، وعفا عن كثيرين من مرتكبي الجرائم، الذين وقبل تحالفه معنا، كانوا سيقدمون للآخرين قطعاً [213] - إلى حد أن سلطته كانت أحياناً في خطر، وتوجب علينا أن نتدخل باسمه. وكانت فكرته الأكبر أنه سيزور أوروبا، وقبل وفاته أجرى الترتيبات لإرسال ابنه الأكبر نزيجي (N'zigi) إلى أوروبا لإزالة ما علق به من آثار سيئة من التعاليم. ويوجد الولد الآن بمدرسة في بلجيكا.

لقد كان العمل في ذلك الشهر هو الأصعب إبان الحملة - إذ كانت هناك مناقشات لتُجرى، وقضايا لتحاكم، والكثير من التنقل في الجوار بين المدينة والمحطة، وبأسرع ما يستطيع حماري حملي (اثنان رائعان، أحضرهما العرب من مسقط إلى البلاد). وبدأ أن رؤية الرجل الأبيض راكباً مصدر لا ينفذ لاستثارة اهتمام أصليي المقاطعة، والذين نادراً ما رأوا شيئاً مشابهاً. وفي إحدى المرات، كما أذكر، كنت ماراً بسرعة في موقع مفتوح في المدينة. وصادف أن كانت هناك حملتان كبيرتان قادمتان للتو من غزوة، فجرى ترتيبهما وشكلا طابوراً لرؤيتي ماراً بهما. سرت بدون حراسة، حتى لا يبدو عليّ أنني أخاف منهم، [214] وكنت أركب دوماً بأسرع ما يكون بحيث إنه

إذا ما ركب أي متذمر رأسه، لإطلاق النار أو رمي رمح، فإنني من المرجح لن أصاب. وإذا كنت على وشك أن أرد تحية المسؤول صدف أن وضع حماري حافره في حفرة، لينقلب بالكامل، وليقذف بي طائراً في الهواء. وإذا لحظ الصبي العامل معي، الذي كان يحمل مسدساً احتياطياً، أن الكل قد غرق في الضحك على ما حل من ارتباك، أفرغ سلاحه في وجوههم، مما جعلهم يفرون جميعاً، إلا أنه ولحسن الحظ لم يصب أحد. ولقد لاحظت بعدها أنه في مرات ركوبي اللاحقة يسارع كل شخص للابتعاد عني، تحت وازع وجود عمل لديه إما داخل البيوت وإما خلف الأشجار.

وإذا أخذت الأمور منحاسها نحو الهدوء، وصل خمسة ضباط من أوروبا وتقدموا للالتحاق بالقائد في كاسونجو، حيث كان من المقرر أن يعد لهجوم على روماليزا الذي ترك أوجيجي (Ujiji) وعبر تنجانيقا وأقام نفسه مع سيف وما تبقى من قواته في كابامباري (Kapambari). وخلال الشهر السابق، حدثت بالأحرى تحركات مهمة إلى الشمال [215]. ففي مارس 1893، وبأمر من مفتش الدولة فيفيه، فقد أمر النقيب تشالته، قائد الموقع العسكري في باسوكو بأن يلتحق بنا وبمعيته كل قواته في سدة الحرب. ولقد كان في وضعية جيدة على نحو خاص لإسداء كل دعم لنا، بحيث إن معسكر باسوكو قد أسسته الدولة الحرة كاحتياط في حال حدوث أي نزاع مع العرب في ستانلي فولز. فقام بمساعدة مركبيه البخاريين بالصعود إلى أعلى اللومامي، واحتل الموقع العربي السابق في بينا كامبا (Bena Kamba). ولا تبتعد عنه في هذه النقطة إلا مسيرة ثلاثة أيام عن المدينة العربية الكبيرة في ريبا ريبا (Riba Riba) على اللوالابا؛ إلا أنه وبسبب رداءة الطقس فقد جرى تأخيرها، ولما وصل إلى ريبا ريبا كانت المدينة قد أحرقت وهجرها الأصليون. وكان ميسيريرا (Miserera) وبوانا لويزي (Boina Loisi)، الحاكمان من قبل العرب، قد تركا المدينة بقواتهما قبل ذلك بفترة من الزمن، وكانا في تلك الفترة يقاتلانا

في نيانجوي. عاد تشالته من باسوكو، حيث إن وباء الجدري قد تفشى في قافلته. ووصل ستانلي فولز (المساقط) في الثامن عشر من مايو، حيث كان النقيب توبك (Tobback) والملازم فان لينت (Van Lint) يقاومان وعلى مدى خمسة أيام هجمات العرب [216] بقيادة راشد/رشيد، الحاكم الثائر وضابط الدولة في ستانلي فولز. ولدى هبوط القوات من باسوكو في ستانلي فولز، انسحب العرب، تاركين المدينة بكل ثرائها، تحت رحمة قوات الدولة. وبعد ذلك ظل كل شيء هادئاً حتى الخامس والعشرين من يونيو 1893، عندما وصل القائد بونتييه (Ponthier) إلى المساقط من أوروبا. فجمع على الفور كل القوات التي يمكن جمعها، وأخذ معه القائد لوثاير (Lothaire) وبعض رجال البنجلا معه، وتابع العرب الذين هربوا من المساقط باتجاه أعلى النهر. وبعد قليل من القتال الشرس والكثير من المناوشات، نظف النهر والجوار من العرب وجماعاتهم حتى نيانجوي، حيث وصل بعد يوم من مغادرتي إلى نجاندو.

وفي الوقت نفسه كنا في نجاندو وقد وصلتنا تعليمات عدة من الجبهة في آن والتي يمكن تلخيصها في التالي: إن الهجمات على حصون روماليزا قد فشلت؛ وأنه وخلال أسبوعين من القتال الشرس فإن القائد بونتييه قد قتل؛ وأن التموين من الذخائر قد أوشك تقريباً على النفاد. وانتقل [217] زعيم مساعد قوي، اسمه كيتومبا مويا (Kitumba Moya)، بعد نصف ساعة من إعدام جونجو، إلى العرب وبمعيته ستمائة بندقية. ولقد اتبع مثله بالطبع العديد من الآخرين. وتوجب علينا، بحسب التعليمات، أن نلتحق وبأسرع وقت بالصفوف، آخذين معنا كل الذخائر والرجال. وكانت آخر التعليمات قد وصلت بعد عشرة أيام من إصدارها، وبذلك وبكل التوقعات الإنسانية سنكون متأخرين. بدأنا في الرابع من نوفمبر، كنا أربعة ضباط، من بينهم اثنان: القائد جيليا والملازم أوجستين (Augustin) - توجب نقلهما على الشباك المحمولة. وتكونت قوتنا من خمسين جندياً، وكان كل ما تبقى من قوات جونجو لوتيته - ألف جندي جرى تسليحهم بما توافر لدينا.

كانت تلك أكثر الأوقات تطلباً، وأحياناً فقدت الأمل في أن أوصل الضابطين المريضين حيّين إلى كاسونجو. كانت لدينا مشاكل لا حصر لها، ومن بينها محاولة إبقاء شعب جونجو وزعمائهم الأقل شأناً (والذين باتوا من دون قائد) خاضعين للسيطرة. لقد ثبت في ذهنهم أنهم أحرار في نهب البلاد التي كنا نمر بها بمجملها [218]، تحت الشعور بأنني لست قوياً بدرجة كافية لإنفاذ أوامري بالعكس. ووصلنا إلى كاسونجو في الرابع عشر من نوفمبر لنكتشف أنه، وفي اليوم السابق، كان العرب قد هجروا بوماتهم أو حصونهم الخشبية وبدأوا ما بدا أنه تراجع إلى الشرق. وهذا ما جرى:

في الثالث عشر من أكتوبر عام 1893، وحين لم يتبقّ شك في أن روماليزا قد أقام معسكراً بما لا يبعد من مسيرة ثماني ساعات من كاسونجو، فإن قوات الدولة بقيادة البارون دانيس، بدأت التقدم إزاء هذا العدو الجديد. وقسمت القوات على النحو التالي: الاحتياط الأول بقيادة القائد دانيس، والاحتياط الثاني بقيادة بونتيي؛ ووضعت ست كتائب بقيادة الملازمين لونغ (Lange) ودوغم وأمبورسا (Hambursin)، والعرفاء كولييه (Collet) وفان غيل (Van Riel)؛ وتشكلت القوة بمجملها من النظاميين وعددهم أربعمائة رجل، ومدفع كروب قياس 7.5، الذي كان له في حوزتنا أربع وأربعون قذيفة فقط، وتبقت لدينا اثنتا عشرة طلقة من القنابل الصوتية (rounds of canister) ⁴³. ورافقت ذلك قوات غير نظامية مسلحة ببنادق ذات كمّامة، تقدر بثلاثمائة بندقية. وتحركت القوة في أول عشرة أميال من السير [219] باتجاه قرية بياني مينجي (Piani Mayenge). وأدى السير لاثني عشر ميلاً إضافية في اليوم التالي لحدوث التشكيل من موانا مكونجا (Mwana Mkwanga)، وحيث يفترض بأن العدو قد بات على مسافة ساعتين سير. وفي الخامس عشر من أكتوبر، وبوجود القوات المساعدة تستكشف على المقدمة، بدأ التشكيل السير

43 - قد يعني ذلك أيضاً كمية رصاص مضغوطة في وعاء ويستخدم المدفع في إطلاقها (<http://www.answers.com/canister>) (المترجم).

بنية الاستيلاء على موقع في مؤخرة المواقع العربية؛ وكان العدو قد أقام عدة حصون، اثنان منها وقعا بين اللوليندي (Lulindi) واللواما (Luama) - وهما فرعان من اللوالابا - وكانت حصوناً كبيرة، مبنية بشكل رائع، ومحمية بشكل جيد. وعلمتنا التجربة أن الحصون العربية تكون عادة ضعيفة فيما يعتبرونه المؤخرة، وكان القائد يود بالإضافة إلى ذلك، أن يكون على خط العدو الطبيعي للانسحاب في حال كان الهجوم ناجحاً. وعلى الرغم من الدروس القاسية التي كلناها لهم، فقد بدا أن العرب غير قادرين على فهم حقيقة أننا لن نكون في وارد الانعطاف قبل أن نهاجم.

وإذ تمكنا من ليّ جناح العدو في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر اقترب التشكيل من حصن كبير، تخفيه الأعشاب الطويلة، [220] ولا يظهر حتى نقترب على مسافة ربع ميل من العدو. وإذ تشكّل خط القتال، تقدمت كتيبتى دوغم ولونج ببطء في مناوشات، وكانت إشارة الهجوم إطلاق قذيفة على الحصن. تقدمت القوات حتى مسافة عشرين ياردة من البوما دون إطلاق رصاصة، إذ إن نار العدو لم تكن لتسبب أي ضرر مادي. على أن نار العدو تزايدت حدتها إلى درجة أن الهجوم أوقف، وأخذ الرجال في تبادل إطلاق النيران. وصلت التعزيزات للتو، وانبطح الرجال على بعد ياردات قليلة من القلعة. ومضى وقت غير قليل قبل أن يتمكن الضباط من إسكات نيران الرجال. ولحسن الحظ فإن كوى العدو لإطلاق النيران كانت قد بنيت بزوايا بحيث إن أضحى رجالنا تحت خط النار، وإذا ما أراد العدو أن يتأكد من تحقيق إطلاق نار مؤثر، توجب على أفرادهِ إبراز أنفسهم من أعالي موانعهم الأرضية. أصيب الملازم لونج بجرح بالغ في الدقائق الأولى من معركته الأولى، لكنه واصل في توجيه كتيبته حتى نهاية اليوم. وعلى الرغم من الجهد الجريء للقائد والضباط، فإنه بدا [221] مستحيلاً إقناع الرجال بأن يتسلقوا الموانع باتجاه القلعة في وجه نيران مستمرة بشكل ثابت. أحضر المدفع إلى الأعلى،

في محاولة لإيقاف نيران العدو بقنابل صوتية (with canister)؛ على أن العديد من الحمالين العاملين على حبال السحب قد أصيبوا إلى حدّ أن عمّت الفوضى، فتحركوا بشكل سريع، تاركين المدفع وسط نيران كثيفة. قام القائد بونتيه وأمبورسا وكوليه بسحب المدفع إلى الموقع المناسب تقريباً بأنفسهم، وبالدم الذي وصل في الوقت المناسب وقدمه دوغم وبضعة من رجاله تُبِت المدفع في مكانه على بعد مائة ياردة من الحصن. وهكذا وبحماية من النيران الفاعلة لتلك القطعة، سُحِب الرجال من تحت جدران الحصن بخسارة قليلة نسبياً. وفي تلك اللحظة على وجه التحديد ظهر قسم كبير من قوات العدو على الجناح الأيمن، وقد خرجوا من حصن أكبر بكثير، لكن الأدغال أخفتهم إلى حدّ أنه وحتى حين انكشفت قواتهم لم يلحظ أحد وجودهم. واجه القسم الأكبر من القوات هذا العدو الجديد تاركين القليل من القوات الكافية أمام الحصن رقم 1 لإيقاف أيّ محاولة للقيام بهجمة مفاجئة يمكن القيام بها ضد الحامية. ولقد واجه القسم الأكبر أوقاتاً أفضل الآن [222] بظهور العدو إلى الفلاة، وسرعان ما أرغموهم على العودة إلى ملجئهم، وكانت عودتهم أسرع كثيراً من تقدمهم. ولقد تم اختيار هضبة صغيرة على بعد ميل من الحصن الأكبر ونصف ميل من الحصن الأصغر، وفيما عدا مناوشة في الصباح مر الليل بهدوء. وبعد قدر كبير من الاستكشاف، عثر القائد بونتيه على موقع أفضل بالنسبة إلى المعسكر وأقرب إلى الحصون. وفي أثناء غيابه أرغم دوغم العدو على التقهقر إلى الداخل - وكان قد ظهر من الحصن الأصغر لمهاجمة مدفع الكروب - مبقياً، في الوقت عينه، الحصن الأكبر هادئاً ببضع قذائف. وما إن بدأت القوات في التمرّكز في مواقع، قبل أن تقيم معسكراً، حتى هاجمها العدو من جميع الجهات، على أنه سرعان ما تم احتلال الموقع الجديد مباشرة ورتبت حماية للرجال، فانسحب العدو إلى حصونه. وخلال اليومين أو الثلاثة أيام التالية صُدت عدة هجمات صغيرة على المعسكر، وقُذفت القنابل المتبقية وسط الحصون.

التحق بنا النقيب دوفوترز، في الوقت عينه، من كاسونجو بسبعين رجلاً، تاركاً ملازماً ألمانياً [223] حديث السن يدعى ميركوس (Mercus)، وبمعيته عشرون رجلاً والمرضى، كحرس في كاسونجو. وبعد بضعة أيام، أرسل القائد أمراً لميركوس يطلب فيه إرسال كل طلبة يمكنه الاستغناء عنها عبر نهري اللوالابا واللواما، وبعدها إلى معسكره عبر المؤخرة، حيث إن القوات العربية كانت بينه وبين كاسونجو. وكان قلقه الأكبر، بعد يومين آخرين، عندما رأى ميركوس بنفسه قادماً مع الذخائر، تاركاً كاسونجو دون حماية على الإطلاق، وهو يعرف، أنه بواسطة الطبول والجواسيس، فإن روماليزا سيكون مطلعاً على الفور على الموقف!



انطلق دو فوترز على الفور بمفرزة، آملاً في أن يتمكن من أن يقوم بين روماليزا وكاسونجو قبل فوات الأوان. وبالإمتنان لإعصار مروّع، الذي أوقف العرب وحال دون أن ينالوا من دو فوترز، الذي عرف أنها مسألة حياة أو موت، تمكن من الوصول قبلهم إلى الطريق، وبالالتفاف، هاجمهم في المقدمة. وإذا وجد العرب أنفسهم مُناوراً عليهم، تراجعوا إلى حصنهم،

وتخندق دو فوترتز في الموقع الذي استولى عليه. وأقام دو أويش، والذي وصل بعد بضعة أيام [224]، في موقع إلى الشرق من دو فوترتز. وكما سيرى من الشكل المرفق، فإن العرب قد وُجدوا في موقع غريب - فالقائد دانيس يقطع عليهم مؤخرتهم، ودو فوترتز ودو أويش على كل جانب من حصنهم المتقدم، ثم هناك الجبال القاحلة التي لا يمكن الوصول إليها من الشرق. كان السهل في جوار دو فوترتز ودو أويش، ومن هناك إلى كاسونجو مزروعاً - حقولاً هائلة من الأرز، ومحصول لسان الحمل (plantain)⁴⁴، والكسادا أو الكسافا⁴⁵، وكلها ناضجة وجاهزة للاستهلاك، وبذلك كانت لدى قواتنا الوفرة للأكل؛ في حين أن العرب لا يمكنهم سوى الاعتماد على تمويناتهم القادمة عبر قطاع ضيق بين حصونهم واللوالابا. ولقد حدثت المناوشات التي جرت في العشرة أيام الأخيرة بأجمعها تقريباً في هذه المنطقة، ولقد قطع الطريق على العديد من القوات العربية المقاتلة⁴⁶. وحيث أخذ عبيد العرب - الذين كان من المتوقع بالطبع أن يستشعروا بأثر المجاعة أولاً - في الموت من الجوع، فإن روماليزا قام بهجوم كبير على موقع دانيس، وكاد يكتسحه. وفي إحدى المرات نجح فعلياً في احتلال قسم من المعسكر، وهنا قتل الشجاع بونتييه.

[225] لقد طُوقَ النقيب دوغم، وقد كان قسمه من المعسكر هو الذي هوجم، وحين رأى بونتييه الموقف من على بعد، نادى على دزينة من الرجال كانوا واقفين بقربه ليلتحقوا به، وكان غليونيه في فمه ولم يكن معه حتى مسدس بيده.

44 - نبتة عشبية مدارية كبيرة تشبه الشجرة (*Musa paradisiaca*) في جنوب شرق آسيا، وتشبه الموز وتأتي بثمر مشابه له. يستخدم كغذاء معيشي في المناطق المدارية (http://www.answers.com/plantain) (المترجم).

45 - نبات يزرع لاستهلاك جذوره (http://www.thefreedictionary.com/Cassada) (المترجم).

46 - النص هنا غير واضح (Arab foraging parties) لربما قصد بالجملة: الجماعات العربية التي كانت تحاول الحصول على غذاء أو علف للماشية (224) (المترجم).

وحاول العدو أن يلقي عليه القبض حياً، وإذ خافوا أن يفشلوا أطلقوا عليه النار. ولقد قاوم لمدة ثلاثة أيام أو أربعة، ثم دفن تحت خيمته، التي تركت قائمة، والغذاء يحمل إليها بانتظام، ووضع حرس سرّي على خيمته. ولقد كان لمعنويات قوتنا أن تعاني لو علموا بمقتل قائد مهم كهذا، وبالقدر نفسه سيبتهج روماليزا.

وبعد خمس ساعات من القتال رُدّ العرب على طول الخط، وقاد القائد دانيس الهجوم الأخير والأنجح في ذلك اليوم حتى شارف على بوابات روماليزا. وبمراجعة وضعيتنا في ذلك المساء، وجدنا أنها باعثة على الأسى؛ فبالإضافة إلى العدد الكبير من القتلى والجرحى، لم يتبقّ سوى أربعين طلقة لكل فرد من القوات النظامية، ولم يعد هناك أي بارود أو [226] قبعات للقوات المساعدة والصديقة. وما كان أسوأ، أنه لم يكن متوقعاً أن تصل إلينا تموينات من نجاندا قبل أقل من أسبوعين. على أن العرب أيضاً قد قاتلوا لوقت طويل، وظلّوا هادئين في بوماتهم لأيام أخرى. وأخبرنا الجواسيس بأن العرب يتوقعون قافلة من أوجيجي، محملة بالبارود والتموينات الأخرى، فأرسلت فرقة صغيرة لمعرفة موقعها. وإذ فاجأها زعيم إحدى القوات المساعدة، وفرض عليها التراجع، وقعت بين يدي العريف ألبرت فريز، الذي كان خارجاً في الجوار نفسه، فقامت القوتان بتقطيعها إرباً. ودخل ألبرت المعسكر ذلك المساء مفتخراً وبمعيته ما يزيد على الطنين ونصف الطن من البارود الألماني الرائع و60 ألف كمامة، والتي وزع القسم الأكبر منها على الفور للقوات المساعدة والصديقة. وقام هؤلاء، في الليل والنهار، بالطواف في الجوار، ومهاجمة أيّ قطعات صغيرة يجازف العدو بإنفاذها خارج تحصيناته للبحث عن الطعام. في تلك الأوقات اختار النقيب دوغم أعداداً من الأصليين وعبيد العرب من بين الأسرى، ودرّبهم، [227] كجنود وبناتج ناجحة جداً. ولقد قاد مائة منهم بنفسه في القتال الذي نشب لاحقاً. ولقد طرأت عليه الفكرة بشكل فردي تقريباً. فلقد كان يعترض بشدة على كتابة التقارير، وإن قتل أحد رجاله في

الكتيبة فقد كان يرفع مقتله، ويملاً موقعه في الحال بأحد هؤلاء المجندين ويعطي المجند اسم القتل ورقمه وبنديته وتجهيزه. ولم يكتشف ذلك لوقت طويل حتى كان القائد في أحد الأيام يتفقد تقارير الفاعلية، واكتشف أنه على الرغم من أن النقيب دوغم كان لديه خمسون أصابة قاتلة، فإن كتيبته ظلت على الشاكلة نفسها وبالأسماء والأعداد نفسها كما كانت لثلاثة أشهر أو أربعة أشهر سابقة.

وفي السادس عشر من نوفمبر، كانت القوات العربية التي عانت الأمرين من المجاعة، قد تخلّت عن مواقعها وهربت إلى الشرق، في حين أن قواتنا غير النظامية والمساعدة سارت إثرها. وعاد القائد إلى كاسونجو بمعية حرسه الخاص ورجال بونتييه، تاركاً البقية كلها مع دوفوترز في موانا مكوانجا. وتشكل طابور خفيف للتوّ على يد النقيب دوفوترز، وبواسطته طارد العرب المتراجعين. ولمسيرة ساعتين تناثرت الجثث على الطريق، مظهرة كيف كان هرب العرب معجلاً، والدمار الذي حاق بمؤخرتهم على أيدي غير النظاميين والأصليين الآخرين. وسمع دوفوترز أن العرب كانوا متمركزين غير بعيد أمامه، وهكذا، وإذ ترك كل الأصليين وغير النظاميين للحاق به في المؤخرة (لتفادي الارتداد المحقق عندما يتواجدون وجهاً لوجه مع العرب)، تقدم مع النظاميين، آملاً أن يسيطر على الموقع بالهجوم الأول. كان المسلك سيئاً: لم يكن هناك من طريق، عدا الأثر الواسع لاتباعه الذي تركه العدو الهارب. وإذ تقدمت أفراد قواتنا خلال الغابة، الممتدة عبر طريقهم، كان في استطاعتهم أن يسمعوا العدو في كل اتجاه يقطعون الغابة لإعداد تحصيناتهم. وكانوا، في أي حال، محظوظين للاقترب من موقع العدو دون أن يُكتشفوا، بل إن الحراس المتقدمين لم يتم إطلاق النار عليهم إلا بعد أن جرى الحديث بينهم وبين العدو في المعسكر، ظناً، عن طريق الخطأ، أنهم من الأصليين. أورد غير النظاميين أن العدو قد تمركز بمعسكر في سهل واسع، حيث استولوا [229]

على فسحة وسط الغابة؛ وأحاطوها بسياج، ظهر لاحقاً أنه كان غير مكتمل ببعض مواقع فيه. كان هناك العديد من الأكواخ العشبية خارج السياج، مما يظهر أن العدو قد تمكن فقط من تشكيل الدائرة الداخلية من الحصن. وهكذا وإذ فوجئ العدو فرت أعداد منه إلى الغابة المجاورة، وتمركزت البقية في موقعهم داخل الحصن وخارجه ووقعت بأيدينا أعداد كبيرة من البنادق والقبعات، ورزم الأقمشة وغنائم أخرى. واشتبكت كتائب أخرى بالتتابع، آخذة مواقعها إلى اليمين. وقاد الملازم دو أويش كتيبته حول الحصن وهاجم المؤخرة، آملاً أن يجد نقطة ضعف. ونجح بهذا: فحيث إن السياج لم يكن مكتملاً، كانت هناك فتحات بعرض ياردتين أو ثلاث في مواقع عدة، وإذ وجد دو أويش أنه ربما يمكنه أن يوجد مدخلاً قبل أن يستعيد العرب أنفاسهم بعد المفاجأة، قاد كتيبته حتى حافة الخندق، حيث سقط وقد أصيب في الصدر. تراجع رجاله، تاركين قائدهم البطل والكثير من أعداءهم على الأرض، كأثر للموقع الذي احتلوه [230]. رأى العريف الأسود ألبرت فريز ورقب أصلي اسمه باديلونجا (Badilonga) دو أويش يسقط ويمفرده، فهرعا لإنقاذه كيلا يسقط بيد العدو. وشجع سقوطه بعضاً من العدو الذين هجموا خارجين من الفتحة القائمة في السياج على بعد بضعة أمتار، لكنهم أجبروا على التراجع على أيدي الأسودين، اللذين حافظا على نار ثابتة حول جسد قائدهما. أرسل ألبرت عريفاً لطلب المساعدة، ولدى عودته بمعية النقيب دو فوترز ونصف دزينة من الرجال، وجدوا أن العريف لا يزال قائماً في الموقع. فهو لم يمنع العدو من الاستيلاء على الجثة فحسب، بل وعلى الرغم من تعرضه لنار كثيفة فإنه لم يصب. حمل دو فوترز رفيقه، الذي كان قد فارق الحياة. وعندما وجد دو فوترز الوقت لمراجعة الموقف، اكتشف أن كتيبة دو أويش من غير النظاميين كافة والقوات المساعدة قد اختفوا، فسقوط الرجل الأبيض قد أحدث أبلغ الأثر في معنوياتهم. فقط القوات المتمدنة تتحمل ضغط سقوط القائد. وإذ توجب على القوات النظامية أن يقوموا بنقل القتلى والجرحى بأنفسهم - وكانوا

عديدين - قرر دو فوترز [231] أن يتراجع. وما إن استوعب العدو الحركة، حتى ارتد إلى الهجوم، وبصعوبة كبيرة وعبر عدة هجمات وانسحابات نجح دو فوترز في دفن الموتى وفي أخذ الجرحى، مع البنادق والذخيرة وذلك في بواكير الاشتباك، بسلام وبعيداً من موقع الاشتباك.

ولقد جرح سيف بجرح قاتل في أثناء إحدى الهجمات العربية (وهو ابن تيبوتيب، وأكبر الزعماء العرب الذين هاجمونا على اللومامي)، ومات بعد ذلك بعدة أيام. واستمر العرب في مهاجمة الطابور المتراجع حتى بات على بعد مسيرة يومين من موقعنا في موانا مكوانجا. ولم يقرر القائد دانيس ما إذا كان ذلك بمثابة نصر أو هزيمة؛ حيث إنه على الرغم من أننا قد فشلنا في الوصول إلى الحصن وفقدنا دو أويش، فإن العرب قد فقدوا سيفاً والعديد من الرجال، وكمية من البنادق والذخيرة.

ولم يُقَمَّ بأيّ عمليات إضافية، عندما عبر روماليزا اللوليندي (Lulindi) (الذي كان في الحقيقة تقدماً آخر على كاسونجو)، أقام دو فوترز بمعية دوغم وأمبورسا نفسه على [232] بينا موسوا (Bena Musua) على الطريق بين موقع روماليزا الجديد وكاسونجو. وترك لونج، الذي شارف جرحه على أن يبرأ الآن، في موانا مكوانجا برفقة ضابطين آخرين.

جرى تعزيزنا في الرابع من ديسمبر بمائة وثمانين جندياً، بقيادة النقيبين كولنجنون (Collingnon) وروم (Rom)، وضابطين آخرين، وكمية جيدة من الذخائر مع ثلاثمائة بندقية بتعبئة من الخلف. وهكذا وجد القائد نفسه مرة أخرى في وضع لمباشرة الهجوم.

الفصل الرابع عشر

نقل قوات الدولة من كاسونجو إلى بينا موسوا - القائد يقسم قواته لأجل القضاء على المواصلات العربية - تركز المزيد من القوات في بينا جويبا، وعلى الطريق الرئيسي إلى كابامباري، وفي بينا كالونجا، وفي بينا موسوا - إعادة تعزيز العدو - قوات الدولة تشكل شبه دائرة تطوق الحصون العربية، وقطع إمداداتهم الغذائية - وصول النقيب لوتيف بمفرزة من الجنود من بنجالا - الانفجار في المعسكر العربي - استسلام العدو - الاستيلاء على كابامباري - أسر زعماء عرب على يد لوتيف

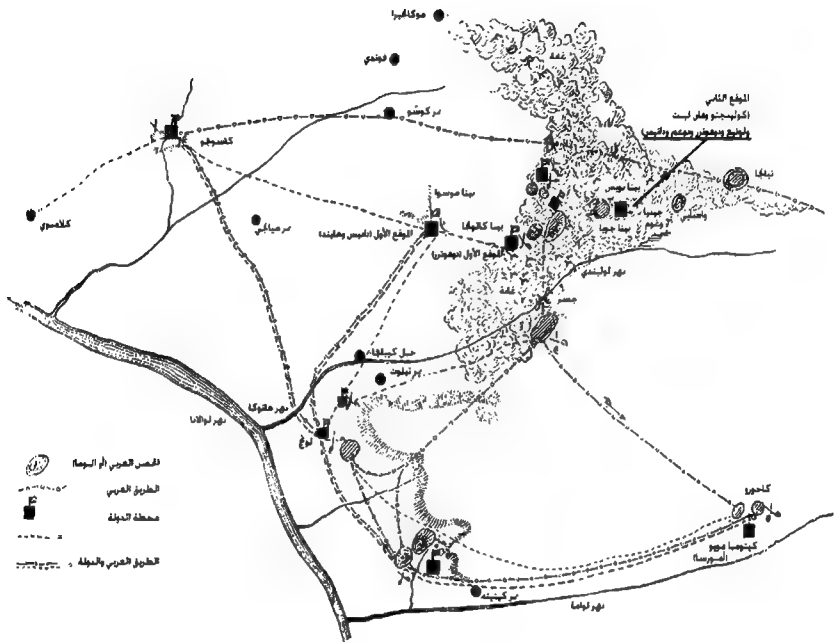
[233] بحلول العشرين من ديسمبر نقل القائد كل الضباط المتوافرين والرجال من كاسونجو إلى بينا موسوا (Bena Musua)، والتحق بنا [234] في الثالث والعشرين. وجرى تعزيز روماليزا، الذي بات في موقع قوي جداً، بامتلاكه حصناً كبيراً مبنياً بشكل جيد على الضفة اليمنى لنهر اللوليندي وثلاثة مواقع صغرى ومتقدمة باتجاه كاسونجو. وكانت لديه مواصلات مباشرة عبر جسر صغير (الذي نجح في بنائه على اللوليندي) مع القلعة التي قتل فيها دو أويش، وعلى ذلك فقد امتلك خطأً آمناً للمواصلات مع المدينة الكبيرة المحصنة، كامباباري. وكانت كامباباري في ذلك الوقت بيد بوانا نزيجي، ويذكر أنه قاد الهجوم على محطة ستانلي فولز، والذي انتهى بطرد دين (Deane) ودوبوا (Dubois)، وتأسيس السيادة العربية على الكونغو الأصلي. وعزز هذا النجاح العربي لاحقاً على يد ستانلي، الذي عين تيبوتيب، أكبر صائدي العبيد من العرب، حاكماً وبسلطة مطلقة تقريباً.

في الثالث والعشرين من ديسمبر دعي لمجلس حرب، والذي على أساسه قرر القائد دانيس أن يقسم قواته قدر الإمكان لأجل تقطيع شبكة المواصلات العربية بأكبر قدر ممكن. كانت لديه معلومات كافية تقريباً بأن رشيد والعرب [235] الآخرين من ستانلي فولز، الذين طردوا إلى الجنوب على يد القائد

بوانتييه (في حملته على كيروندو (Kirundu) وعلى نهر لوا (Lowa)) قبل أن يلتحق بنا، كانوا الآن قد توحدوا وباتوا يزحفون من الشمال الشرقي للاتصال بروماليزا. وبذلت كل الجهود من أجل قلب السكان الأصليين للمقاطعة أجمع بالتعاون معنا ولتزويدنا بالطعام، وبالتالي تجويع قوات روماليزا. وقد أخبرنا الكثير من الأصليين بأن بعض القبائل التي قد التحقت بروماليزا كانت مستعدة للقدوم إلينا وتنفيذ تلك السياسة. أنفذ كل من القائد جيليا والنقيب كوليغنون وروم بمعية قوة متمكنة من القوات الجديدة، وبدأوا السير يوم الرابع والعشرين من ديسمبر إلى بينا جويبا (Bena Guia) على الطريق الرئيسي إلى كابامباري. وفي اليوم نفسه توجه النقيب دوفوترز وضباط آخرون، بمعية مائتين وخمسين من النظاميين وأربعمئة من غير النظاميين، لتثبيت أنفسهم في بينا كالونجا (Bena Kalunga)، على مسافة ساعة إلى الجنوب الشرقي من الحصن الرئيسي في روماليزا. وقد سيطرت مع القائد في الوقت نفسه على بينا موسوا (Bena Musua) على الطريق الرئيسي إلى كاسونجو، والواقعة في مكان متوسط بين المنطقتين الآخرين [236]. التحق بنا السيد موهون (Mohun)⁴⁷ الوكيل التجاري للولايات المتحدة، والذي وصل قبل مغادرتنا كاسونجو بيوم. وكان قد شارك أيضاً في زحف النقيب تشالته على ريبا ريبا، لثمانية أشهر خلت. كان يتمتع بلطف كبير إلى حد أنه تحمل مسؤولية إحضار بعض تمويناتها من لوسامبو إلى كاسونجو. وكان موقفنا حينها على النحو التالي: كان ليميفي (Lemery) في القيادة في نيانجوي، وفي وضع خطير جداً حيث إن رشيد وقواته من الشمال، وبدل محاولة تشكيل ارتباط مع روماليزا، يلتف جانباً ويهاجم نيانجوي؛ وكانت كاسونجو بيد الملازم ميداج (Middagh)؛ وعلى أقصى اليمين كان لونج في

47 - ريتشارد دورسي لورين موهون (Richard Dorsey Loraine Mohun) (1865-13 يوليو 1915) مستكشف أميركي وجندي إثر الثروات. عمل كوكيل تجاري للولايات المتحدة في أنجولا ودولة الكونغو الحرة (http://en.wikipedia.org/wiki/Richard_Mohun) (المترجم).

موانا مكوانجا، وبصحبه مائه وعشرون رجلاً ومدفع كروب، في وضع محكم جداً؛ وكنت أنا ودو فوترز والقائد دانيس في الوسط؛ وكان القائد جيليا قد احتل أقصى اليسار في بينا جويا. وكان لدينا في الوسط مدفعاً كروب 7.5، ولأول مرة خلال الحرب، ذخائر وفيرة.



ووجد دوفوترز أن في إمكانه، وبسبب طبيعة [237] الأرض والأدغال الكثيفة، أن يهاجم أحد حصون روماليزا على بعد ثلاثمائة ياردة، دون أن يتمكن العدو من رؤية قواته. صمّم على تحقيق فجوة آملاً أن يستحوذ على الحصن. بدأ في السادسة من صباح يوم الثامن والعشرين. وبما أنه لم يكن لديّ على نحو خاصّ شيء أفعله، تسلقت قمة جبل يتحكم في رؤية منظر

العمليات، وكنت متألماً من رؤية ما كان يجري، دون معرفة النتيجة. وبعد قصف مدفعي منتظم حتى الساعة التاسعة كان هناك اشتباك بالبنادق على جانبي الحصن، وافترضت بالتوقف التالي أن الحصن قد استولي عليه، في حين أن الحال الحقيقية للأشياء كانت مختلفة تماماً. فلقد أحدث دو فوترز فجوة لا تتجاوز ياردة واحدة مربعة فقط، على الرغم من أنه قَرَّب المدفع إلى مسافة مائة ياردة من الحصن. وبينما كان مشتبكاً، وبدون معرفته، قام القائد جيليا بمهاجمة القلعة من المؤخرة، وبعد عشرين دقيقة من القتال العنيف أرغم على التراجع بعد خسائر فادحة. بعدها قاد دو فوترز ودوغم الرجال [238] إلى أعلى الحصن، إلا أنهما ما كان بمقدورهما فعل شيء لإقناع الرجال بتسليق الفجوة، على الرغم من أن بعضاً منهم قد تبعوا الخطى حتى الخندق. في النهاية، تراجع دو فوترز. وعندما سيطرنا على القلعة اكتشفنا أن خسارة العرب في ذلك اليوم لم تكن أكثر من اثني عشر قتيلاً، حيث إنهم كانوا محميين بأعمال التحصين الأرضية، وبالحفر التي كانت أسفل أكوأخهم.

أصبحت لدى القائد الآن صعوبات جديدة للتعامل معها، فلقد كانت لدينا معلومات محددة بأن بوانا نزيجي، كان يزحف، مدعوماً بقوات ضخمة من تنجانيقا وكميات من الذخائر، من كابامباري للإلتحاق بروماليزا، وأنه تموضع حينها في كيتومبا مويو (Kitumba Moyo). أنفذ الملازم أمبورسا بصحبة طابور قوي بأكثر ما يستطيع الاستغناء عنه، لفصل بوانا نزيجي أو إرغامه على العودة. وكان عليه أن يحقق التفافاً، فالبلاذ التي كانت على الضفة اليسرى من اللوليندي - ما عدا تلك التي كانت بأقصى اليمين في موانا مكوانجا - يسيطر عليها العرب. وكان الأصلون في المقاطعة معادين لنا أيضاً. وبعد أسبوع من القتال الدائم مع نزيجي - والذي تخندق في كيتومبا مويو - [239] - أرغم هامبرسين على التراجع. فلقد خسر الكثير من الرجال نتيجة القتال وانتشار وباء الجدري السيئ بين قواته. وفي أي حال فقد تضرر

نيزيجي، بقسوة، إلى حد أنه بدل محاولة التقدم للالتحاق بروماليزا، فإنه ما إن استدعي أمبورسا حتى رجع إلى كابامباري، وبعدها بفترة قصيرة، وعندما أخذت كابامباري، فر إلى زنجبار.

وفي الثلاثين من ديسمبر، وصلت رسل، رداً لطلب القائد لتعزيزات، من القائد تشالته في باسوكو، وأيضاً من المساقط (Falls)، بأن لا شيء سيرسل. تطوع السيد موهون بأن يذهب أسفل النهر إلى بوسوكو وأن يأتي بأيّ تعزيزات يمكنه تجميعها، وعلى ذلك غادرنا في الأول من يناير. فُصل في الثامن من يناير، النقيب كولنجون من جيليا، وثُبت في بينا بويس (Bena Bwesse)، أمام حصني العرب المتقدمين. وعلى ذلك استكملنا شبه دائرة لنا؛ وحيث باتت الدوريات تستطيع المرور بسلامة بالمقارنة بين مواقعنا المختلفة، لم يعد بمقدور العرب أن يحصلوا على تمويناتهم [240] الغذائية من الضفة اليسرى لنهر اللوليندي. وسرعان ما واجهوا صعوبة في تموين رجالهم بالغذاء، وكعادتهم، فلقد خربوا الكثير من البلاد التي زحفوا عبرها. وفي الثامن من يناير فوجئنا، وكنا مسرورين، بوصول القائد لوتيج برفقة مفرزة قوية من الجنود من بنجلا وضابطين لامعين. فلقد سبق الرسل؛ وفي الحقيقة فإن دانيس لم يكن قد أمل حتى الحصول على جواب للطلب الذي أرسله له، ولأسبوعين قادمين. ولم يكن للمرء إلا أن يقارن بشدة بين فعلي تشالته ولوتيج، استجابة للطلب نفسه الذي أرسل لـ كليهما. فلقد تحرك لوتيج على الفور بمعية مائتين من الرجال للالتحاق بدو فوترز، وأقاموا أنفسهم خلال يومين في موضع على بعد ثلاثمائة ياردة من بومة روماليزا نفسه، وبينها وبين بومته الأكثر تقدماً، وبذلك كان رجالنا في موقع يمكنهما من مضايقة الموقعين. وإذا كان لدى روماليزا انطباع أنهم إنما يستكشفون الوضع، لم يهاجمهم حتى استقام معسكرهم وحُصن جزئياً، في قرية مهجورة، وكانت الأكواخ فيها [241] مبنية من الطين، وهي حماية مفيدة جداً من نيران البنادق.

في الرابع عشر من يناير، وقد عاد أمبورسا من حملة ضد نزيجي، التحق بلوتيج، حاملاً معه كروب. ثبت المدفع في الموقع، وأطلق أمبورسا طلقة لقياس المسافة، حتى يكون كل شيء جاهزاً للقصف، والذي أريد له أن يكون في الصباح. على أن هذه القذيفة التجريبية، حققت نتائج اختلفت عما قصد بها: فلقد فجرت المخزن وأشعلت النيران في الحصن العربي. وبما أن الوقت كان فصل المطر، فإن الأكواخ والخنادق وحفر التراجع في القلعة كلها كانت قد بنيت بالأغصان بكثافة. وإذا أطلقت بضع طلقات صوتية منعت العدو من إطفاء النيران، وفي خلال دقائق كان الحصن بأكمله، والذي يغطي ثلاثة فدادين إلى أربعة، يغلي كمرجل من نار، وكانت الذخائر تتفجر بكل اتجاه. ولم تقف قواتنا ساكنة، بل حاولت أن تستفيد من الفوضى التي عمت العدو، وتسلبت التحصينات بكل اتجاه وقذفت بأكبر قدر من النيران من بنادقهم. ارتفعت درجة الحرارة في الداخل إلى حد أن رفع العرب الكثير من [242] الطلقات والبارود والفتيل إلى دفاعاتهم لتفادي تفجيرها. انتشروا من الحصن وهربوا هابطين إلى النهر، مرغمين على سلوك هذا الاتجاه بموقعنا القائم بينهم وبين بوماتهم الأخرى. ولدى الوصول عند النهر، تزاموا عند الجسر بأعداد كبيرة إلى حد أنه انكسر: وقد ضايقهم غير النظاميين والأصليون وحتى قواتهم المساعدة نفسها، وحيث عمّ الهلع توافروا إلى النهر، وفي محاولتهم تلك، أغرق كل منهم الآخر. ولا بد من أنه، مع سقوط الجسر غاصاً بالناس وبأولئك الذين قتلوا بأسهم الأصليين أو بالفرق، فإن خسارتهم عند النهر وحده لا بد من أنها بلغت مئات عدة. وكان تقرير اليوم قد أورد أن «خسائر العدو تفوق الألف». كان مغنمنا من الذخيرة قليلاً، لأن غالبيتها كانت قد تفجرت خلال النار، وكانت درجة احتراق البنادق والبنادق المترددة كبيرة جداً إلى حد باتت معه غير صالحة. وبدون أن يتابع العدو الهارب، أدار لوتيج اهتمامه إلى الحصن الثاني في جواره المباشر، وحاصره جزئياً. وفي اليوم التالي [243] التحق القائد بلوتيج، بعد وضعي كقائد للمركز في بينا موسوا، وإذا تسنّم القيادة، أكمل الحلقة حول البوما. ولقد تقدم الخط بحيث بات

رجالنا قائمين فعلياً بين العدو والجدول الذي يجلبون منه تموينهم المائي. ولقد حوفظ على المواقع لثلاثة أيام وليال، داوم العدو خلالها على إطلاق نار دائمة ثابتة، لم يرد عليها رجالنا؛ بل إن الحقيقة ما كادت تطلق طلقة من جانبنا حتى حاول العدو أن يقوم بهجمة مفاجئة. في اليوم الثالث، وتحت علم الهدنة، أرسل الزعماء العرب عشرة رجال إلى القائد يقدمون عشر بنادق لقاء قصعة ماء. أمر القائد بإحضار القصعة، ثم سكبها على الأرض أمامهم وأعادهم إلى الحصن ومعهم بنادقهم. وقد نجحت تلك الحيلة. وفي خلال نصف ساعة استسلم الحصن بشروط - فحين رأى الرجال الماء لم يعد شيء قادراً على ضبطهم. كدّسوا الأسلحة في معسكرنا، وبعدها تم تفتيش الحصن، خوفاً من خيانة، وسمح للبؤساء العطاشى بأن ينطلقوا إلى الجدول، الذي غطسوا فيه [244]. وما كادت هذه المسألة تنتهي حتى هب إعصار، وسقط من المطر في خلال عشر دقائق ما يمكنه أن يزود الحامية بالماء لشهر كامل لو أنهم قاوموا. وبهذا الاستسلام سقط بأيدينا ألفا أسير، وستمائة بندقية، وعشرون بندقية من البنادق المرتدة، وذخائر. في ذلك الوقت كان القائد جيليا قد غادر بينا جويًا والتحق بكوليجنون في مهاجمة الحصنين المتقدمين، وكلاهما واجه أعمالاً شرسة من المدافعين. وإذ سقطت القلعة الوسطى، تقدمت قواتنا بأكملها مع القائد دانيس لمحاصرة المواقع المتبقية للعدو؛ على أنه وقبل أن يتم ذلك استسلم الحصنان. قام النقيب روم بتصرف جريء (وبمعرفتنا للشخصية العربية) لكنه أحمق. أرسل بوانا نزيجي، أمر الحصون العربية، رسولاً إلى حصن القائد جيليا حاملاً معه قرآناً، قائلاً بأنه إن قدم رجل أبيض مع القرآن نفسه بيده فلن يلحقه أذى، وأن بوانا نزيجي نفسه سيرتب الشروط معه. وبينما كانت تجري مناقشة المسألة، أمسك النقيب روم [245] القرآن وانطلق به، قائلاً إنه لربما حقن ذلك دمًا. ذهب إلى الحصن، ورتب شروط الاستسلام مع بوانا نزيجي وفي نهاية مناقشة طويلة تبادل مع بوانا نزيجي علم الدولة براية نزيجي.

في الثامن عشر من يناير أرسل طابور إثر روماليزا، بقيادة لوتينغ

والنقيبين دو فوترز ودوغم. وإذ زحفوا ضاغطين على أنفسهم وصلوا إلى كابامباري في الخامس والعشرين من يناير، ووصلوا إلى أطراف المدينة في الرابعة عصراً، واخترقوها حتى قبل أن يجد العرب الوقت لإغلاق بواباتها. ونظر الأصليون والعبيد في الحقول المحيطة، في الوقت نفسه، بلامبالاة ودون اهتمام لوصولهم. ولربما عزيت سهولة تحقيق ذلك النجاح بسبب السياسة الممتازة التي اتبعتها القائد دانيس في مراحل الحملة كافة، وهي عدم السماح بالتدخل في شؤون الأصليين أو التحرش بهم إلا إذا هاجمونا فعلياً تحت العلم العربي. ولا بد من أن الأصليين قد باتوا يعرفون ذلك في مجمل البلاد، وعليه، فعند تقدم لوتيغ، فبدلاً من الهرب تحت وطأة الرعب إلى المدينة، [246] راقبوا بحب استطلاع، وبكل بساطة، قواتنا وهي تعبر. ويقال بأن روماليزا قد فر إلى الغابة بصحبة أربعة رجال فقط. وزحف دو فوترز وكتيبته إلى تنجانيقا، لفتح خطوط الاتصال مع قوات جمعية مقاومة العبودية، الذين تمددوا دون نشاط خلال حملتنا. وقابل النقيب دوكامب على الطريق، على بعد عشرين ميلاً من ألبرت فيل. وكان دوكامب قد تسلّم للتو إمرة قوات مقاومة العبودية، ونظم فوراً حملة لذلك وبات في الميدان. عاد دو فوترز برفقته، والتحقا بالقائد لوتيغ، الذي كان يزحف باتجاه الشمال - الشرقي طريق الأوجيجي، وكان هذا هو الطريق الذي سلكته بقايا القوة العربية في أثناء هربها. لقد استولوا على أربعة حصون على الطريق، التي كان المدافعون عنها في كل مرة يقومون بتركها ما إن تبدو قواتنا في الأفق دون إطلاق طلقة. ولدى الوصول إلى البحيرة، أقيمت محطة في بكاري (Bakari) على خليج بيرتون، والتي وضع الملازم لونج على قيادتها؛ وعادت القوات إلى كابامباري حيث أقيم معسكر كبير ومحصّن فوراً لمواجهة أي احتمال لعودة العرب من الجنوب أو الشرق [247]. استسلم الأصليون جميعاً وكل الجماعات الصغيرة المنعزلة من العرب؛ وألقى لوتيغ القبض على كل من رشيد وسعيد بن عبيدي وميسيريرا وأميسي (Amici). وكان سعيد بن عبيدي قد قاد أمين باشا من المقاطعة الاستوائية

إلى جوار كابونجي، حيث قتل أمين على يد الزعيم كيبونجي (Kibungi)،
واتهم سعيد بن عبدي بأنه هو نفسه على علاقة بالقتل. وبعد محاكمة من
المحكمة العسكرية برئت ساحته، ثم عاد معنا إلى أوروبا.

وفي الثاني عشر من مارس، عاد السيد موهون القنصل الأميركي، من
بوسوكو، بعد أن جمع معه حوالي مائة رجل، من الذين كانوا يتبعونه بقيادة
الملازم بولدوين (Baldwin). وسيدكر أنه بعد رفض القائد تشالته أن يرسل
إلينا أي مساعدة، عرض القنصل في الأول من يناير، بأن يذهب إلى أسفل
النهر ويجمع أي رجال يستطيع جمعهم، في وقت كنا فيه في ظل ضغط شديد.
لكنه عاد وأنجز عمله التطوعي هذا بنجاح، وإن كان الخطر، ولحسن الحظ،
قد تم تجنبه. ووصل الملازم بولدوين والرجال في الوقت المناسب.

الفصل الخامس عشر

وصف الحملة لاكتشاف أعالي مياه نهر اللوالابا

[248] باتت البلد في الوقت الراهن هادئة من الناحية العملية، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى تنجانيقا، وكان القائد يتطلع إلى معرفة ما إذا كان من الممكن استكشاف طريق مائي للبحيرة الكبرى. إذ كان يتوجب على طريق القوافل القديم عبر كابامباري حمل كل شيء على رؤوس الرجال، وكان ذلك بالطبع مكلفاً للغاية، وإيجاد طريق مائي حتى لجزء من الطريق سيعني تكاليف أقل على نحو كبير. تسلمت أمراً بأن أتلّم قيادة رجال بولديون وأن أشكل قافلة، لاستكشاف أعالي المياه في اللوالابا، والتي كانت غير معروفة حتى ذلك الوقت للأوروبيين.

وكانت تعليماتي على النحو التالي:

كاسونجو، 16 آذار (مارس) 1894

عزيزي الدكتور،

[249] يشرفني أن أبلغك بتكليفي لك لقيادة حملة استكشافية باتجاه تنجانيقا. لقد عبر الفنصل موهون عن رغبته في مرافقتك؛ وستساعده بأي وسيلة ممكنة. سترحل مع كتيبة باسوكو (Basoko). وسيكون هدفك متابعة [نهر] اللوالابا واللوكوجا (Lukuga)، وأن تقدّر صلاحية هذين النهرين للملاحة وحتى البحيرة. كذلك سيتوجب عليك، قبل كل شيء، تسجيل أسماء القرى، والزعماء والإشارة لأهميتهم، وتحديد بمن من القبائل العربية يرتبطون، وأن تحدد بأكبر قدر من الدقة إلى أي مدى ينتشر التأثير العربي. وبالمناسبة، أرفق بطيه تعليمات بشأن خط الرحلة. ستتقدم حتى إمبالا (M'pala) أو ألبرتفيل (Albertville). وإن شعرت بضرورة الذهاب إلى أي مكان ضمن حدود المنطقة الإدارية فيمكنك ذلك، على ألا يكون ذلك بعيداً جداً. أرسل التقارير عن وضعك له [؟] دوماً وكذلك رسمك لخريطة بحيرة كاسونجو. ولست مضطراً للبقاء في البحيرة أكثر مما هو ضروري فعلياً، وسيتوجب عليك أن تحضر معك بعض البطاطا الأوروبية وبعض بذور القمح؛ ويمكن توفير بعضها لكابامباري. سأبعث بمراسلاتك إلى ألبرتفيل ورزمك إلى كابامباري.

قائد القطاع العربي

كان تومسون (Thomson) وستانلي وآخرون قد اقترحوا أن اللوكوجا، الذي ينبع من تنجانيقا، يخلي نفسه للوالابا، أو بشكل غير مباشر في اللوالابا عبر بحيرة لانتشي (Lanchi). واقترح أيضاً أن اللوكوجا يصب في تنجانيقا، وليس منها. كانت تلك نقاطاً مهمة بالطبع ينبغي توضيحها. [250] رغب وكيل الولايات المتحدة موهون في مرافقتي، وبدأنا في ترتيب القافلة. وبعد استبعاد أسوأ الرجال من مفرزة بولدوين بعناية، وجدت خمسة وستين شخصاً قوياً لأصطحبهم معي. ولقد أثبتوا بأنهم مجموعة لصوص غير منضبطين وعاصين للأوامر فاضطرت إلى رفض التعامل معهم. فبالإضافة إلى عدم نفعهم بشكل عام، لم يكن بمقدورهم لا السباحة ولا التجديف - وهي من المضار الاستثنائية في رحلة مائية، حيث إن مسألة المواصلات، أبقتنا بالكامل بين أيدي الأصليين الذين مررنا في مقاطعاتهم. كان من بين هؤلاء الرجال خمسة من الأحباش، شكّلوا الناجين الوحيدين من فرقة مؤلفة من خمسة وسبعين شخصاً بدأوا من بوما للالتحاق بنا، حيث مات البقية على الطريق، لعدم قدرتهم على تحمل تعرضهم للطقس السيئ، والغذاء الرديء، والحاجة إلى العناية. وكان الأحباش الخمسة في حالة يرثى لها ويعانون من الحمى عندما التحقوا بنا، ولكن تراءى لي أنه بالإمكان أن يصنع شيء ما منهم بوجه من الوجوه؛ وهو ما ثبت فعلياً. فمع العناية والتغذية المناسبين أصبحوا أكثر الرجال فائدة [251] وأكثرهم جلدًا على العمل، وإخلاصاً بكل المفرزة. وفي مرات عديدة وحين كانت المفرزة على وشك العصيان، كان هؤلاء الأحباش يلتصقون بي وبموهون، وفي الحقيقة كانوا غالباً ما يصرون على أن يناموا على بعد ياردة أو اثنتين من خيمتنا.

في الرابع عشر من مارس وزّعت مائة طلقة وبزة جديدة لكل رجل. وأوقظت في تلك الليلة بإبذار حول اشتعال النار على جانبنا من كاسونجو، وحين هرعت إلى الخارج وجدت أن قسم المعسكر حيث أقام الكونجولا (Kwangolas) (كتيبتي الجديدة) وسط اللهب. وهبت في تلك اللحظة للأسف زوبعة، أو عاصفة صغيرة، وفي لحظات كان قسمي بأجمعه من المعسكر

يتأجج بالنيران. وكان رجالي، وبافتراض أنهم قد عملوا لسته أشهر كجنود، عديمي الفائدة على الإطلاق، وعلى ذلك فقدت ثلاث بنادق وما يزيد على السبعمائة طلقة، لم أكد أنقذ نفسي لمّرتين، من الرصاص المتفجر حين كنت أحاول إنقاذه. ومع ذلك فقد وبخني القائد بقسوة على خسارة الذخيرة، وتوجب عليّ أن أبدأ في اليوم التالي دون أن يسمح لي بتعويض الخسائر. [252] زحفنا إلى فرهاجيس (Farrahgis) على اللوالابا، حيث زُودنا بالقوارب. وكان لدى موهون ستة رجال خاصّون به، وطباخ من الهوسا كان بدوره مترجماً مفيداً وطباخاً جيداً حين لا يكون سكرانا. وأضعنا يوماً كاملاً نحاول فيه الحصول على قوارب كان يفترض أن تكون جاهزة لنا. فلقد قام الوجيهين، متناغمين وغيرزتهم، بالاستيلاء على أفضل القوارب وأكبرها التي تمكنوا من وضع أيديهم عليها وأخفوها في وسط البحيرات والمستنقعات. على أننا تمكنا في أيّ حال من تجميع اثني عشر قارباً، كانت كافية لنقل الفرقة كاملة. شكّلت تلك القوارب والتي نُحِت كل واحد منها في الأصل وببساطة من شجرة واحدة، وسيلة مواصلات عظيمة. حمل الأكبر الذي كان تابعاً لموهون ستين رجلاً للتجذيف؛ واثني عشر جندياً بمعداتهم وغذائهم؛ وموهون وفراشه ومتاعه في بيت بُني على أحد القوارب، والطباخ فيليب واثنين أو ثلاثة من الخدم الآخرين؛ مع نار للمطبخ، وعنزتين للحليب، ونصف طن من المخازن. ولقد مرّ هذا القارب خلال أكثر المغامرات الخارقة دون أن يتلف. وحين كان يهبط المجاري بسرعة [253] عشرين ميلاً في الساعة، كان غالباً ما توقفه فجأة وبسرعة تامة صخرة ترسل نصف المجذفين خارج السطح. (في هذه المنطقة، يجذف الرجال جميعهم وهم واقفون، حيث يجري تسطّيح كل من مقدمة القارب والدفة على هيئة منصة، بمساحة ثلاثة إلى أربعة أقدام مربعة، التي يمكن لعدد من الرجال أن يقفوا هناك أثناء العمل). وبعد أشهر عدة من الأعمال الصعبة، التي لا أعتقد أن أي قارب آخر سيحملها، تركت هذا القارب في ستانلي فولز، في حالة بدا فيها أنه كما لو كان جديداً.

في السابع عشر من مارس بدأنا، وخلال ساعة كنا نتقدم باستخدام أعمدة التقدم ساحبين القوارب إلى المجاري الأولى. وأمضي اليوم الأول في هذا العمل. وحين يكون التيار قوياً، أو حين يكون هناك شلال قوي بارتفاع قدمين أو ثلاثة أقدام ليمتطى، نقطع معترشات حبال القروء، ونصلها ببعضها بالقوارب ونضع مائتين من الرجال يجذفون، وبهذه الطريقة نسحبها بمحض القوة البدنية. وغالباً ما نحصل على كل المساعدة التي نود أن نحصل عليها من قرى السّماكين على ضفة النهر، لقاء بضع ياردات من الأقمشة، أو حفنة أو اثنتين من الخرز. [254] وأحياناً يكون الجزء الممكن العبور منه من شلال أو منحدر سريع مسدوداً بمانع قوي، صنع بعضه من شجرة بأكملها، يتضح أنه قد وضعه الأصليون هناك عندما يكون الماء واطئاً. وتترك فتحات بسعة قدمين أو ثلاثة أقدام مربعة في هذه السدود، وتغطي بمصائد أسماك تشكل على هيئة شرك أم الريبان ومصنوعة من شبك مجدولة⁴⁸. وغالباً ما توضع فتحات تلك المصائد باتجاه أرضية النهر، لأجل أن تصطاد الأسماك التي تحاول صعود أعلى الجدول حين تتغذى. ولقد وجدت في إحدى تلك المصائد، والتي بلغ قطرها ما يزيد على الثمانية أقدام، نوعاً من الشبوط بزنة خمسة وعشرين رطلاً. وهذا النوع من الشبوط يكون بلون بني مائل إلى الذهبي، وهو ألد سمك ذقته من مياه الكونغو.

وتميل صخور تلك المنحدرات السريعة إلى لون بني غامق - ضارب في السواد - فيه خطوط حمراء، وهو ما يشير إلى ثراء هائل بالحديد. وعلى ذلك، وجدنا صعوبة في مسح هذا الجزء من النهر، حيث باتت بوصلاتنا عديمة الفائدة، تشير دائماً إلى أقرب صخرة. وكانت الطرائد كثيرة، وخصوصاً

48 - مصائد لجراد البحر وهو نوع كبير من الجمبري أو الريبان ويطلق عليه في الخليج اسم أم الريبان [http://images.google.com.bh/images?q=lobster+pot&oe=utf-8&rls=org.\)](http://images.google.com.bh/images?q=lobster+pot&oe=utf-8&rls=org.)) mozilla:en-US:official&client=firefox-a&um=1&ie=UTF-8&ei=cxbsStPFElXSJAFnlybDQ&sa=X&oi=image_result_group&ct=title&resnum=4&ved=0CBgQsAQwAw (الترجم).

في المنحدرات السريعة. [255] وانتشرت طيور مالك الحزين بألوان وأحجام متعددة، من أسراب النوع الأبيض الثلجي، إلى الطيور الفردية الهائلة الحجم. ولقد كان حجم أحد الطيور الأخيرة من طرف الجناح إلى طرفه الآخر ثمانية أقدام وست بوصات، وستة أقدام من طرف منقاره إلى طرف ظفر قدمه. وأمكن رؤية نوع من الزقزاق، أو رسول الغيث، إلى نصف دزينة من البط (ducks) بألوان وأحجام متعددة في كل اتجاه. ولقد اصطدت عدة بطات من النوع الرمادي (sperm-wing geese)، التي على الرغم من أنها لم تكن في موسمها، فإن أعضاء القافلة أحبّوها كثيراً. وكانت أفراس النهر نادرة نسبياً، حيث تعلم المحليون كيفية قتلها بالرمح، أو بالمصائد العادية للأفراس. وتكونت تلك من رمح يثبت على رافدة خشبية، تعلق في موقع مناسب قرب ضفة النهر، على أن يربط الحبل المعلق بمقداح يوضع في طريق الفرس. وحين كنا نسكر في القرى، كنا نرى رؤوس أو أسنان أفراس أو الخنازير الأفريقية ذات الثآليل (wart hogs)، والخنازير البرية، وأحياناً بعض الجواميس أو قرون الظباء. وعلى الرغم من انتشار الأفيال والجواميس في المقاطعة كافة، فإنه نادراً ما يجري التحرش بها، نظراً إلى أن الأصليين يخافون منها كثيراً.

[256] وفي العشرين من مارس، وبعد يوم عمل شاق للغاية، وصلنا إلى قرية مونا تامبوي (Mona Tambui). التي كانت تقع على جزيرة، تحيط بها وتخترقها مجار سريعة وجداول، في حين أن النهر الرئيسي يمر في مقدمة الجزيرة - ليشكل موقعاً جميلاً للغاية، وهو مكان يتحكم في البلاد المحيطة بالبقعة تماماً. جلسنا أنا وموهون في مقدمة القرية وتسلينا باصطياد البط، الذي استمر في المرور فوق رؤوسنا والعودة إلى أراضي تغذيته. ولقد خرج السكان بأكملهم، مظهرين عجباً وسروراً فائقين من قدرتنا على اصطياد الطيور في حالة طيرانها، التي اعتادوا خلال وجودهم على رؤية أسراب منها تمر بهم كل يوم.

ومتى كان الوقت مناسباً، نمنا في قرى الأصليين، بدل النوم في القوارب، أو بإقامة خيامنا. ولقد كانت معظم تلك القرى معادية، وإن لم يكن سكان القسم الأعظم من المقاطعة، يعرفون ما هي البندقية، وعاشوا وسط الاعتقاد بأننا مسلحين بهراوات، بل حاول عشرون منهم أو ثلاثون أن يستعدوا لمهاجمتنا بسهامهم ورماحهم. [257] ولقد وجدت أن أفضل طريقة للاقترب من قرية (والتي غالباً ما يتجمع مقاتلوها عادة على الشاطئ، وسهامهم على النبال) هو بترك بقية الأسطول الصغير على مبعده، وأن أعرض، من قاربي، مناديل وأسلاك الخرز كلما اقتربت منهم - وأن ألقى وبأسرع ما يمكن بعض حفنات من الخرز على الشاطئ. وإن وجد في القرية أي ممن يمكن أن يتحدث بالسواحيلية، أو أي لغة نعرفها، أسارع إلى الاتصال بالزعيم. وبعد أن أقدم له هدية، واعداً إيّاه بهدية أكبر في اليوم التالي، أعطيه نصف ساعة لإخلاء القرية من النساء، والبضائع والأمتعة والعبيد، موضحاً بأن رجالي من المرجح أنهم سيستولون على أي شيء يتركه خلفه. وبذلك كنت أنجح بشكل عام في المرور عبر البلاد دون أي ازعاجات من الأصليين. وما إن نستولي على القرية، وما إن نتبين الغذاء الذي ترك إثر ذلك، نبدأ بشراء ما نراه ضرورياً. وكان هذا يستثير استغراب الأصليين، الذين لطالما اعتبروا أنهم يضطرون لإطعام المسافرين لقاء لا شيء إن كان [258] من يطلق عليهم اسم العابرين بقوة كافية لطلب ذلك. وغالباً ما ننهي مبادلاتنا التجارية بنثر حفنات من الخرز، أو المناديل أو الأسلاك؛ أو ببدا سباقات، يكون أحد المناديل أو جرس صغير هو الجائزة وقد ثبت بأعلى شجرة أو كوخ. فيهرع السكان بأكملهم للسباق ويتقاتلون من أجل الجائزة، وفي الغالب يهيئون الشيء الذي علقب الجائزة في أعلاه على الأرض وسط جهدهم للحصول عليها. وإذا ما نجحنا في إقامة تلك العلاقات مع الأصليين فإننا قلماً نجد صعوبة في الحصول على رجال للتجذيف بنا في طريقنا صباح اليوم التالي. وإن صدف أن كان معسكرنا في المساء التالي وسط شعب من القبيلة نفسها، أو بين قبيلة

صديقة للمضيف السابق، فإننا سنجد أن سمعتنا قد سبقتنا، وأتينا نستقبل بأذرع مفتوحة. وفي أي حال أحياناً كانت تطرح المسألة نفسها على الجانب الآخر ولا تسير الأمور سيراً حسناً، إذ عادة ما تبدأ المشاكل من عصيان رجالي أنفسهم. ففي مرة أو مرتين وبينما كنت على الشاطئ أرتب الأمور مع الزعيم، مصحوباً [259] باثنين أو ثلاثة من الأحباش، تسلكت قوارب عديدة إلى الضفة أدنى المنطقة السفلى، بقيادة المجذفين الأصليين - الذين، مثلهم مثل غالبية الأصليين، ينهبون أو يقتلون جيرانهم وأقرباءهم دون تردد - وهاجموا القرية من المؤخرة وبدأوا النهب. ولقد وضعني ذلك عدة مرات في أكثر الأوضاع صعوبة وخطورة. وعلى الرغم من أنني جعلت من أسوأ الحرس السود دروساً بمعاقبتهم، فإن المصاعب استمرت تقريباً إلى نهاية الفصل. فما إن وصلنا إلى أعلى قرية فامبوسي (Fambusi) لم نعثر على المزيد من الوجينيا، وكان يطلق على شعب الماء هنا ووجابيليو (Waujabillio). ولقد كانوا عرقاً جيداً؛ فكلهم طوال القامة، وسيمو الهيئة، سمر البشرة يسرحون شعرهم بأكثر الطرائق غرابة؛ وإن كان مثيراً إلى حد كبير أن بدا أن الرجال هم فقط من يهتمون بهذا الجزء من هيئتهم، ونادراً ما رأيت امرأة بدا أنها تقوم بأي جهد على الإطلاق للاعتناء بتصفيف شعرها. ولربما عاد ذلك إلى أننا رأينا عبيداً فقط - حيث إن النساء الحرائر وزوجات الزعيم قد جرى إبعادهن عن ملتقانا. كان الرجال يرتدون رباطات من التعاويذ معلقة حول رقابهم وأوساطهم، وبعضها كان يمثل صور [260] نساء ورجال، نحتت جميعها من العاج بجمال أو من أسنان الخنازير الأفريقية ذات التأليل. يلفون جميعاً حول وسطهم قطعة من قماش محلي، نسج من نسيج نخلة، يسمى مادبا (madeba). وكانوا مسلحين بأقواس وأسهم قوية، وقد صنعت الأسهم على نحو جيد، برؤوس تنتهي بالحديد، ومغطاة بالسم. لكن هذا السم لم يكن على الدوام قاتلاً، وربما عاد ذلك إلى حقيقة أنه وباتساق مع غالبية السموم المحلية التي رأيتها في حوض الكونغو، فإنها تفقد قدرتها القاتلة إن لم تكن طازجة.

وحين أصيب أحد رجالي بسهم شلّ فخذه، وقد غطي بطبقة غليظة ممّا يسمى بالسم، فإنه لم يمّت، على الرغم من أن العلاج الوحيد الذي استخدمته كان شراب النشادر أو الأمونيا والماء، وقطرتين من النشادر في كل من الجرحين. لقد ألمه هذا كثيراً، وشكّه الألم في أنفه وحنجرتة وعيونه إلى حدّ أنه استنتج بأن طب الرجل الأبيض يفوق كثيراً السم المحلي، ولذا، صمم على أن يحيا. واحتفظ تقريباً كل من رأيت من الوجود جايوليو بموس مثير به شفرة مثانة ثبتت على مسكة، وأدخل في غمد، وعلق من حزام الوسط أو الرقبة. وكانت [261]، لسبب لم يحدد، تحمل دائماً والمسكة للأسفل، والشفرة قد أدخلت في الغمد على نحو محكم إلى حدّ أنها لا تسقط خارجاً. وكان نحتهم على الخشب والعاج جميلاً حقاً، وكنت محظوظاً لتمكّني من أن آخذ معي إلى إنجلترا بعض نماذج جميلة بهيئة مجاذيف، أو عصي المشي، ومقابض فؤوس، والتي باتت الآن في المتحف البريطاني. وكانت بيوت هذا العرق مثيرة أيضاً: فهي تبنى من الطين، وتتكوّن من غرفتين، أمامية بحجم سبعة أمتار مربعة، وأخرى خلفية - والتي تشكل الجزء الأساس من البيت - ذات تشكيل دائري بقطر عشرة أقدام. ويتم نسج الكوخ بمجمله ويسقف الجزء الدائري على هيئة خلية عسل، في حين أن المربع يكون على هيئة سطح واحد مائل. ويوجد في الداخل دائماً ما بين عشرين إلى ثلاثين عارضة من الخشب المغطاة بالسخام. وكما هو جلي فقد استخدم بعضها كأسرة، على أنني لم أكتشف أوجه استخدام البقية قط، وإن كان الاعتقاد العام في القافلة أنها تستخدم لتشكيل منصات لعمل السمك أو اللحم المدخن. وعلى ما يبدو، يصعب تصديق ذلك، مع وجود الخيار الآخر الأبسط وهو العصي المشتعلة. ويوجد في كلتا الغرفتين الداخلية والخارجية منصات طينية مرتفعة، [261] بطول ياردة وعرض قدمين تقيد كمواقع إشعال نيران. وبين هذه المواقد توجد دائماً أشكال طينية مخروطية من الطين على هيئة مزهريات معتادة مقلوبة رأساً على عقب. توضع ثلاث من تلك قريبة من بعض وتشعل النار بينها لتشكل الأثاث الأساس لقدر ظبيخ. وينتشر هذا

النظام في كل من منطقتي اللوالابا واللومامي. وفي أجزاء أخرى من الكونغو رأيت أعشاش النمل بشكل المشروم تستخدم لهذا الغرض. وتغزو البيوت كلها أعداد هائلة من الفئران، ومما يبعث على الخوف والفرع أنها كلها مستأنسة. واعتادت أعداد هائلة الحجم منها، أن تتجول ليلاً في أعلى وأسفل شبكتي المانعة للبعوض، وفي أكثر من مرة قطع الخيوط وهبطت بجسمها الصلب فوق في الفراش. ولقد اعتدنا عليها إلى حد أنها لم تعد تسبب لنا أي إزعاج، إلا إذا كانت من النوع السام ذي الرائحة (musk variety) وهو حيوان رمادي بأنف طويل بحجم فأر مجارينا، وهذه الفئران تتصف بخاصية بغیضة وهي أنها أينما تذهب أو تلمس أي شيء يتلوث برائحة كريهة تبقى لأيام لاحقة. وكان يكفي وجود أحد تلك الفئران في الكوخ لوفشلت في اصطیاده، لأضطر إلى تبديل المكان. وكان العدد الهائل والاستثنائي للفئران الموجودة في تلك المقاطعات قد قادني إلى الاستنتاج بأن هؤلاء المحليين، على غير عادة أجزاء أخرى من حوض الكونغو، لا يستفيدون من الفئران كغذاء.

وما إن تخلصنا من الواجينا حتى تزايد قلقنا اليومي بسبب أننا كنا خارج منطقة النفوذ العربي. فلقد وجدت أن الشعوب والقبائل التي اعتادت على الاحتكاك بالعرب كانت متمدنة ولطيفة، وتعلمت، بدون شك، أن أفضل وسيلة للتخلص من الزوار الطيبين والسيئين هو بمساعدتهم على المضي في طريقهم. وكان أحد أصعب الناس الذين توجب علينا أن نتعامل معهم هو زعيم اسمه كيتينجي (Kitenge)، وهو تابع قوي وغير منضبط لأب عجوز حيي وذي طبيعة طيبة اسمه كونغولو (Kongolo) والذي زرنه لاحقاً. كان مقر كيتينجي على جزيرة صغيرة في وسط النهر. وكان الجزء الأعظم من هذه الجزيرة قد تشكل من نبات عطري أبيض جميل، وكان الوصول إليها يمر بأحد أجمل المناظر التي رأيته في حياتي. وفي الجزء الأدنى من الجزيرة كانت هناك مجموعة من الشلالات والمنحدرات النهرية تسمى نيانجي (Nyangi). [264]

وقد ارتفعت وعلى نحو مفاجئ على قمة عظيمة من المرو على الضفة اليسرى من النهر؛ وفي أسفلها، انتصبت كتل ضخمة، تراكت بأشكال فائقة الجمال، وتمتد إلى النهر. وفي وسط أحد المنحدرات النهرية تنتصب كتلة من النبات العطري على هيئة مخروط يُتوجها سهل أو سهلان صغيران معشبان تقوم بهما شجرتان أو ثلاث شجرات، وحولها تحوم أسراب من النسور البيضاء والسوداء. واستقام على الجهة اليسرى منحدر التل بحدة من ضفة النهر، مشكلاً قمماً عمودية تغطيها حشائش متفرقة.

وكان كيتينجي قد وعدنا بالغذاء والرجال للتقدم في رحلتنا، لكنه تركنا دون أي منهما، وبتنا على الطوى في الجزيرة. وفي اليوم التالي جدّد وعده، لكنه احتج بأن لا رجال عنده بين يديه؛ وقال إنه أرسل إلى بعض منهم في الداخل، وحيث إنه ليس لديه قوارب ولا مجاذيف فسيتوجب علينا أن نغيره تلك العائدة لنا لإحضار الناس من البر الرئيسي. وبينما كنا نتحدث على هذه الشاكلة، رأينا ثلاثة قوارب تعبر بهدوء النهاية الدنيا من الجزيرة. وبينما شاغلت الرئيس بالجدل الدائر، أرسلت بعض رجالي وبمعيّتهم الأوامر بمصادرة القوارب، [265] وهو ما قاموا به بنجاح وأحضروها إلى نهايتنا في الجزيرة مما أوقع الكدر في نفس الزعيم. وكان في أحد القوارب سمكة ممتازة من نوع القط تزن حوالي مائتي رطل، وكانت مقبولة جداً للعساكر الجائعين. وبواسطة تلك القوارب، عبر أوماري (Omarri) المترجم وبضعة رجال إلى البر الرئيسي، في حين أن الزعيم كان محجوزاً بواسطة بواستنا على الجزيرة. وبعد ساعتين عادوا ومعهم كل ما نريد، وبدأنا وسط الانطباع بأننا قد انتهينا من كيتينجي؛ ولكن، بدا أننا لم نكن قد فرغنا منه نهائياً. ففي وقت متأخر من اليوم، وبينما كنت أمر بمنطقة صعبة من المنحدرات النهرية، في نهاية المنحدر التالي بانتظار قدوم بقية القوارب، رأيت المحليين يلقبون أحد القوارب في وسط المجرى عمداً. وعلى رغم أن مياهه كانت هادئة، بحيث إن

الكُونجولا (Kwangola) لا يستطيعون السباحة فلقد غرقوا كلهم. ولحسن الحظ فلقد احتوى القارب على ثمانية رجال- وكان أحدهم المترجم أوماري، الذي سبج نحو الضفة ببندقيته لتعقب الأصليين. ولم يكن يتأتى لي فعل شيء بالطبع [266] من موقعي على الصخرة، فقد كان هدير الشلال بالأعلى يمنع أيّاً كان من سماع التوجيهات التي كنت أصرخ بها. ولم تدم الفاجعة إلا بضعة ثوان: رأيت رأساً ويدين تظهران، ثم جرى النهر العظيم متقدماً، دون ترك أي إشارة على ما حدث. عاد أوماري إليّ، ولكن المجذّفين المحليين اختفوا كلهم في الدغل، ولم أر أيّاً منهم أبداً.

وفي المساء كنا لا نزال في المنحدرات، وحيث كانت هناك صعوبة كبيرة في الحصول على قارب موهون التحقت به على القارب. وفي الغسق، وحيث نجحت في إيصال نصف القارب فقط إلى قمم صخرية، قفز المحليون كلهم من السطح وسبحوا إلى الساحل على بعد ميل في الظلام الداكن. ولسوء الحظ فإن التموينات وفرش النوم قد سبقتنا في القوارب الأخرى، وتركنا في وضع لا نحسد عليه في تمضية الليل في قارب رطب، يقلقنا عدد هائل من البعوض والجوع، وببيلنا ضباب كثيف. وفي الصباح التالي عاد خدمنا والمترجم والأحباش وساعدونا على التخلص من المأزق؛ أما بقية رجالنا، واذ ظنوا بأنهم تخلصوا منا، فقد باتوا يمتعون أنفسهم في الوقت نفسه، مما ضايق المحليين. [267] اكتشفنا لاحقاً أن كونغولو - الزعيم الأكبر لمجمل المقاطعة- والذي قدمنا بعدها إلى قريته، قد أعطى أوامره بألا يسمح لنا بالنزول. كانت قريته تقع فوق المنحدرات، وعندما ظهرنا، وعلى الرغم من أوامره، فإنه، قام بالعمل بأفضل ما يكون لإنجاز مهمة اعتبرها سيئة، وعاملنا بشكل جيد للغاية. ولقد علمنا منه أنه يمكن أن نجذب في النهر لثلاثة أسابيع لاحقة دون أن نواجه مزيداً من المنحدرات. ولربما لم يكن هذا صحيحاً، وقد أسفت لأننا لم نتمكن من التأكد من دقة ذلك؛ وذلك أننا في الواحد والثلاثين من مارس، وبعد

أربعة أيام، وصلنا مصب اللوكوجا (Lukuga)، وبصعوده عدنا أدرانا. وقبل الوصول إلى هناك مررت بتجربة لا تبعث على السعادة. ففي قرية كيبينيما (Kiebenema) التي تقع على بعد نصف ميل من الضفة التي كنا نخيم عليها، انطلق عدد من رجالي دون ضابط وأخذوا ينهبون القرية. وقدم الزعيم إليّ محتجاً من المعاملة التي يلقاها شعبه، لكنه هدأ، بعد [268] أن تابعت الرجال، وأخذت منهم الطيور والماعز وبقية الأشياء التي نهبوها، وأعدتها إليه. على أن أحد الأوغاد عندي، وإذ رأى مآل الأمور، اندفع مع فريسته، وعندما قدمت إليه، راوغ خلف دغل. وسمعت مؤخرة البندقية تطقطق حين فتحها. وحين قفزت في الدغل والمسدس بيدي، قفزت في اللحظة المناسبة لطرحة ومؤخرة البندقية بعد أغلاقها وقبل أن يحصل على الوقت الكافي لإشهارها عليّ. وبعد أن جرح جرحاً بالغاً بسبب الضربة، جردته من السلاح. ولقد كان الوقع المعنوي لتلك الحادثة على الرجال ملحوظاً للغاية، ولم تظهر بعدها أي مظاهر مكشوفة للتمرد إن كنت في الجوار.

لم يرتفع اللوكوجا، أو كما يطلق عليه الأصليون في مصبه، اللومبريدي (Lumbridgi) في هذا الوقت - بواكير أبريل - لعدة أقدام تشكل أعلى ارتفاع للماء. فهذا النهر يخلي نفسه مباشرة في اللوالابا. وليس هناك أي إشارة لبحيرة لانتشي (Lanchi)، والتي رسمت في عدة خرائط في هذه النقطة. وليس هناك حتى اتساع للوالابا يمكن أن يؤخذ خطأ على أنه البحيرة [269] إن كان أعلى مصب اللوكوجا أو تحته. وجدنا مصب النهر، الذي ينقسم هنا، وقد سد جزئياً بدلتا باتساع نصف ميل وبطول ميل ونصف. لقد كان النهر في أعلى الدلتا بعمق عشرة أقدام، وبمياه صافية جداً، وراوح عرضه ما بين ميل وربع وميل عرضاً، وبالععمق نفسه على طول ذلك. ونما عشب طويل على جزء كبير منه، ولم تظهر أي إشارات بوجود مستنقعات حول ضفافه. اضطررنا للتوقف التام تقريباً أمام الأعشاب على بعد بضعة أميال في أعلى النهر، والتي ارتفعت بطول ستة أقدام أو سبعة، أعلى من مستوى الماء وحجبت كل

مدى النظر. كان الماء في هذا النقطة على عمق أكثر من خمسة أقدام أو ستة، وواجهتنا صعوبة كبيرة في التجذيف، أو استخدام الأعمدة أو حتى دفع القوارب إلى الأمام. ولقد شعرنا بالضيق التام في هذه البرية من الأعشاب التي بلا أثر، ولم نتمكن من تتبع النهر إلا بالسير عكس التيار، حيث إن الضفة كانت مخفية تماماً. وبعد أميال عدة في سفر غير مريح، عثرنا على امتداد مائي مفتوح، باتساع أربعين ياردة، والذي قادنا إلى قرية [270] أنجوما (Angoma). ولقد طُرح أنه بالنظر إلى مستوى ارتفاع الأعشاب والنباتات الأخرى مع البقايا التي يراكمها الراشح من الماء عليها، فإن اللوكوجا أحياناً ينسد، وأن ذلك ربما كان السبب للتغير الاستثنائي في مستوى الماء والذي لوحظ في تنجانيقا.

فلقد أخبرني السير فرانسيس دو وينتون (Sir Francis de Winton)⁴⁹ أنه في إحدى السنوات حين كان في فيفي (Vivi)، قرب مصب الكونغو، ارتفع النهر إلى ما يزيد على الأربعة عشر قدماً في ليلة واحدة. وباستفسار آخر فلقد تمكن من تأكيد تقرير لاحق من ستانلي بول بأن التأثير قد صار إلى أن تتشكل بحيرة عظيمة في الأعلى. وهناك شيطان فقط يقالان بهذا الاتجاه، الأول أن الأمر يفتح المجال دوماً للشك في ما إذا كان انفجار سد على اللوكوجا سيؤثر في النهر العظيم الواقع على بعد ألف وستمائة ميل للأدنى إلى حد ارتفاع مستواه بنسبة أربعة عشر قدماً في ليلة واحدة؛ الثاني، أن ما ينطبق على تنجانيقا يمكن أن ينطبق أيضاً على بحيرة ليوبولد الثاني، أخذاً بأن البحيرة الأخيرة أقرب نسبياً إلى الساحل.

وحين كنا قرب مجموعة أغصان ناشئة (spur-wing) [271] بدا أن البطل يستعد للتجمع في أفواج استعداداً للهجرة. ولقد جذفت لساعات بدون

49 - هو من المرجح السير فرانسيس دو وينتون المدير العام للكونغو (1884 - 1886) وعاش بين 1835 - 1901 http://openlibrary.org/b/OL14810710M/Sir_Francis_de_Winton_ (administrateur_general_du_Congo_1(1884-1886) (المترجم).

توقّف عبر أكبر سرب من الطيور رأيته في حياتي. كان النهر وضافه والجزر والسهول إلى منتهى النظر، كانت كلها مغطاة بالبط، ولم يكن يرى هنا أي طائر غير البط.

وصلنا امبورى (M'buli) أو امبولي (M'buli) كما يلفظها الأصليون (الذين لا يستطيعون لفظ الحرف «ر») في الرابع من أبريل. وكانت هذه أبعد نقطة من اللوكوجا وصل إليها كل من تومسون أو دولكومون. وأنا ممتن للقول بأنني لم أحقق اختراقاً إلى الأمام حتى أنجز استكشاف الأجزاء غير المعروفة من النهر. أصابتني حمى شديدة لبضعة أيام، وعندها بت أهدي.

الفصل السادس عشر

رحلة العودة إلى الساحل

[271] في الحادي عشر من أبريل تسلّم السيد موهون زمام قيادة الحملة، وعاد إلى أسفل النهر، آملاً أن يعيدني حياً إلى كاسونجو، حيث كانت هناك بقية أمل في العثور على الأدوية اللازمة والقليل من الغذاء. وفي أول ليلة (وعندما نزلنا على شريط من الرمل تحت قمة عالية غُطيت بالأدغال) هاجمنا الأصليون ظانين بأننا بتنا وجلين من التقدم، وأننا لسنا حقاً أقوياء كما كانوا يظنون في البدء حين كنا نصعد النهر. كنت أضعف من أن أتمكن من الجلوس، واستلقيت دون أي قدرة في حين أن المناوشات تشتعل حولي؛ كان كل واحد مشتبكاً، ولم أكن لأحصل على معلومات عما كان يجري حتى عن الساحل الرملي الذي أرسى قاربي عليه. وانتهى الأمر بأن طُرد الأصليون، تاركين بعض الأسرى، وقتلاهم والموشكين على الموت بين يدي موهون. [273] لكن موهون أعطى كل أسير هدية، وأطلق سراحهم في الصباح بعد أن حاول أن يشرح لهم أننا لم نأت إلى هنا للقتال. ولما عدنا للوالابا اكتشفنا أن المياه قد ارتفعت بضعة أقدام، وكنتيجة، بات في إمكاننا أن نتجاوز منحدرات سريعة عدة، وكان سيتوجب علينا أن ننزل من قواربنا لتعامل معها. لم تكن الرحلة طيبة بالنسبة إليّ، فبالإضافة إلى وقوعي مريضاً لم أكن قادراً على تناول لحم الماعز، الذي كان الغذاء الدائم. ولم أحتفظ إلا بقليل من الذكريات عن بقية الرحلة. وصلنا إلى كاسونجو في الخامس والعشرين من أبريل، لنجد أن البارون دانيس قد هبط أسفل النهر إلى ستانلي فولز وهو بطريقه للعودة إلى وطنه؛ وأن صديقي العظيم، الفارس دوفوترز قد وصل من تتجانيقا موشكاً على الموت. حُملت لرؤيته، وحين الكشف عليه وجدت أنه يعاني من خراج في كبده. أدى بي هذا الأمر للاستغراق في التفكير؛ وفي اليوم التالي وبعد أن ارتحت من الرحلة، وحين قمت بالكشف على نفسي بأكثر ما أستطيع [274] وجدت أنني أيضاً أعاني من العارض نفسه. ولم يكن هناك من إمكانية لعمل

شيء، لأننا كنا دون أدوات؛ حتى وإن كانت في حوزتنا فلن يكون هناك أحد قادر على استخدامها. بعدها بيومين أو بثلاثة أيام، توفي فوترز. وبعد أن تحدث لوتيج إليّ حول الحالة، وهو بلطفه الذي يعجز الوصف عنه، قرر أن من الأفضل محاولة الهبوط إلى باسوكو، أسفل ستانلي فولز، حيث كان هناك طبيب وحيث كانت لا تزال هناك فرصة أن تجرى لي عملية، إن استطعت أن أصل هناك في الوقت المناسب؛ على أن ذلك يعتمد على إبقائي حياً، ولكن في حالة الضعف التي كنت أعاني منها لثلاثة أسابيع، كانت الفرصة ضئيلة. لكنني، وافقته الرأي أن من الأفضل المحاولة، مع الأخذ بمخاطر الطريق. أرسل القائد لوتيج النقيب روم لمواكبتني، وعلى الرغم كل المحاولات والمخاوف من العناية برجل مريض، لم يكن بمقدوري سوى القول بأنه عاملني كأخ بدل معاملتي كغريب أو أجنبي.

في التاسع والعشرين من أبريل، وبعد يومين من وفاة دو فوترز، غادرت كاسونجو، منقولاً براحة [275] على قارب سبق لي أن وصفته. وصلت إلى نيانجوي في الأول من مايو. وهنا أصر الملائم ليميغي الذي كان مسؤولاً، على بقائنا ليومين أو ثلاثة أيام، حاثاً على أن حليب البقر الذي نجح في الحصول عليه من القطيع في نيانجوي سيكون ذا مفعول جلي في إعطائي القوة لتحمل الرحلة. وقد نجح، وبعد صعوبات جمة، لكون القطيع متوحشاً من الناحية الفعلية، في إحضار ست عشرة بقرة يمكن حلبها، وأنشأ ملبنة. وكان فخوراً جداً إذ تمكن من صناعة زبدة، على الرغم من أن الحليب المأخوذ من ست عشرة بقرة، لم يكن يكفي لإنتاج ثلاث أو أربع أونصات من الزبدة يومياً. وكانت النظرية القائمة حينئذ في الكونغو، أنه وبالنظر إلى الطقس، فقد كان من المستحيل صناعة زبدة سواء أكان من حليب البقر أم الماعز. ومن المرجح أن الفكرة قد تأسست من واقعة أن الحليب، وبسبب الطقس وجزئياً صنف الأعشاب التي تتغذى عليها الحيوانات، فإنه لا يحتوي إلا على القليل من الدسم

والذي لم يمكن لأحد أن ينجح من قبل في الحصول على كمية [276] كافية منه لاستخلاص قشطة، قبل أن يتصلب، أو أن يتم الحصول على أي نتيجة.

عانيت أهوالاً بين نيانجوي وريبا ريبا، وبوصولي إلى هناك، فإن الخراج في كبدي انفجر بنجاح، وبالتالي أنقذت حياتي. كان الملازم رو (Rue) قد ثبت في ريبا ريبا، وبنى ثلاثة إلى أربعة بيوت على موقع المدينة القديم، الذي أحرق على أيدي الأصليين بعد رحيل العرب، وذلك قبل وصول النقيب تشالتان بعد أشهر سابقة. ولقد شهد هذا المكان قيام ميسيريرا والبلوش الآخرين، الذين نُصّبوا كزعماء عرب، بجُلْد نوبليز (Noblesse) وميشيل (Michels) حتى الموت، ثم قطعوهما وقسّموهما بين عبيدهم لأكلهما. كان هذان هما الضابطان الوحيدان من بعثة هوديستر السيئة الطالع، واللذين كانا سيئي الحظ للوقوع بين أيدي العرب أحياناً. وكان أحد الأشياء الذي ظل قائماً من المدينة القديمة ما وصف لي بأنه شبيه بمعصرة لقصب السكر والتي ربط إليها هذان الرجلان البائسان وعذبا حتى الموت. وكان موهارا هو أحد المحرضين على الاعتداءات، وهو زعيم نيانجوي الرئيسي (والذي أمر بإبادة الرجال البيض) [277] قد قتل على أيدينا في معركة التاسع من يناير 1892؛ وكذلك بوانا لوسا، أحد زعماء ريبا ريبا، الذي قتل على أيدينا أيضاً في معركة السادس والعشرين من فبراير 1892؛ وميسيريرا وابنه اللذين أخذنا كأسيرين، وشنقا بعد محاكمة أجراها البارون دانيس.

وصلنا في التاسع من مايو إلى كيريندو حيث وجدنا دانيس مقيماً. لقد وجد أن المقاطعة كانت في وضع مضطرب للغاية إلا أنه بدلاً من بدء العودة مباشرة إلى أوروبا، فإنه تأخر لترتيب الأوضاع. ولقد أمضيت معه أمسية كانت من أكثر أمسياتي سعادة وإن كانت من أكثرها ألماً أيضاً. فإذا كان مصراً على أن أضحك ضحكة واحدة حقيقية على الأقل قبل أن أموت، قدّم لي وصفاً كوميدياً لأعماله ولوضعية المقاطعة، إلى حدٍّ ظلّ يضحكني طوال الأمسية. ولقد

أثبت أن ذلك كان أفضل شيء يمكن القيام به، فلقد أدى الاختصاص المستمر، إلى تفريغ الخراج إلى حدٍّ أنني تعافيت بشكل متسارع منذ ذلك اليوم وما بعد. ولقد شهدت كيريندو أكثر العقوبات التي أنزلت بقاتلي أمين باشا ورجاله. فبعد مقتل [278] هودистер وكتيبته، أعطى موهارا من نيانجوي الأوامر بذبح جميع الرجال البيض في مناطقه. وكان سعيد بن عبدي، وهو زعيم عربي شاب ذكي ومتعلم (والذي رافق أمين باشا من المقاطعة الاستوائية، وعبر الغابة الكبيرة، إلى ما يقرب من مسيرة يومين من اللوالابا، وسط جوار كيريندو)، تسلّم أوامر عبر كيلبونجي، زعيم كيريندو بقتل الباشا. وبدلاً من ذلك فقد ذهب فوراً إلى نيانجوي يرجو موهارا أن يستبقي على حياة أمين. على أن الطاغية العجوز، في أيّ حال، ظل دون أن يقلع عن إصراره، وعاد سعيد، محتفظاً بالأمل في أن ينقذ أمين على مسؤوليته. وبينما كان على مسيرة يوم أو يومين من كيريندو، أخذ كيلبونجي وجماعته على عاتقهم مسؤولية تنفيذ أوامر موهارا. فلقد أظهروا للباشا وجنوده كل علامات الصداقة، وعوملوا بأفضل أشكال الضيافة، حتى غاب كل شك راودهم إزاء مضيفهم. وبعد توطيد علاقات ثقة بينهم وبين أمين وقافلته، ذبح كل فرد - وقد أحيط كما بدا [279] بأنه بين مجموعة من أكثر الأشخاص وداً - وبحسب إشارة معينة، أينما كان واقفاً. هذه هي القصة - وبحسبما أتذكر - وكما أخبرتني اثنتان أو ثلاث من حريم أمين واللائي تمكنا من إنقاذهن، فقد برئ سعيد بن عبدي، في المحاكمة من كل مشاركة في مقتل أمين، والذي عمل كل ما في وسعه لإنقاذه. وشنق أحد عشر شخصاً ممن تورطوا فعلياً في المذبحة، مع ميسيريرا وابنه في صباح واحد في كيريندو لقتلهما نوبليز وميشيل. أما كيلبونجي نفسه فقد هرب إلى الغابة الكبيرة، ومضت تسعة أشهر قبل أن يلقي القبض عليه على يد النقيب لوتيج، ويحاكم محاكمة ميدانية وتطلق النار عليه.

وصلنا ستانلي فولز في الخامس عشر من مايو، ووصل في اليوم نفسه النقيب كوك (Kock) من ستانلي بول على المركب فيل دو بروجيس (Ville de

(Bruges). ذهبت برفقته إلى باسوكو للالتحاق بالقوة، حيث مال الطبيب إلى الاعتقاد بأنه على الرغم من ابتعادي عن حالة الخطر، فإن من الأفضل بالنسبة إليّ العودة إلى أوروبا دون تضييع أي وقت. وإذ وصل النقيب جاسن (Jasen) بسفينته بعد بضعة أيام، ركبت معه إلى [280] ستانلي بول. ولقد شددت بمتابعة الواقعة التي وبقدر ما نهبط النهر من ستانلي فولز، يبدو تزايد توحش الأصليين وغرابة تصرفاتهم وقذارتهم، وإن كانت ييمبا على النهر الرئيسي، هي المكان الوحيد الذي كان فيه الأصليون عراة تماماً. ولدى وصولي إلى ليوبولد فيل، شعرت أنني بت بصحة أفضل كثيراً، وحيث إن طبيبين اثنين قد أخبراني بأنني إن رغبت في تحمل مسؤولية اتخاذ القرار، فقد بات بمقدوري العودة إلى ستانلي فولز. وكان صديقي النقيب جاسن سيأخذ سفينته مرة أخرى إلى الفولز، وهكذا وبعد بضعة أيام من الراحة ركبت معه، بلا اهتمام بالعودة إلى الوطن دون البارون دانيس، والذي كان مشاركاً في الحملة بأكملها ومستمراً في الاعتقاد بأن لا يزال هناك عمل يتوجب عليه القيام به. سارت رحلتنا إلى ستانلي فولز دون حوادث تذكر، باستثناء مناوشة بسيطة مع الأصليين. ولكن، ما أثار اشمئزاي، هو أنني اكتشفت، ولدى وصولي إلى الفولز، أنه وبينما كنا في نهر إيتيمبري (Itimeberie)، مرّ بنا دانيس في رحلته للعودة إلى الوطن، وترك لي تعليمات منه تفيد بأن ألتحق به على الفور، إذ إنه في خلال رحلته هبوطاً كان قد سمع بأنني قد صعدت الفولز مرة أخرى. وفي أيّ حال، فإن هذا ما كان يسعدني القيام به والتحقنا به في ستانلي بول - وقد حقق جاسن عبوراً قياسياً من ستانلي بول إلى الفولز ثم العودة ثانية، متضمناً رحلة إلى إيبيمبو، في ثلاثين يوماً. وبعد بضعة أيام في ستانلي بول أمضيت في تنظيم قافلة، بدأنا أنا والقائد سيرنا نحو الساحل، برفقة المونسنيير فان أيرتزلر (Monseigneur van Aertzlaer) والأب دو دوكا (Père de Deken)⁵⁰

50 - الأب كونستانس دو دوكا (1852 - 1896) مبشر بلجيكي اشتهر بعمله التبشيري في الصين والتحق بستانلي طامحاً بتحويل سكان الكونغو إلى المسيحية (http://fr.wikipedia.org/wiki/P%C3%A8re_De_Deken) (المترجم).

الرحالة الآسيوي المشهور للبعثة البلجيكية الصينية الأفريقية.

ولدى وصولنا إلى الكونغو دويلمبا (Congo de Lemba) وجدنا قطاراً خاصاً في انتظارنا، لكنني فضلت مواصلة السير، بدل أن أضع نفسي بين مقادير سكة قطار في حالة غير آمنة؛ واذ وصلت إلى متادي (Matadi) بعد يومين، وفي الأول من سبتمبر 1894، وبعد بضعة أسابيع ركبت السفينة إلى أوروبا.

ملاحظات

ملاحظة حول أكل لحوم البشر

[282] تقع بلاد المانييما، التي كانت موقع الحملة البلجيكية، في وسط الطريق بين المركز العربي في زنجبار والمستوطنة البلجيكية في مصب الكونغو. كان ليفينجستون في خلال جهوده لاكتشاف النهر العظيم والذي عرف عنه من العرب شفاهياً، أول أوروبي يخترق بلاد المانييما. ولأنه كان بحماية فرقة من العرب صائدي العبيد، تمكن من دخول البلاد في عام 1869. وإذ ارتحل مع العرب، مضطراً لسلوك طرقهم الضالة، وبسبب التأخيرات التي تضمنتها تلك الطرق، تمكن أكثر من غيره من ملاحظة، وعن كثب، أكثر عادات الشعب. وعلى الرغم من أن عادات المانييما في أكل لحوم البشر كانت معروفة ومصدر رعب كبير لأتباعه، فإن وقتاً كبيراً قد مرّ قبل أن يقتنع ليفينجستون نفسه بالأمر. ولقد تردد كثيراً قبل أن يقتنع [283] بأن عادة أكلهم للبشر كانت نتيجة الشراهة، وهي في الأصل، وإن نتجت لأي سبب من الأسباب، ليست إلا نتيجة علاقة واهية بالطقوس الدينية أو الخرافات. ولقد اعترف المانييما، بحرية، بعادتهم في أكل لحم البشر، الذي وصفوه بأنه: «مالح الطعم، ولا يحتاج إلا إلى القليل من البهارات»، وإن خلطت بعض الأجزاء أحياناً كالقلب مثلاً، ضمن مقادير من لحم الماعز؛ وفي إحدى المرات، وبعد معركة، رأى ليفينجستون الأجزاء، «تقطع وتطبخ مع الموز».

وخلص ليفينجستون أخيراً في مسألة أكل لحوم البشر إلى الاستنتاج بأنه وبين المانييما وبحسب أي مقياس، ينتصب فساد الأخلاق كسبب وحيد لانتشار تلك العادة، لأن البلد ثرية وملتئة بالأغذية (الحيوانية منها والنشوية)، ولا يمكن رفع ذريعة المجاعة أو الحاجة إلى الغذاء الحيواني، للدفاع عن المسألة. «وببقى» بحسب ليفينجستون «أنهم جنس بقسمات جميلة؛ وأستطيع أن أراهن على أن مجموعة من رجال المانييما سيبرزون في جمال الرأس، بل حتى في شكل البدن عموماً، مجمل أعضاء الجمعية الأنثروبولوجية، والكثير من النساء ذوات البشرة الفاتحة والجماليات جداً».

وستبدو ممارسة أكل لحوم البشر بأنها ليست كمسألة متصلة بالتمدن بقدر ما تنتج من انحراف الذوق؛ [284] وتنتمي الأجناس آكلة البشر إلى قبائل أقل شراسة وسفكاً للدماء من قبائل أقل إدماناً على تلك العادة. ويقول هربرت وورد (Herbert Ward) ⁵¹ في كتابه: خمس سنوات مع آكلي لحوم البشر في الكونغو: ⁵² «ولا يتوجب الافتراض بأن القبائل الآكلة للبشر في الداخل متوحشة في كل مناحي الحياة. بل على العكس، إذ إنني لاحظت وجود عادات بينهم مثل حب الزوجة والأطفال تنتشر أكثر مما هي موجودة في وسط شعوب الكونغو الأدنى أو با كونغو (Ba Congo)، الذين لا يمارسون عادة الأكل، كما أنهم ليسوا معتادين على سفك الدماء، إلا في المسائل الدينية».

وترد ملاحظة حول أصل أكل لحوم البشر وانتشاره ضمن مقال في المجلة الجغرافية عدد يوليو 1893، ⁵³ أنه بينما عزا بعض الكتاب أصل أكل البشر إلى دوافع دينية، اعتبر آخرون أن «الجوع هو الباعث الأصلي وراء الممارسة، التي استمرت فيما بعد كاختيار، ثم طرأت الجوانب الخرافية والدينية كتطورات لاحقة. ويبدو أن أكل لحم البشر قد انتشر إلى حد كبير بين سكان أوروبا البدائيين، ولا يزال في أميركا. وتوحي واقعة انعدام العثور على آثار له تعود إلى العصور الحجرية، بأنه بينما يندر أكل الحيوانات الأدنى نوعها لنفسه، ينطلق بروز [285] الممارسة من تملك حد أدنى من الذكاء. وفي الإمكان مقارنة ذلك بملاحظة بيشيل (Peschel) ⁵⁴، بأن تلك العادة تنتشر على نحو أوسع

51 - هربرت وورد، عسكري وفنان (1863 - 1919) إنجليزي وعمل في الكونغو وشارك في حملة إنقاذ أمين باشا (<http://net.lib.byu.edu/estu/wwi/memoir/MrPoilu/Ward1.>) (htm) (<http://www.artnet.com/artist/17512/herbert-ward.html>) (المترجم).

52 - Five Years with the Congo Cannibals.

53 - «Origin and Distribution of Cannibalism», *Geographical Journal*, July, 1893.

54 - هو، من المرجح، أوسكار فرديناند بيشيل (Oscar Ferdinand Peschel) 1826 - 1875 مؤلف كتاب (*The Races of Man and their Geographical Distribution*) وهو

وسط القبائل التي تتميز بقدر من التقدم الاجتماعي... وبينما تنتشر شواهد اللجوء إلى اللحم البشري كغذاء في أوقات المجاعة، تكون أكثر الدوافع شيوعاً هي الخرافة بأنه بأكل قلب العدو أو جزء منه - والذي تقتصر الممارسة عليه غالباً - يجري تملك بسالته. ويحدث الأكل في بولينيزيا⁵⁵ ووسط أميركا في أغلب الأحيان متصلاً بطقوس دينية. وفي المنطقة الأولى، يعطى تفضيل خاص لعيون الضحية. لكن القرايين البشرية، في أي حال، لا تؤدي إلى أكل لحم البشر دائماً.... وبينما يجري أكل لحم الأقارب على وجه الخصوص في بعض الحالات، جرى النظر إلى ذلك بمقت بين المآوري (Maoris)⁵⁶، الذين أيضاً حرموا لحم البشر على النساء أيضاً»

(.E. C. M)

باحث ألماني (http://de.wikipedia.org/wiki/Oscar_Ferdinand_Peschel)
(<http://www.wku.edu/~smithch/wallace/S266.htm>) (المترجم).

55 - منطقة إقليمية من وسط وجنوب المحيط الهادي تضم ما يقرب من الألف جزيرة متناثرة في الإقليم (<http://en.wikipedia.org/wiki/Polynesia>) (المترجم).

56 - السكان البولينيزيون الأصليون لنيوزيلندا (<http://en.wikipedia.org/wiki/>) (M%C4%81ori) (المترجم).

ملاحظة على الحرس الخاص لجونجو لوتيته

تكوّن الحرس الخاص لجونجو لوتيته من 600 رجل، لكونهم الأفراد الوحيدين من بين كل شعبه الذين يمكنه أن يضع فيهم ثقته، والذين احتفظوا بامتيازات خاصة. فبعد يوم أو يومين من إعدام جونجو، أبدى هؤلاء الرجال، والذين كانوا مكرسين لزعيمهم، ميلاً إلى الانتقام لمقتله. [286] وهكذا ومن أجل سلامته ولأجل أمن أكبر للمحطة، فإن الملازم شيرلينك أرسلهم إلى لوسامبو، ومن ثم إلى لولوابيرج، حيث فكر حينها في أنهم حين يكونون خارج مقاطعتهم فسوف تقل إمكانية قيامهم بالمشاكل.

وصلنا نجانبدو من نيانجوي في اليوم الذي أمروا فيه بالمغادرة، واذ غضبوا من أن قوتهم قد زلزلت، أقسموا على الانتقام من الرجل الأبيض ومن بقية شعب جونجو، الذين حكموهم بقسوة وحشية. واذ ساروا خارج نجانبدو أطلقوا النار على سكان المدينة، فقتلوا وجرحوا قليلاً من الناس، وساروا يصرخون في الشوارع بأنهم سيعودون يوماً ما وسيقتلون ويأكلون كل واحد هناك.

وبعد ذلك بفترة قصيرة من وصولهم إلى لولوابيرج، جرى تسجيلهم كجنود ضمن خدمة الدولة، وضمن هذه السلطة ميّزوا أنفسهم بالذكاء والاستعداد والعزم ضد ثورة قبيلة صائدة للعبيد في مقاطعة كاساي.

وبعد سنتين تقريباً ثاروا، وبعد قتلهم لرؤسائهم في لولوابيرج، ساروا في البلاد، يقتلون الرجال البيض، ويهاجمون الأصليين، حتى استعدوا البلاد بكاملها ضد الحكومة، ووصلوا نجانبدو. ولقد جرح في المعارك التي تلت كل من الأمر لوتيج والنقيب دوغم [287] وقتل العديد من بينهم الملازمون كويليه وفغانكين (Franken)، وأوجستي (Augustin) وساندرا (Sandrad)، وسعيد بن عبدي - الذين هرعوا لنجدة لوتيج. مات النقيب كوليजनون من الحمى، وغرق النقيب بودوان (Bauduin) في ستانلي بول.

.(S. L. H)

ملاحظة على استكشاف قسم من نهر لوالابا على يد النقيب هايند

بالنظر إلى أن الجانب الجغرافي من عمل النقيب هايند قد عرض على عجالة في روايته للحملة البلجيكية، فإن الخلاصة التالية والمعنونة بـ «ثلاث سنوات من الترحال في دولة الكونغو الحرة»⁵⁷ قد قرئت أمام الجمعية الملكية الجغرافية في الحادي عشر من مارس 1895؛ تسلّمت مع انتهاء الحملة تعليمات لمسح اللوالابا واللوكوجا، من جوار كاسونجو والاتجاه صعوداً. ولقد تمت هذه البعثة بنجاح حتى امبولي (M'Buli) في السادس من مارس 1894. ويذكر بأن النهر تحت كاسونجو قد تم استكشافه على يد ستانلي، وعلى أيدي آخرين منذ زمنه ذاك، وأن اللوكوجا من تنجانيقا وحتى امبولي قد عرفه تومسون ودولكومون. وكان عملي، على ذلك هو وصل مسح تومسون [288] ودولكومون مع ذلك العائد لستانلي ومن لحقه.

ولقد حصل السيد موهون، الوكيل التجاري للولايات المتحدة، على إجازة من العمل لمراقبتنا.

ولقد جرى، ولمرات عدة، وصف الرحلة بأعلى النهر من الشاطئ، على ليوبولدفيل إلى المحطة على لوسامبو على السانكورو، ولا أحتاج إلا إلى لفت الانتباه إلى نقطة أو اثنتين بما يتعلق بالطريق من متادي إلى ستانلي بول - وهو طريق بات الآن إلى حدٍ بعيد طريقاً مقاماً بحيث إن هناك جسوراً على غالبية الأنهار، ونظف الطريق من الأشجار ومن العوائق الكبيرة. وبنيت ملاجئ/محطات في فسحات على طول المسافة. وينتمي الحمالون المستخدمون لحمل البضائع للمنيانجا (Manyanga) والقبائل النسبية لها. وهناك فارق ملحوظ بين هؤلاء الناس والحمالين الذين استخدمهم العرب في مقاطعة المانيما: فالآخرون هم عبيد، يفرض عليهم العمل، ولكن يتم إطعامهم بكميات كافية من اللحوم؛ في حين أن السابقين هم رجال أحرار، يطعمون كيفما كان. وبينما

يمكن للمانييما أن يحملوا من 80 إلى 90 رطلاً للفرد دون صعوبة تذكر، لا يمكن للمنيانجا أن يحملوا ما يساوي وزن 60 رطلاً للفرد.

وبعد ثلاثة أشهر أمضيت في الجوار في ستانلي بول، استلمت تعليمات بالتقدم إلى مقاطعة اللوالابا على السانكورو. غادرت [289] ستانلي بول على المركب البخاري ستانلي، برفقة خمسمائة من الجنود والحمالين، وبعد أربعة أيام من السير بالبخار وصلنا إلى مصب نهر الكاساي، حيث عدنا أدرافنا. لقد كنا الآن في أرض الوفرة. حيث يمكننا شراء الماعز لقاء حفنة من الخرز الأزرق، أو لقاء قطعة نسيج أو منديل، إن كان أزرق. كان الحصول على خشب للمركب البخاري أمراً صعباً، حيث يقع طرف الغابة على بعد ميل أو ما يشبه في العادة، ولقد تكرر سيرنا ليوم واحد بطوله دون أن نتمكن من تجديد ما نخزنه من وقود. وضافت المستنقعات والسهول المعشبة على حدود الأنهار والضفاف الرملية والجزر في منحدرات الأنهار حرقياً بالحيوانات: فهناك أسراب الطيور الهائلة من مالك الحزين والبجع والبط والعديد من الأجناس الأخرى. ولقد حسبنا في إحدى المرات ما يقرب من 230 فرساً من البحر التي اصطفت في خط فظهرت كأنها سلسلة من الصخور السوداء. وكان أصليو الكاساي خطيرين، إذ إنهم وفي مرات عدة وبينما كنا نمر قريباً من اليابسة، في النقاط التي تكون فيها الأشجار على الضفاف كثيفة إلى درجة تخفيهم، كانوا يرمون المركب بالسهم وبالبنادق، لا لغرض إلا الرغبة في الإيذاء: حيث إنه وفي الوقت الذي أحدث عنه، لم يكن هناك مرور كثيف من المراكب لتشكل سبباً عاماً للنزاع.

وبعد اثنين وعشرين يوماً من السير بالمركب البخاري وصلنا إلى بيناباندي (Benabendi) - محطة الشركة التجارية البلجيكية، [290] حيث يلتحم السانكوروي بكاساي. وقبل ثلاث سنوات كانت تلك هي المحطة الوحيدة على الكاساي، على الرغم من أنه في الوقت الحاضر هناك، بحسب اعتقادي، أربع عشرة منها تعود لشركات مختلفة.

وننتجه هنا من الكاساي الجاري بقوة، إلى السانكورو الهادئ، والذي تمتد ضفافه بمقارنة جلية مع تلك العائدة للكاساي والتي تغطي بالغابات حتى حافة الماء. في هذا الوقت خلا السانكورو حتى من محطة واحدة؛ هناك الآن اثنتا عشرة محطة منهمكة في جمع كميات كبيرة من المطاط الهندي.

استغرق السير بالمركب البخاري عشرة أيام إلى لوسامبو، عاصمة مقاطعة اللوالابا، والواقعة بحسب ليمارينيل (Lemarinel)، على خط الطول 23 درجة شرقاً، وعرض 4 درجات جنوباً. ولقد بنيت المحطة على سهل رملي، على الضفة اليمنى للسانكورو، قبالة مصب اللوبي (Lubi)، وقد أسست بغرض الحد من تقدم العرب من الشرق. وتكونت من حامية مؤلفة من 13 رجلاً من البيض و400 جندي من السود. ولم يجر هناك إلا القليل من القتال، ولقد جرى استخدام المحطة لإقامة مزارع للكسافا والذرة والأرز والتي كانت في أوضاع جيدة بحيث إن المحطة كانت مكتفية ذاتياً.

حمل [المركب] ستانلي تعليمات لنا بإرسال حملة استكشافية لكتانجا وكانت وصلتني توجيهات من الأمر لكي [291] التحق بالقافلة، التي تكوّنت من 7 ضباط (رجال بيض) وثلاثمائة جندي ومائتي حمال، بالإضافة إلى معسكر من الأتباع والنساء. ولقد تسلّم القائد نفسه القيادة. وامتلك كل من القادة السبعة ثلاثة ثيران مدربة للركوب، والتي أفادت في النهاية لاستخدامها كغذاء على الطريق.

بدأنا في السابع عشر من يوليو متجهين إلى قرية بانيا موتومبا (Paniamutumba)، على مسافة ثلاثة أيام من لوسامبو. وإذ عبرنا السانكورو، سرنا صعوداً على الضفة اليسرى عبر غابة واسعة، وحيث بدت بكل جانب منها القهوة البرية، والمطاط الهندي، والفيلة. وفي كل مناطق الكونغو العذراء التي قمنا بزيارتها، كانت القهوة البرية متوافرة وممتازة إلى حدّ أننا تركنا علب القهوة المستوردة دون أن تفتح. وعلى مدى خمسة أيام إلى الجنوب الشرقي من

مونا تشيليو (Mona Chellios) لم نجد على الطريق أي طعام على الإطلاق - ولقد كان خواء تلك المقاطعة هذا من الرجال كما الغذاء، قد أوجد على أيدي صائدي العبيد الذين كانوا في خدمة تيبو تيب.

وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات إلى الشرق، وصلنا إلى قريتين في الفسحة المصفاة، والتي أقيمت مؤخراً، ويعيش فيها البكوا (Baquas)، أو الأفزام، من الغابة المحيطة.

ومباشرة بعد آخر قرية للأفزام نصل للوييفو (Lubefu)، وهو جدول يجري بسرعة وباتساع مائتي ياردة، واستغرق من القافلة يومين للعبور. كان الماء حينها أحمر، [292] لأن رافداً صغيراً للأعلى، يمر وسط طين أحمر، كان في حالة فيضان. وصل في تلك النقطة، سفراء من جونجو لوتيته بعروض للسلام، مع طلب بأن يقوم الرجل الأبيض بزيارته في عاصمته، نجاندو. قرر القائد دانيس أن يقوم بذلك، على حساب تغيير الاتجاه إلى الشمال والشمال الشرقي من الطريق المباشر إلى كاتانجا.

وجدنا بين التلال ووسط مسيرة أربع ساعات من موليندا (Mulenda) إلى لودي (Ludi)، بحيرة صغيرة مستديرة بقطر ميل واحد. ويفترض بتلك البحيرة بحسب الأصليين أن تكون مسكونة. فمن الخطورة، بحسب قولهم، النوم قريبا، أو الشرب منها، أو السباحة فيها، وبالامتثال لتلك الخرافات كان يأوي فيها اثنان من أكبر ذكور فرس النهر التي شاهدتها. كان ماء البحيرة صافياً على أفضل ما يكون. وفي مرتين شرب العديد من جماعتنا منها وسبحوا فيها ليومين دون إصابتهم بأية أمراض.

توقفنا لشهر في نجاندو، وفي نهاية الفترة، تركنا مركزاً وفيه ضابطان خلفنا، وتابعنا سيرنا باتجاه كاتانجا، متبعين حافة المياه المتجمعة بين اللوماي واللوييفو. مررنا بجبلين، سبق لقيسمن أن رأهما من على بعد. ويكاد يستحيل أن يراهما المرء من على بعد ميل، إلا ويعتقد بأن أحدهما يشكل قلعة [293]

بنتها يدا إنسان، وتمتلك تلك الكتلة المربعة الكبيرة من الصخور الرمادية كل مظهر البناء القديم. وبعد مسيرة ستة أيام وصلنا إلى كايندا، عاصمة لوبونجو، وعندها توجب على دانيس أن يعود إلى لوسامبو.

تقع كايندا على خط 6 درجات جنوباً و35 درجة شرقاً، وقد بنيت على تل. وتتمثل صناعاتها الأساسية في عمل نسيج محلي من ألياف النخيل. ويستفاد من قطع ذلك القماش، وهي بقياس ثماني عشرة بوصة مربعة وتسمى ماديبا كنفود في كاسونجو على اللوالابا، حيث لا يوجد النخيل. كما يمثل الحديد مصدر ثراء لهؤلاء الناس، وبعض أعمالهم فائقة الجمال، خصوصاً الفؤوس ورؤوس الأسهم. لقد قنصنا واصطدنا في الجوار، ووجدنا أن اللوكاسي (Lukassi) وقد اكتشفه فيسمان، يرتفع في بحيرة على بعد اثني عشر ميلاً جنوبي كايندا. وكانت هذه البحيرة التي لا تزيد مساحتها على ميلين مربعين تقريباً تمتلئ بأفراس النهر.

ولقد عسكرنا لستة أسابيع في مستنقعات وصفها كامرون، على الضفة اليسرى من اللوالابا، قبالة نيانجوي.

ولدى العودة إلى كاسونجو تسلمت تعليمات بأن أحاول اكتشاف الطريق المائي من كاسونجو، إذا كان ذلك ممكناً، إلى بحيرة تتجانيقا، حيث إن طريق القوافل عبر كابامباري كانت مليئة بالمصاعب. ولقد طلب السيد موهون الوكيل التجاري للولايات المتحدة بأن يرافقني وكانت [294] لديّ أوامر بمساعدته بأي وسيلة أستطيع بذلها، لأنه كان حريصاً على الاختراق إلى زنجبار.

بدأنا في السادس عشر من مارس ووصلنا اللوالابا عند جرف متحكم يقع تماماً تحت أول المنحدرات النهرية لكاسونجو. تمكنا هنا من الحصول على اثني عشر قارباً. اجتزنا المنحدرات النهرية، وتوقفنا عند لونتومبا (Luntumba)، على الضفة اليسرى، فقد كانت البلاد التي نمر بها واطئة وغنية وقد استزرعها العرب. وكان النهر الذي يعلو المنحدرات النهرية مواتياً،

يجري مثل نهاية مجرى قناة الطاحون ولأميال عدة. وبعد عشرين دقيقة في أعلى قرية اللونتومبا وصلنا إلى مجارٍ أخرى، سحب الأصليون قواربنا عبرها. وقد فعلوا ذلك عبر وصل أغصان التعريشات إلى القوارب، ثم قام ستون أو سبعون من الرجال بسحبها واحداً واحداً إلى أعلى المنحدرات. ولقد قست في إحدى المرات ارتفاع الشلال فبلغ عشرين قدماً تقريباً. وتشكل الصخور في تلك المجموعة الثانية من المنحدرات من صبغة غامقة، لتسودّ تماماً في بعض الأحيان، ومخططة بالأحمر القاني. وهي صخور ثرية للغاية بالحديد - إلى حد أنه كانت بوصلاتنا في أغلب الأحيان وفي ذلك اليوم بطوله عديمة الفائدة. وحين نتجه في خط مستقيم لمسافة عشرين ياردة، ودون ظهور أيّ صخور على وجه الماء، فإن الإبرة ستلتف نصف مسافة حول الصندوق.

يرتبط اللوالابا بالضفة اليمنى للوليندي مباشرة فوق المنحدرات الثانية. وبلغ عرضه ميلاً هنا. وتوجد في الزاوية العليا [295] التي تتشكل من اللوالابا واللوليندي جبال جميلة، تغطيها الغابات، ويطلق عليها جبال بينا تويتي (Bena Twiti). وبعد مسافة أعلى قليلاً، يرتبط اللوالابا برافد آخر من الشرق - اللواما. وبين اللواما واللوليندي يشكل النهر الأساسي زاوية قائمة، تجري إلى الغرب نحو قرية سيكابودي (Sekabudi)، ثم إلى الشمال حيث يلتقي النهرين باللوليندي. عسكرنا على الضفة اليسرى من اللواما، ويتسع هذا النهر حين التقائه باللوالابا لمسافة 250 ياردة، وبتيار سريع جداً. وتبدو جبال بينا تويتي على الضفة اليمنى للواما على بعد عشرة أميال. وإذا عبر نهرين صغيرين على الضفة اليمنى - الكاسيما (Kasima) والكلامبيجا (Kalambija) - نصل منحدرات امتوكا (M'Toka). وتشكل هذه المنحدرات من صخور مبيضة، تقسم النهر إلى جداول صغيرة. ويتسع هذا التيار الرئيسي مائة ياردة، وقد مخض زبدًا، وكان من الواضح أنه ليس شديد العمق. وإذا صعبت رؤية الضفاف، ومتابعة مجرى النهر، استحال تقدير

اتساعه هنا تماماً بدقة؛ ولكن يتوجب عليّ الاعتقاد بأن المسافة من البر الرئيسي من ناحية إلى البر الرئيسي من ناحية أخرى تمتد على طول ميلين تقريباً، وإن كان ذلك يعتمد وإلى حد كبير على الفصل. لقد رأينا هنا أسراباً كبيرة من البط وبعض أفراس النهر. ويطلق على الجبال التي تبدأ [296] من ميل من ضفة النهر على كل جانب، وحتى الشلالات التي تلي، اسم سيمبي (Simbi)؛ وهي ليست شديدة الارتفاع، ومغطاة بالغابات الكثيفة. وبعد أن نصل تلك المنحدرات في موتيتيلا (Mutetela)؛ يضيق اللوالابا هنا، ولا يزيد اتساعه فوق الشلالات تماماً على 100 ياردة. وهكذا تمكنا من رؤية جبال زرقاء عالية إلى الجنوب الغربي، ومن الواضح أنها تقع على بعد عشرين ميلاً. وارتدى أحد تلك الجبال، الذي يطلق عليه الآن اسم، الجبل الرئيس (Mount President)، شكلاً غريباً - يشبه الفيل وقد اتجه رأسه إلى الشرق. وقد اصطدنا كميات كثيرة من البط البري والبط، أطمعت بها القافلة بأكملها. وكانت أشجار النخيل شائعة بكثرة هنا، وإن رفض الأصليون أن يعطونا نبذ النخيل، متعللين بالعدر، أنه عادة تسرقه الفيلة.

في شلالات سيمبي كان في حوزة الزعيم الأصلي تاموي (Tamwe) مائتا رجل مستعدون لسحبنا إلى الأعلى، لدى وصولنا. وكانت ضفاف الأنهار مغطاة بالغابات الكثيفة، وبدأ أن هناك أعداداً كبيرة من الجواميس على السهول. وارتفعت التلال من علو 200 قدم إلى 300، وانتصبت من مسافة ميل من جانب النهر. وكانت سرعة النهر الذي يراوح اتساعه ما بين 100 و 200 ياردة، هائلة، [297] وبقاع صخري. وكان من الجلي أن النهر حين يكون في أشد امتلائه، فإنه يتسع لـ 400 ياردة على الأقل ويعمق بدرجة كافية لتغطية الصخور كافة. وتكثر أشجار النخيل، ويندر الأصليون، وبدأ أن تلك البقاع قد تعرضت للغزو في الأيام السابقة.

ووصلنا في أعلى المنحدرات إلى بقعة قريبة من فامبوسي (Fambusi)، وفي تلك البقعة كان ما يشبه البركة؛ فهي ليست بحيرة؛ بل اتساع في النهر نفسه. وكانت الجبال مغطاة بالغابات، وتكثر فيها الطرائد، وتمتد السهول المعشبة لميلين أو ثلاثة أميال إلى الداخل من ضفاف النهر. وينتمي الأصليون هنا إلى جنس جديد، الوجاييليو، ويتحدثون بلهجة من لغة الباتيتيلا. رأينا هنا، في فامبوسي، الجبل الرئيسي المشابه للفييل، على بعد عشرين ميلاً إلى الغرب. وبعد ثلاث ساعات تلت من الملاحة السهلة، وصلنا إلى منحدرات جديدة، حيث رأيت للمرة الأولى، كميات كبيرة من الزقزاق الرمادي، وأيضاً أسراباً كبيرة من البط البري، التي كانت محل قبول كبير بين القافلة. ولقد نمنا في قرى الوجاييليو.

وكانت المنحدرات التالية هي اللوكالونجا (Lukalonga)، التي تشكلت من صخور بلون غامق. وكانت هناك جزيرة كبيرة جداً في وسط النهر، تقطنها مستوطنة تابعة لسيف. وصلنا هناك في الثالث والعشرين من مارس، وقيل لنا إن تلك كانت آخر منطقة يحتفظ العرب فيها بمركز. واصلنا [298] إلى كينسالي (Kinsali)، ومنها إلى كوفي (Kufi). وبدت البلاد مليئة بالسكان في تلك المقاطعة، حيث بدا أنهم لم يُغزوا قط. امتدت الغابات إلى الأسفل إلى ضفاف النهر، حيث رؤيت جيوش كبيرة من القروود. وبدا إلى الشرق، فيما يتضح أنه على بعد عشرة أميال تقريباً، بضعة جبال جميلة جداً. ويمتد هذا النطاق من النهر باتساع ميل من المياه العالية، ولربما كان ميلين لو حسبت الجزر المعشبة. ويأتي الاقتراب التالي للنهر من الغرب، وبجبال عالية على الضفة اليسرى، وكان خالياً من المنحدرات، وهادئ الجريان، وبدا واضحاً أنه شديد العمق. إذ إنني لم أصادف قاعاً على عمق خمسة وثلاثين قدماً.

عبرنا مصب الموكالي (Mukalli)، وهو رافد من المؤكد أنه غير مهم، على الضفة اليمنى. وامتدت سلسلة عالية من التلال في الزاوية بين الضفة

اليسرى للموكالي واللوالابا، وبدأت المنحدرات من هناك مجدداً. وبعد صعودنا إياها لساعات عدة وصلنا إلى واحد منها صعب على نحو خاص يسمى (Nyangi). ولم يكن الشلال هنا ليقل عن خمسة عشر قدماً. وتأت صخرة مخروطية الشكل لافتة للاهتمام بارتفاع أربعين قدماً، يتبين أنها من الكوارتز، من وسط النهر وبرزت على جانبيها كتلتان هائلتان من الكوارتز، وبرزت قمة على الضفة اليسرى بارتفاع تسعين قدماً. عسكرنا على جزيرة، وبدأ أنها كتلة صلبة من الكوارتز لا ينمو عليها إلا عشب رديء. [299] وتسمى الجزيرة بـ كيتينجي، وذلك إثر الزعيم الذي يمتلكها، وتمتد بطول ثلاثة أميال تقريباً، ويعرض من نصف ميل إلى ميل.

ولقد واجهنا صعوبات جمّة مع الأصليين هنا، وبعد العمل طوال النهار لتحقيق تقدم بلغ ثلاثة أرباع الميل، رفض كيتينجي إعطاءنا الأكل وكان شرساً جداً. وكان من الممكن أن نجوع في موقعنا على جزيرة، لكن رجالنا كانوا محظوظين باصطيادهم سمكة يبلغ وزنها مائتي رطل. وواجهنا صعوبات أخرى لدى مغادرتنا، حيث إن الزعيم لم يزودنا لا بالقوارب ولا بالرجال. وما إن بدأنا بالسير، حتى اكتشفنا بأن البلاد مليئة بالسكان، وخرج الناس بالألوف لرؤيتنا مغادرين. وأخبرنا مجدّفونا بأن من الاستحالة علينا أن نمتطي المنحدرات النهرية، لكننا تمكنا على الرغم من الاستحالة من العمل على ذلك. وكانت قرية كونفولو تقع على رأس المنحدرات، حيث يشكل النهر بركة، تكاد تشبه البحيرة: وقيل لنا هنا أن لا منحدرات بعد ذلك، وأن في إمكاننا أن نساfer لثلاثة أسابيع أو لشهر مصعدين اللوالابا دون مواجهة أي عوائق. وأنا آسف لأنني لم أتمكن من تمحيص ذلك؛ إلا إن من المرجح أنه غير صحيح.

جدّفنا الآن ليومين مارين بجزر [300]، في جدول يجري بسرعة عقدتين في الساعة فقط. وبقدر ما كان يمكننا أن نرى في الداخل، فلقد تتابعت القرى واحدة تلو الأخرى، وتغطت ضفتي النهر بكثافة بأناس،

أخرجهم حب الاستطلاع لرؤية الرجل الأبيض. وكان بينهم عرق جيد يسمى جامبولوس (Jambulus)، يلتف الفرد منهم بشكل شبه كامل بقماش محلي، وقد صفف شعر الرجال بشكل رائع بأشكال متعددة. وارتفع نطاقان رائعان من التلال، واحد على كل ضفة من اللوالابا؛ ويسمى ذلك الذي على الضفة اليمنى بـ موامبو (Muambo)، وذلك الذي على اليسرى كلوني (Kaloni). أما بالنسبة إلى الناس فكانوا يتحدثون بهجين من الباتيتيلا، التي لم تكن لنفهمها، ويمكن ألا يكون هذان الاسمان للجبال أبداً، وإنما لا يزيدان عن كونهما اسمي زعيمي المقاطعتين.

في الحادي والثلاثين وصلنا إلى مصبات اللوكوجا، التي تشكل دلتا. ويمتد المصب الشمالي بعرض ثلاثين ياردة تقريباً، والجنوبي بعرض ثمانين ياردة. ويحتوي الأخير على تيار سريع جداً. ويمتد اللوالابا في ملتقاء مع اللوكوجا بعرض 400 ياردة، وتصعيداً حوالي نصف ميل لربما سيتسع لميل كامل. ويجري باتجاه الشمال على 20 درجة غرباً لعدة أميال، وليس هناك من أثر بأي شكل لبخيرة لانتشي التي رسمت على خرائط عدة. يجري اللوالابا من مصب اللوكوجا جنوباً، وهو يسير بشكل مستقيم للغاية، فيما عدا بعض قمم فيها نخيل، فإن السماء والماء يلتقيان في الأفق. وحالما بتنا في [301] اللوكوجا، أخبرنا الأصليون أن تلك هي مياه تتجانيقا. وكان ذلك مثيراً من حيث إنني أرى أن السيد إتش إتش جونستون (H. H. Johnston)⁵⁸ قد قال إنه لم يتسن له قط أن رأى أي أصليين يسمون تتجانيقا بهذا الاسم.

58 - قارن بقصة حياة ترد في (History of a Slave by H. H. Johnston) (http://books.google.com/bh/books?id=amgB99D0iGsC&dq=H.+H.+Johnston&printsec=frontcover&source=bl&ots=zvsQg1kgKW&sig=4MXmD6zCT3VK_tV0oB8h7TbRspw&hl=en&ei=4YzsSsziIsvRjAfs_cSTDQ&sa=X&oi=book_result&ct=result&resnum=6&ved=0CBUQ6A) (الترجم).

يفزر اللوكوجا فوق الدلتا لحوالي عشرة أقدام عمقاً، وكان في ذلك الفصل صافياً جداً، يراوح ما بين ميل وميل وربع اتساعاً، وبالعُمق نفسه في الاتجاه نفسه. ونما العشب في كثير من أجزائه. ولم تكن هناك أية إشارات لمستنقعات على ضفتيه. وانتصبت بعد بضعة أميال صعوداً أعشاب أعاقتنا، لكننا تمكنا من متابعة مجرى النهر بالذهاب ضد التيار، على الرغم من أننا لم نتمكن من رؤية الضفتين. وبعد ثلاثة أميال أو أربعة أميال خلال الأعشاب وصلنا إلى امتداد مفتوح من الماء بعرض أربعين ياردة. وكان الامتداد المائي بكامله من الضفة للضفة بعرض ميل تقريباً. توقفنا عند قرية تسمى أنجوما (Angoma). وكانت البلاد مأهولة بكثافة، إلا أنه لم يبد أن الناس يعرفون أي شيء عن العرب. وكانوا يتحدثون ما يشبه اللهجة العامية من لغة الباتيتيلا، والتي كان لدينا رجل من لوسونا في ماليل (Malela)، قادر على فهمها. وصلنا إلى مبولي (M'Bulli) (مر بها دولكومون قبل سنة ونصف سابقاً) في اليوم الخامس، وهنا مرضت. وانتصب قبالة مبولي نطاق تلال، بدا أنها ترتفع أكثر حين اتجاهها شرقاً. وقال لي مبولي إنه أرسل عاجه ليبيع في تنجانيقا، وهي رحلة تستمر لسته أيام.

تسلّم السيد موهون هنا قيادة الحملة، وعاد هابطاً النهر إلى كاسونجو.

(S.L.H.)

الكشاف

حسب صفحات الأصل الانجليزي المشار اليها بمعقوفين []

الألف

- [303] الأئمة، 2
- الأقزام، 82، 83، 84، 85
- أسرى العرب، 183
- الإسلام، موقف الدين الإسلامي من أكل لحوم البشر (Mohammedan religion)، 125
- أوبانجي، نهر (Oubangi River)، 67
- أوجستا، الملازم (Lieutenant Augustin)، 217، 287
- أوجيجي (Ujizi)، 4، 7، 13، 21، 214، 226 الجدري، وباء، 176، 177
- أكلو لحوم بشر، باسونجو (Basongo)، 62، 63، 64، 65
- أكلو لحوم بشر، بالوبا (Baluba)، 79
- أكلو لحوم بشر، بانجلا (Bangala)، 52، 53، 54
- أكلو لحوم بشر، باتيتيلا (Batetela)، 89، 90
- أكل لحوم البشر، 65، 66، 67، 68، 69، 118، 119، 124، 131، 135، 175، 283، 284، 285
- أمبورسا، الملازم (Lieutenant Hambursin)، 218، 221، 231، 238، 241
- إمبولي أو إمبوري (M'Bulli or M'Burri)، 271، 301
- إمبولي، قرية، 287
- أمين باشا، (Emin Pacha)، 16، 22، 93، 186، 247، 277
- إنفلونزا، وباء، 176
- أونيانيمبي (Unyanyembe)، 4
- دو أويش، الملازم (Lieutenant de Heusch)، 60، 94، 103، 107، 108، 109، 110، 223، 224، 229، 230، 231، 234

الباء

- بارك، الدكتور (Dr Park)، 28
- باتيتيلا، شعب (Batetela)، 89 - 90
- باتوا، شعب الأقزام (Batwa)، 82
- باسوكو، المعسكر في (Basoko)، 215

- باسونجو، شعب (Basongo) ، 62 - 63
- باكوبو، شعب الماء في السانكورو (Bakuba, Sankuru water-people) ، 70
- باكوسو (Bakussu) ، 18
- بالوبا، شعب (Baluba) ، 79 ، 81 ، 94
- بانجلا، شعب (Bangala) ، 51 ، 53 ، 55
- بانيا موتومبا، زعيم (Pania Mutumba) ، 78
- بانيا موتومبا، قرية، 71 ، 291
- بجامويو (Bagamoyo) ، 3
- البرتقاليون، 2
- برزيدانت (الرئيس) ، قمة (Mount President) ، 296 ، 297
- برلين، مؤتمر، 21
- البلجيكيون، 1 ، 5 ، 6 ، 18
- البلجيكيون، إقامتهم لحصون، 18
- البلجيكيون، الملك ليوبولد الثاني، ملكهم، 28
- بنانا، مدينة (Banana) ، 28
- بوانا لويزي، زعيم عربي (Boina Loisi) ، 215
- بوانا نزيجي (N'Zigi Bwana) (انظر: نزيجي، بوانا)
- بولدوين، الملازم (Liuetenant Baldwin) ، 247
- بوما، مدينة (Boma) ، 29
- بومات عربية (Arab bomas) ، 100 - 102
- بونتييه، القائد (Commandant Ponthier) ، 216 ، 218 ، 221 ، 222 ، 225 ، 235
- بيرتون، السير ريتشارد، 4
- بيمبا، جزيرة (Pemba) ، 2 ، 3
- بينابندي، محطة تجارية (Benabendi) ، 289
- بينا تويتي، جبال، 205
- بينا جويّا (Bena Guia) ، 235 ، 236
- بينا موسوا (Bena Musua) ، 232 ، 233 ، 235 ، 243
- بينجا، العريف (Corporal Benga) ، 112 ، 113 ، 116
- البيوت، المحلية، 117

التاء

- تنجانيقا، بحيرة (Tanganika Lake)، 24، 26، 270، 293، 301، 302
- تبورة (Tabora)، 4، 13
- التجارة، طرق، 3، 7، 15
- التجارة العربية، طرق 3، 7
- تشالته، القائد (Commandant Chaltin)، 170، 215، 236، 240، 247
- التطعيم، آثاره بين الأصليين، 176، 177
- التعاويذ، 73، 74، 89، 137، 138
- توبك، النقيب (Captain toback)، 215
- تومسون، السيد جوزيف، الراحل، 249، 271، 289
- تيبو تيب (Tippu Tib)، 7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 21، 234

الجيم

- جاسن، النقيب (Captain Jasen)، 279، 280
- الجامبولا، عرق (Jambula)، 300
- جانكر، الدكتور (Dr Junker)، 15
- الجبلان، 292
- جمعية مناهضة العبودية (Anti-slavery Society)، 246
- الجراد، هروب، 204، 205
- جرانت، النقيب (Captain Grant)، 4
- جونجو لوتيته (Gongo Lotete)، 18، 19، 61، 70، 72، 75، 81، 82، 86، 88، 89، 97، 111، 114، 123، 124، 128، 132، 133، 141، 173، 175، 183، 207، 208، 209، 210، 211، 212، 285، 286، 287، 292
- جونستون، السير (Sir H. H. Johnston)، 301
- جويو كابوبا (Goio Kapopa)، 137
- جيليا، القائد (Commandant Gillian)، 170، 180، 181، 210، 217، 235، 237، 239، 244

الحاء

- حصون العرب (أنظر يوميات العرب)، 100 - 102

الخاء

- خرافات الأصليين، 198، 199، 200
- الخفافيش، 56

- دانيس، البارون (القائد) ، إغاؤه لمسكره قبالة نيانجوي، 153
- دانيس، البارون (القائد) إغاؤه عقوبة التقييد بالسلسلة (Baron Dhanis) ، 46
- دانيس، البارون (القائد) ، تبنيه لنظام الخدم الصبيان، 126
- دانيس، البارون (القائد) ، تقدمه تجاه روماليزا، 218
- دانيس، البارون (القائد) ، تقسيمه لقواته، 234
- دانيس، البارون (القائد) ، تنظيمه لكتائب الصبيان، 127
- دانيس، البارون (القائد) ، حملته ضد جونجو لوتيته، 61
- دانيس، البارون (القائد) ، رحلته الجديدة بسفر القوافل، 31
- دانيس، البارون (القائد) ، رحلته من كاسونجو إلى نيانجوي، 206
- دانيس، البارون (القائد) ، الزحف على كاسونجو، 180
- دانيس، البارون (القائد) ، زحفه على موهارا صاحب نيانجوي، 132، 133، 134
- دانيس، البارون (القائد) ، شروطه التي أقامها مع ضباطه، 120
- دانيس، البارون (القائد) ، عودته إلى لوسامبو، 94
- دانيس، البارون (القائد) ، قراره بالهجوم على قوات سيف، 146
- دانيس، البارون (القائد) ، قيامه بـ «الطب»، 137
- دانيس، البارون (القائد) ، في كيرونو، 277
- دانيس، البارون (القائد) ، مقابلته لرسول سيف، 172
- دانيس، البارون (القائد) ، موقعه أبان الهجوم على روماليزا، 236
- دانيس، البارون (القائد) ، هجومه على العرب في نيانجوي، 161-168
- دانيس، البارون (القائد) ، هجومه على نيانجوي، 170، 171
- دانيس، البارون (القائد) ، الهروب حين أخذه لكوسونجو، 183
- دانيس، البارون (القائد) ، هزيمته لجونجو لوتيته، 87
- دانيس، البارون (القائد) ، هزيمته لروماليزا، 225
- دانيس، البارون (القائد) ، وصوله إلى لوسونا، 123
- دويغون، الملازم، إخراج جثته من القبر في كاسونجو، 185
- دويغون، الملازم، مقتل (Lieutenant Debruyne) ، 129
- دويوا، الملازم (Lieutenant Dubois) ، 234
- دوشين، الملازم (Lieutenant Duchesne) ، 107، 111، 114

- دوغم، النقيب (الملازم) (Lieutenant) Captain Doorme) ، 181، 182، 196، 198، 218، 220، 221، 222، 225، 227، 231، 237، 245، 286
- الدولة الحرة، دفاعاتها، في ستانلي فولز، 17
- دولة الكونغو الحرة، 1، 7، 14، 16
- دولكومون، حملة (Delcommune) ، 93، 128، 139، 271، 287، 288
- دين، السيد ولتر دين الراحل، 16، 234

الرءاء

- راشد/رشيد، زعيم عربي، 15، 21، 216، 234، 236، 247
- روم، النقيب (Captain Rom) ، 276
- روماليزا (Rumaliza) ، 214، 216، 218، 222، 223، 224، 225، 231، 234، 235، 238، 239، 246
- ريبا ريبا (Riba Riba) ، 215، 236، 276

الزءاء

- زنجبار، 2، 8، 9، 13، 15، 16، 21، 93
- زنجبار، سلطان، 14
- زنجبار، العرب من، 1، 2
- زنجبار، القنصل البريطاني في، 14
- زنجبار، معاهدة، 93، 117
- زنجبار، المركز العربي في، 1، 2، 8
- الزواج بين الأصليين، 81

السين

- الساحر، الطبيب، 108
- سانكورو، نهر (Sankuru River) ، 5، 29، 57، 58، 270
- سبيك، النقيب (Captain Speke) ، 4
- السجون، 46
- ستانلي، إتش إم (Mr H. M. Stanley) ، 4، 8، 12، 13، 14، 16، 65، 93، 116، 179، 234، 249، 287، 288
- ستانلي بول (بحيرة ستانلي)، 4، 7، 23، 27، 40
- ستانلي فولز (شلالات ستانلي) (Stanley Falls) ، 5، 14، 23، 27، 216

- ستانلي فولز ، هروب العرب من، 216
- ستيرز، حملة (Stairs Expedition) ، 93
- سيركيل، الرقيب (Sergeant Cerkel) ، 95، 111، 142، 169، 181، 196
- سيف (سيفو) (12، 19، 87، 96، 99، 103، 107، 108، 110، 106، 107، 129، 130، 140، 147، 148، 149، 168، 172، 214، 231، Sefu)
- سيمبي، جبال، 296
- سيمبي، مساقل (Simbi Falls) ، 296

الشرين

- الشنق، الإعدام بـ 131
- شودرون الجهنمي، موقع Chaudron Infernal ، 30
- شيرلينك، الملازم (Lieutenant Scherlink) ، 94، 95، 99، 107، 113، 117، 119، 134، 142، 169، 181، 186

الصاد

- الصبيان، كتائب، 126، 127

الطاء

- الطبول، إرسال الرسائل بـ 59، 60

العين

- العاج، 2، 4، 8
- عبيدي، سعيد بن (Said-ben-a-Bedi) ، 181، 247، 279
- العرب، 7، 13، 216
- العرب، ابتزاز، 18
- العرب، انفجار في معسكر، 241
- العرب، الثورة في نيانجوي، 173
- العرب، الجنود، 24
- العرب في زنجبار، 1 - 2
- العرب في ستانلي فولز (Stanley Falls) ، 215
- العرب، ظهورهم، في نجاندا (N'Ganda) ، 111
- العرب، عادات 201
- العرب، المواجهة الأولى، 113

- العرب، مواجهة، في كاسونجو لوكيلا (Kasongo Luakilla)، 133 - 134
- العرب، الهجمات على قوات الدولة، 143 - 144
- العرب، هروبهم من، ستانلي فولز (Stanley Falls)، 216
- العبيد، 8، 14
- العبيد، تجارة، 3

الغين

- الغابات المدارية، 26
- غابة مدارية، وصف، 75، 76، 77
- غو، النقيب (Captain Rue)، 276

الفاء

- الفئران، 262
- فامبوسي (Fambusi)، 297
- فان غيل، الرقيب (Sergeant Van Riel)، 218
- فان لينت، الملازم (Lieutenant Van Lint)، 215
- فرانكي (Frankie)، 128
- فرس النهر، صغير، جنس لم يسبق وصفه، 58
- فرس النهر، صيده، 41، 42، 43، 44، 189، 190
- فرس النهر الليبيري (Liberian hippopotamus)، 58
- فريز، الرقيب ألبرت (Sergeant Albert Frees)، 112، 113، 114، 115، 116، 121، 121، 171، 199، 226، 230
- ففانكين، الملازم (Lieutenant Franken)، 287
- دو فوترز، الفارس دولينتر دو (Chevalier de Wouters d'Oplinter)، 60، 70، 72، 111، 120، 134، 141، 142، 144، 163، 164، 165، 180، 189، 190، 191، 192، 192، 222، 223، 224، 227، 230، 231، 235، 236، 237، 238، 240، 245، 246، 273، 274
- فيسمن، الدكتور (Dr Wissmann)، 13، 65، 122، 292، 203
- فيفي (Vivi)، 270
- فيفيه، المفتش (Inspector Fivé)، 169، 179، 215

القاف

- قروح، يسببها نقص الملح، 45

- قوارب، محلية، 70، 71، 252
- قوافل، طرق، 35، 36، 37
- قوافل، وصفها، 30، 31، 32، 33، 34، 35
- القهوة، البرية في غابات الكونغو، 291
- الكاف**
- كابيندا (Kabinda)، 93، 94، 293
- كاتانجا (Katanga)، 5، 23، 62، 75، 290، 292
- كاساي، أصليو (Kasai natives)، 289
- كاساي، محطات على نهر، 57
- كاساي، نهر (Kasai River)، 5، 7، 289، 290
- كاسونجو (Kasongo)، 6، 7، 11، 21، 217، 218، 223، 227، 234، 236، 287، 293، 302
- كاسونجو، أسباب الترف المكتشفة فيها، 184
- كاسونجو، تأخير الهجوم عليها بحسب القائد دانيس، 178، 179
- كاسونجو، حياة قوات الدولة فيها، 194-205
- كاسونجو، زحف قوات الدولة عليها، 180، 181
- كاسونجو، سقوط، 182، 183
- كاسونجو، الغنائم التي استولت عليها قوات الدولة ب، 185، 186
- كاسونجو، مقتل ليبينز ودوبغيون ب، 129، 130
- كاسونجو، المقاطعات المحيطة ب، 187، 188، 189
- كاسيما، نهر (Kasima River)، 295
- كاميرون، القائد (Commander Cameron)، 4، 11، 65، 124، 293
- كسار، الملازم (Lieutenant Cassar)، 140، 142، 143، 144
- كلامبيجا، نهر (Kalambija River)، 295
- كوك، النقيب (Captain Cock)، 279
- كوانجولا (Kwangolas)، 251، 265
- كوليجنون، النقيب (Captain Collignon)، 232، 235، 239، 244، 287
- كوليه، المريف (Sergeant Collet)، 218، 221، 287
- الكونغو، دولة الكونغو الحرة (Congo Free State)، 1، 12، 21، 26

- الكونغو، نهر، 4، 12، 27، 29
- كيمباري (Kebambari)، 234، 235، 238، 239، 248، 293
- كييونجي، زعيم (Kibungi)، 247، 278، 279
- كيتينجي، زعيم (Kitenge)، 299
- كيتينجي، قرية، 299
- كولوموني، زعيم (Kolomoni)، 96، 112
- كولوموني، قرية، 94، 95
- كونغولو، زعيم (Kongolo)، 299
- كونغولو، قرية، 299
- كيروندو (Kirundu)، 277، 278، 279

اللام

- لانتشي، بحيرة (Lanchi)، 249، 268، 300
- اللباس، في المناطق المدارية، 47
- ليفنجستون، الدكتور (Dr Livingstone)، 4، 65، 282، 283
- اللوالابا، نهر (River Lualaba)، 5، 6، 7، 11، 154، 155، 168، 171، 188، 213، 248، 268، 287، 294، 295، 296، 299، 300
- لوبونجو، الزعيم (Lupungu)، 18، 75، 81، 82، 93، 94، 111، 112، 114، 124، 128
- لوتيغ، (المقدم) القائد (Commandant Lothaire (Major))، 216، 240، 241، 242، 243، 245، 246، 286
- لوريمبي، نهر (River Lurimbi)، 97
- اللواما، نهر (Luama River)، 295
- اللويفو، نهر (Lubefu River)، 5، 93، 291
- لوسامبو (Lusambo)، 29، 38، 60، 72، 73، 75، 288، 290، 291
- لوسونا (Lusuna)، 123، 124، 128
- اللوفوبو، نهر (Lufubu River)، 168
- لوكاسي، نهر (Lukassi River)، 293
- لوكالونجا، منحدرات (Rapids of Lukalonga)، 297
- لوكوجا، مصب نهر، 300
- لوكوجا، نهر (Lukuga River)، 267، 268، 269، 270، 287، 301

- لوليندي، نهر (Lulindi River) ، 294
- اللومامي، نهر (River Lomami) ، 85، 90، 93، 97، 98، 112، 117، 129، 139، 140، 208، 210، 231
- لونج، الملازم (Lieutenant Lange) ، 218، 220، 232، 236، 246
- ليبينز، القائد، (Commandant Lippens) ، 96
- ليبينز، القائد، إخراج جثته من القبر في كاسونجو، 185
- ليبينز، القائد، مقتل، 129
- ليميفي، الملازم (Lieutenant Lemery) ، 236، 275
- لينتز، الدكتور (Dr Lenz) ، 15، 295
- ليوبولد الثاني، بحيرة (Leopold II Lake) ، 270
- ليوبولدفيل (Leopoldville) ، 40، 48، 49، 53، 288

الميم

- ماليل (Malela) ، 7، 86، 87
- مانيانجا، حمالو (Manyanga) ، 288
- مانيما، أكل لحوم البشر بين أهل (Manyema) ، 182، 183
- مانيما، بلاد (Manyema) ، 4، 5، 7، 21، 282
- مانيما، حمالو، 288
- متادي (Matadi) ، 4، 29، 30، 288
- متوكا، منحدرات (M'Toka rapids) ، 295
- محطة الشلالات (Falls Station) ، 5، 6، 14، 23، 27، 216
- مستنقعات، 123، 124
- مسقط، العرب من، 2
- الملح، الحرمان من، 123
- الملح، مقاطعة، 151
- موانا مكوانجا (Mwana Mkwanga) ، 227، 231، 232، 236، 238
- موكاللي، نهر (Mukalli River) ، 298
- مونو كيالو (Mono Kialo) ، 79، 81
- موهارا في نيانجوي (Mohara) ، 130، 131، 142، 144، 146، 147، 149

- موهون، السيد (Mr Mohun) الوكيل التجاري للولايات المتحدة، 236، 239، 247، 250، 251، 256، 272، 288، 293، 302

- ميداج، الملازم (Lieutenant Middagh)، 236

- ميسيريرا، زعيم عربي (Miserera)، 168، 215، 247، 276، 277، 279

- ميشو، النقيب (Captain Michaux)، 111، 114، 123، 132، 133، 141، 142، 146، 147، 149، 164، 165

النون

- نجاندا (N'Ganda)، 85، 86، 87، 90، 91، 92، 207، 208، 216، 292

- نزيجي، بوانا (Bwana N'Zigi)، 15، 16، 234، 238، 244، 245

- نيانجوي (Nyangwe)، 4، 5، 6، 7، 11، 13، 189، 190، 236

- نيانجوي، الحالة المدمرة في 12

- نيانجوي، المعركة مع العرب فيها، 174

- نيانجوي، المقابلة بين ستانلي وتيوتيب في، 12

- نيانجوي، مهاجمتها بقوات الدولة، 170، 171

- نيانجوي، وصول قوات الدولة إلى، 153، 154، 155، 156

- نيانجي، منحدرات (Nyangi rapids)، 264، 298

الهاء

- هودистер - أمين، حملات، 97

- هودистер، حملة (Hodister Expedition)، 22، 93

- الهوسا (Hausa)، 109، 133، 176، 192، 193، 210

الواو

- الواجابيليو، عرق (Waujabillio)، 259، 297

- الوجينيا، شعب الماء (Waginia)، 157، 158، 159، 169، 171، 183، 252

- دو وينتون، السير فرانسيس، (Sir Francis de Winton)، 270

الياء

- يوتوتيرا (Utotera)، 11

- ترجمة النصوص المرافقة للرسوم التوضيحية بحسب ورودها في الصفحات (رقم الصفحة) أو في صفحات تقابل الصفحة المرقمة بسبب أن بعض الرسوم أو الصور

وردت دون ترقيم

مصادر بحث للمترجم

سعيد، زاهر. 1981. تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار،
رتبه لويس صابونجي، مسقط.

المرجبي، حمد. 2005. حياة حمد بن محمد بن جمعة المرجبي
(1840-1905) المعروف بتيوتيب، ترجمة محمد المحروقي. مسقط.

المغيري، سعيد. 1979. جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق
عبد المنعم عامر، مسقط.

Brode, Heinrich. 2000. *Tippu Tip: The Story of His Career in
Zanzibar & Central Africa*, Zanzibar.

Phillips, Wendell. 1971. *Oman: a History*, Beirut.

المواقع

en.wikipedia.org

fr.wikipedia.org

ftp.columbia.edu

www.answers.com

www.artnet.com

www.1911encyclopedia.org

www.alderneysociety.org

www.brainyhistory.com

www.drugs.com

images.google.com.bh

www.mauserguns.com

www.militaryrifles.com

www.net.lib.byu.edu

openlibrary.org

www.thefreedictionary.com

www.wku.edu

www.zum.de